

أبراهيم عبد المجيد

السلسلة الشعر والأدب



السلسلة الأخرى
رواية

أبراهيم عبد المجيد

البلاية الأخرى

رواية



MADEH-BAYOU
PUBLISHERS

بازار الكتب بدمشق

LONDON - CYPRUS

لندن - قبرص

THE OTHER VILLAGE

BY

IBRAHIM ABDEL MAGID

First Published in the United Kingdom in 1961

Copyright © Khalil El-Rayyes Books Ltd

56 Kingsbridge

London SW6 3X 7NQ

U.K.

CYPRUS: P.O. Box 3336 - Larnaca

British Library Cataloguing in Publication Data

Magid, Ibrahim Abdel

The Other village

1. Title

962.336 (F)

ISBN 085131797 Paperback

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval
system, or transmitted in any form or by any
means, electronic, mechanical, photocopying,
recording or otherwise, without prior permission
in writing of the publishers

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦١

الإهداء

إلى فاطمة ...

انفتح باب الطائرة فرايت الصمت .

شيء ما لم أن تشعر لي ظهورك بهواء التكيف بينما صدرك ووجهك
يقابلان الشمس وانت بعد لم تفارق باب الطائرة. لكن الذي خلعي
ولمعي يرفق بخطوت أول خطوة

ما كنت افارق السلم الصلح. وتلامس قدمي الأرض. حتى
احسنت اني والأرض والفضاء شيء واحد. ساخن وفارغ. وكان
عليّ أن أمشي المسافة القصيرة حتى صلالة المطار

المطار صغير ليس فيه شيء طائرة واحدة صليحة بعيدة لونها
أصفر قائم. على جليبيها رايت صورة العظم الأمميكي. وتحت
الصورة قوات بالانكليزية (القوات الجوية للولايات المتحدة)



عز باب الصالة رايت بعض الجنود سمر الوجوه. زحف أحدهم
الرجال في صف والنساء في صف. وشاهدت خلف زجاج جانب
الصالة سراً عريضاً يتحرك : ثوباً فوق الأرض فادركت أن فوقه
ستعمل حقائني

- تقدم يا ولد.

زحف في أحد الجنود. أدركت أن الذين أمامي دخلوا إلى الصلاة.
واني نمت وألفاً في الطيور

- هل سيشتي؟

- إطلاقاً، كنت أنتظريه.

أجبت بعد أن اضطربت وكنت أعذر. قال.

- إذن لا تغامر المطار دوني.

وبدأت الحذائب تظهر فوق السير، فوجدت نفسي أشركه ولتترب
منها

ما الذي يجعلني أُنْعَزُ من هذا الشاب؟

● ● ● ● ●

حملت حقيبتي الحمرء الصلبة، ووضعتها أمام أحمد
الكشافير الذين بدوا صفاراً لا يتجاوز أكبرهم العشرين من العمر.
فتحت الحقيبة بسرعة، وبسرعة أيضاً انتهى الكشف من فحصها
ما كنت أظنها حتى أمرني بفتحها من جديد

- ما هذا؟ كتب؟

- طبيبك الخاص، مجلة مصرية.

- هذه متنوعة.

تعلقت عيناى بعينه لم أجد ما أقوله.

- يا أخي ما للمصريين بعبون القراءة؟!

نسائل وأنا صامت. هل أقول إن طارق؟ الذي أرسل لي عدد

العمل، أرحماني بوحضرك هذا العدد الخاص من العمل والفلاحة؟
هل أقول أنني لا أعرف قوانين البلد؟

- امضي ..

قال بلا عبالاة، وأطلق الحقيبة بسرعة تاركاً المجلة داخلها.
انصرفت غير مصحبل، ورأيت فاروق ينظر إليّ من خلف زجاج
السيارة مبتسماً



- ألم أقل أنك تنعماني؟

أحسست بالمرج الشديد، ها هو «عابد» يقاچني للمرة
الثانية. كنت جلست بالسيارة جوار فاروق، وكان يحدثني من
للساعة المفتوحة يكاد يَدْخُل وجهه الطويل ذا العينين الضبقتين
والعاجبين الكثيفين المنتعشين من الوسط.

تخلّصتُ من ارتباكِي، وقَدَمته إلى فاروق الذي قال وهو يدير
السيارة:

- أهلاً. لقد تقابلنا من قبل

وتساعل عابد

- هل هذا قريبك حقاً؟ إنه ضجول جداً..

- هذه أول مرة يترك مصر، سيحضر إلى العمل غداً.

كان فاروق يتحدث دون أن يكلف نفسه مجرد النظر ناحية عابد
الذي أدخل رأسه بالفعل من الزجاج المفتوح، فكوت أنتفخ
أنفاسه، وصوت لا أعرف إلى من انتظر. لكن عابد انصرف فسألت
فاروق الذي تحرك بالسيارة

١ - لا يزال ندعه إلى الركوب معه.

- معه سيارة.

- إنه قادم معي من القاهرة.

- لا تخش بذلك بأحد.

ويدأ لي أنني لن أفهم شيئاً فأنرت الصمت، وأجسست بالحجر حاراً وخائفاً.



انطلقت السيارة الداتسون اليابانية على الطريق تضيق الطويل الذي تحيطه التلال المتراصة على الجانبين، فاروق يقود السيارة بسرعة مجنونة الطريق خال حلقاً، لكنني لم أركب من قبل سيارة تكاد تطير، انكشيت، فتح فاروق الراديو، فسمعت صوت محمد عبده «لا ترمين الرسائل»، ولما ظهرت بعض أكتافك خشبية على جانب الطريق قال فاروق:

- هذه شركتك.

رايت ظلالين يسرعان أمام الأكتاف، فزت سيارة من جانبي، فذعرت، ابتسم فاروق وقال

- الجميع هنا يقودون سياراتهم بهجون ويمرون من الجانب الخطر.

لكنني رحت أنظر إلى كلب أبيض بعيد بين الكلبان الوطنية المتناثرة، كلب ضخم بدا لي مثل حمار شارد لا بد أن فاروق لعه أيضاً لأن قال.

.. هنا يقتلون الكلاب، يعتبرونها نجسة، هذا الكلب يعرف ذلك ولا يستطيع الاقتراب من العمران

وضمضت ولما تراجعت بذعني إز الحائسة وكيف جأوت
انصدفة بيدي وبين عايد فكان لا بد أن نتكلم عرفت أنه يعمل في
الشركة نفسها التي أسسها للعمل بها، وأنه كان يعضي أجازته
السفوية بالقاهرة، وعرض علي أن أمضي ليشي الأول معه في سكنه،
لماخبرته أن بي قريباً بالبلدة ينتظرنني، فحشني عن غلاء أسعار
السكن، وكيف أن للشركة سكناً خاصاً، لكن يحمله الاسيويون
ونائباً ما يظفر فيه حريق، ثم سألني عن عملي السابق وكيف
حصلت على العقد، وحشني للمستقبل، وما إذا كنت خائفاً لو
متزوجاً، وبغير ذلك كثير مما سبب لي بعض الضيق، لكنني فكرت أنه
ربما يود معاونتي معللاً وتعامل فاروق

.. لاحظت أنه تأخرت قليلاً في صلاة الاستسبال؛

.. طيبك الضاهر، ذالوا إنها ممنوعة.

ضبط وذل

.. لم تعد بذات فائدة.

.. تيسمت، قلت:

.. أصبحت أباً إذن.

زاد من سرعة التسبارة وذل

.. أصبحت أعزب، طلقت.

• • • • •

ظهرت البلدة الصغيرة واختمت بسرعة، ذلك أن فاروق جنح

بسيارته إلى طريق ينحني إلى اليمين ويدور حولها من بعيد في آخر الطريق رأيت مجموعة من البيوت المنخفضة، بينما البلدة حين لاحظت لي، ظهرت بعض مبانيها عالية شيئاً ما.

فوق أزقة غير مستوية من الأرض كانت العربات تتأرجح، رأيت سيارات كثيرة تطف أمام المنازل ذات الأبواب الحديدية الضخمة. قال فاروق:

- كل شارع هنا معرض للسيارات.
قلت.

- لم يمس عام واحد على زواجكما!
قال.

- لا تشغل بالك. لو أدت أن تشتري أيضاً في قريتها وأدت أن تشتري في قريتي.

ولم أقهم. لم يبد من المرات الطويلة التي التفت فيها بفاروق أنه عصبي أو أحمق. هو في الحقيقة ابن عم لامي ظهر فجأة في حياتنا منذ خمس سنوات. أي عام تخرجني من الجامعة. في ذلك الوقت قال إنه تم تعيينه مهندساً في مصلحة الطرق بالإسكندرية ففكر في زيارتنا. وسألتني لامي عن أسماء كثيرة لأقارب لها بفريتها سمعت أنا أسماءهم لأول مرة. فأخبرها فاروق بموتهم جميعاً. انقطع عن زيارتنا بعد ذلك عاماً، ثم ظهر يحاكيني عن عدم زيارتي له، وعدم اصطحاب لامي لزيارة عمها الذي شاخ وهرم ولا يزال يذكرها، بل ويذكرني أنا أيضاً منذ كان ينتمي إلى الإسكندرية في الخمسينات. يشتري الكسب والأعلاف من شركة الزيوت والصابون، ويبني ليلة

في بيتنا. كانت أمي تشترك فاروق الحديث. وتصديق على كل كلامه. واتردد أنا في القول بأنني لا أذكر شيئاً من ذلك. بل وأشعر أنه من الصعب أن يظهر لك قريب هكذا فجأة ولنت في سن الشباب. ثم تنمو بينكما علاقة قوية. والمكر أيضاً أنني لا أعرف قريبتنا هذه التي انتصرت منها أمي. لم أولد فيها ولم أزرها يوماً. لكن فاروق عاد واختفى مرة ثانية. ولا لست كيف عرفت أمي أنه سافر إلى المسمونية. ولا أعرف الدافع الذي جعله يوصل أكثر من خطاب يعرض على فيه مساعده في الحصول على عقد للعمل لم يحدث أنني شكوت أمي من شيء. ولا انتعت لأي رغبة في ذلك.

لكن كل لا بد أن أسافر من يرمس الآن فرصة سهلة كهذه
أنه شيء يحصلني الناس عليه. هكذا قلت أمي إن عملي في
التدريس لن يتحرك بي خطرة للأمام. وانتظاري للإعارة وفقاً
لجدول وزارة التربية والتعليم. يعني الانتظار حتى يجب التخط
هكذا قال فاروق في رسالته

- كان يمكن أن نؤجلا هذا الشراء.

قلت فجأة. فقال حاسماً

- ولذا لا تطيع الزوجة زوجها؟

سكت. وسكت هو لحظات ثم قال:

- أعطيتها ثلاث آلاف جنيه. كنت تكلفت منها أيضاً في الزواج.

سوف أعطي ذلك ولتزوج بأحسن منها. هذا هو البيت يسكن
معني ضيق ومدرس

وتوقف بالسيارة أمام بيت صغير من بيرو واحد مبني من الطوب
الأسمنتي.



كان الدش البارد شيئاً رائعاً بملء وددت لو شركوني أنظره
بعضي. لكنهم أصرّوا أن أجلس معهم لمشاهدة المباراة الحامية في
«الطلونة».

لم أرتج للبيت بشكل عام حجرتان في كل ناحية، بينهما ردهة
واسعة غير مسقوفة. وفي الطرف البعيد دروة المياه والمطبخ. طالع
فأروق إنه بيت على الطراز العربي، لكنني وجدت مجرد مكعبات من
الأسمنت. حجرات ضيقة تطل نواحيها على الردهة. لا غل
الشارع. والفنادق أيضاً ضيقة كأنها كوى سجن.

تحت المياه الباردة كنت أسمع صوت حركة «الزهريين» ولراعات
«الفراشيعة» وتصلباً وضحكات. وفكرت أن أخرج بمرصة منجهاً
إلى مغلفتي التي جهزها فأروق بدولات صغير من البلاستيك. ومبرر
معدني لشخص. ومروحة. لكنهم لمحوني وأنا أقترب من الحجرة
نهتموا معاً «لا نوم إلا بعد منتصف الليل. هذا قانون الطبيعة».

توجهت نحوهم لاحقت أن عرفاً تعصّد على ساقلي وصدري
خلال المساهمة القصيرة من الحمام إلى منتصف الردهة حيث
يجلسون. ها نحن ندخل في المساء ولا يتغير الجو هل هذا شهر
سبتمبر حقاً؟ في الاسكندرية بلف سبتمبر الناس والمبوت بمرجة
من التسميم الحائي. هنا هواء راكم ثقيل تستطير أن تملك قطعاً
منه في يدك

- هل صدق روياتك؟

بإدراكي الطبيب الذي عرفته أن أسد مرصيه.. أثارني السؤال.
وجاءت الإجابة من «سعيد» المدرس

- نحن نلعب فعلاً.

كنت جالست على مقعد جهزوه لي بينهم. وسمعنا طرقات على
الباب العديدة فنهض فاروق بسرعة

رايت وجه عابد يحل علينا فقلت إليه كلن فاروق قد فتح الباب
نصف شحمة ووقف بطريقة لا تترك طريقاً لعابد للدخول.

- خلا أحد الأسرة بسكن الشركة فإذا أحببت الانتقال إليه
استطيع شخصيته لك.

قال عابد وددت أن أخرج فاروق من مكانه، وأدعو عابد
للدخول، لكن فاروق يمسك بالباب ويكاد يصد الجزء المفتوح
بهجسه، وسبقني رفاق:

- سنرى في الغد

لقد تعبت جداً حتى علمت ببيتكم. من حسن الحظ أنني عرفت
بخلو السرير بمجرد وصولي إلى الشركة لا بد أنك رأيت الشركة في
طريقك. لقد أخبرني «نبيل» عامل البوابه، أن أحد الباكستانيين
شرق أثناء إجازتي، ووجدتها أنا فرصة أن أخبرك. إنها فرصة نادرة
لا تجعلها تفلت من يدك

بدأ وهو بئسكم، شديد الإخلاص. وصوت في غاية الاتيك من

موقف فاروق الذي لا يترك الباب، ولا يتزعزع من مكانه، والذي سبقني مرة أخرى وقال:
- شكراً.

انصرف عابداً. بمجرد أن استدار، أخلق فاروق الباب وهذا.
وظلت واقفاً للمحطات ثم تبعته.

- ستكرض اسماعيل خمسين ريالاً.

قال فاروق قبل أن أجلس ولم أطق، خاطبني وجيه-

- لا تخط، ما تضرره ستأخذه، هذا قانون.

لم أطق، قال سعيد.

- تلعب الدور بعشرة ريالات، ونسوّف الضارة والمكسب في هذه

الفترة.

وبقيت صامتاً، فقال وجيه:

- آخر الشهر يعيد الكسبان للضاران ما خسره وتبدأ من جديد

وسكنتنا جميعاً للمحطات، فعاد وجيه يقول

- لا بد أنك تتعامل عن جدوى ذلك إذا كان كل شخص يضمن

استرداد أمواله. الحقيقة نحن لا نعرف..

- أول يوم سمع ح لك بالتأخير.

قال غاروق وهو يشرب معي شاي الصباح . قلت :

- أتذكر أن أقل منك حتى أوصولك إلى المطار .

كنت متعباً من كلبوس دامنني بالليل . رأيت نفسي أتراجع في
بطء وفزع ، ويتقدم شعري أربعة رجال سود ، لهم عيون جاحظة ، كل
من في حجم بيضة تدور لملمي ، وفي أيديهم سياط طويلة وفمونها
علانية ، وأنا لا أعرف أين أذهب ، فهم يحاصرونني من كل ناحية
ويسيطرونني ، وأنا أتراجع بظهري ، حتى دخلت إلى زقاق مظلم تعدده
من جانبي وخلفي جدران عليية من حجر بلزني أسود مسنم .
جدران تشبه بجدران القلاع القديمة ، وراحوا على مهل يشربونني ،
وخلف مهل عيونهم تدور ، وخلف مهل أصرخ . ولم يأت أحد لإيقاظي
من الحجرات الأخرى . لا بد أن حشوني لم يصلهم ولعله لم يخرج ،
وقمت لاحقاً أنظر حولي ، ففكرت أنني في حجرة صغيرة ضيقة في بلد
بعيد . لم يعاونني النوم إلا بعد وقت طويل فكرت فيه . في الزمن
الذي مضى من عمري لم أُر فيه حلاً ولم بهاجنسي كلبوس . قرأت
مرة أنه بعد سن العشرين تنمو أحلام اليقظة . وبعد الثلاثين تكثر
تتعدم أحلام المنام . بعد العشرين يضرخ الإنسان في تحقيق

أحلامه. وبعد الثلاثين يكون قد حقق الكثير. أنا في الثلاثين ولم
أحقق شيئاً ولا أحلم. زملائي المدرسون والمدرسات في مصر كانوا
كثيراً ما يتحدثون عن أحلامهم وحجبتهم في تفسيرها. معظمهم مثلي
لم يحقق شيئاً ذا قيمة، ولكنهم يعلمون ويتحدثون عن أحلامهم.
كنت دائماً أقول لنفسي لماذا لا أحلم حقاً مثلهم، وأتساءل حتى
وصلت أثر لثني شخص واحد بما أنا فيه. رافض شديد الرضا لا
أرى للحياة بعداً غير رعاية أمي وإخوتي بعد موت أبي كثيراً ما
فكرت لتي ربما صرت شخصاً غير راضٍ في الحياة. ما الذي
لوصلني إلى ذلك؟ القراءة القديمة التي انقطعت عنها، أم هو خيار
في القضاء بفقد مستويات الروح قبل أن تنشأ؟ ربما كرهني الذين
نصالة الرضا الزائد التي أعيشها. هو الذي جعلني أوافق على
السفر. لو لم لغزبني شيء. فلا بد أنني سأعز الركون عن روعي ولو
مرة لا يمكن أن أعود كما جئت. إن لم لغزبني شيء، سيصيني ولو
جرح صغير. إن لم أنجح، سيكون لدي أسباب للقتل، وما هي
روحي أخذت في الاعتزاز نداهمها الكوابيس. مع لني لم أرتكب
خطيئة. ولم أتناول طعاماً ثقيلًا في العشاء... يقال فاروق

- طائفتي متفلق في الواحدة. الساعة الآن الثامنة لأذهب
بحسب لك العمل من اليوم

فاجاني أمس خلال السهر بسفره اليوم إلى القاهرة. قال إنه
أخّر السفر حتى يستقبلني، وشعرت بامتثلن حقيقي له. وسألته هل
هذا موعد أجازته السنوية. فابتسم وقال إنه إنما يسافر ليتزوج.
ولم أتحدث معه بقية الوقت.



.. لقد تأخرت ..

قال عابد بمجرد دخولي الى مكتبه ولم اُرد . جلست على مقعد
واسع من الجلد ووجدت اتطلع الى الغرفة الصغيرة واحس بهواء
المكيف البارد . الجو بعد لا يحتاج الى المكيف فالحساسة لم تدخل في
الصالحة . وأزعجني صوت الجهاز . جدران الغرفة رمادية . جهاز
التكييف رمادي . الموكيت المفروش على الأرض رمادي . المكتب الذي
يجلس عابد خلفه رمادي . الغرفة كلها كابية ، وصوت الجرس البياني
يدق مرات متتالية متسارعة ، فيقفز عابد من خلف المكتب ، ويلف
لحظة يغمض فيها عينيه ، ثم يطفىء سيجارته في المنطفئة ، ويهدوه
يتقدم يفتح باباً لم انتبه إلى وجوده يُفضي إلى حجرة داخلية ، يدخلها
ويغلق الباب خلفه . فسمع صوتاً قوياً .

.. من عنده ؟

.. الزميل المصري الجديد

.. لدخوله .

في اللحظة نفسها نظريباً ، رأيت عابد اعلمي يقول هامساً
، المدبره ، ويشير لي أن اتبعه .

واجهتني غرفة المدير بالتساعها . وبراءة الياسمين المشتمع
فيها . واحسست بالأرضية عميقة تحت قدمي . كانت مفروشة
بالموكيت الأخضر الفاتم الغني لون المساعد الستة الواسعة
المنطفئة نفسه ، ذات الساند العريضة المكسوة كلها بالفصل
الوثير . جدران الغرفة مكسوة بالورق الأبيض اللطيف . والمكتب
الخشبي واسع بيضاوي أبيض لامع . فوقه أربعة تليفونات .
الأحمر مستطيل ، والأسود مستدير ، والأصفر اسطواني يركز على

قاعدة سوداء مربعة، والأبيض في حجم غلبة السجائر، والمدير
خلف المكتب لا يظهر منه غير وجهه، الذي حين رفعه البنا رأبته
قصحي اللون، حاد العينين، صفيح الأنف، رفيع الشفتين، وقشرته
فوق رأسه بيضاء لامعة والمغزل الأسود حولها زاه. لكن المدير عاد
بنظر إلى ورقة فوق المكتب، وتابعت النظر إلى سولاب زجاجي زواياه
من الخشب الابنوس، وبدخله بعض ملفات صغيرة رشيقة الألوان
والاحجام، وكان المكيف يعمل، ولكن لا ضجة تصدر منه، وكنت من
خبط هبوب المكان وانتعلشت أنام واقفاً. نسيت عاهد الذي كان لا
يزال يلف جوارى، وفكرت هل الصوت الطري الذي سمعته منذ
قليل هو صوت هذا للرجل البهر حلقاً؟

- يا هلاً.

قال المدير الذي تراجع بظهوره قليلاً. ردت لي ادب وانحنام:

- أهلاً بك.

- تعرف الكتابة على الآلة؟

- لا.

بان الاستعاضى على وجهه.

- تعرف القيادة؟

- لا.

قلت لا هذه المرة بصوت ردت لو لم يخرج. تأملتني قليلاً

وخطب عاهد:

- قل لأرشد بعلمه القيادة «ويسوي» له رخصة.

ثم سألني بالانكليزية.

- «ويو ريد آند رايت إن جود انكلش»

- بيس سي.

لجيت على الفور وخرج صوّني عالياً بشكل لامت. تذكرت
الجنيد حين يتكلمون الأوامر من فادتهم في الألام الحربية الأمريكية
وكنت أضحك. رايته يبتسم ابتسامة لا يريد لها أن تظهر. ربما
بمصرفني، وربما هو مذهول فعلاً من صوّني العالي.



لم يكن هناك شيء. هلم...

عرفت أنني سأجلس في الغرفة المجاورة لغرفة عابد. مبنى الشركة
كله عبارة عن صف من ثلاث غرف خشبية ودورة مياه. يتعامد معه
صف آخر من ثلاث غرف مهجورة. وبوفيه. بين الجميع باحة قرابية
واسعة تلف فيها سيارات المدير، وسيارة عابد، وسيارات الزوار.
وبحيط الجميع سور عال من الفرميد الأبيض، له بوابة واسعة. ولا
توجد شجرة واحدة.

ما كنا ندخل إلى الغرفة التي سأعمل بها. حتى انشغل عني
عابد بفتح خزانة معدنية مثبتة في الحائط. ولفت متوجهاً للحظات.
لم أستطع أن أغضى بصري عن رؤية حزم النقود الورقية الزرقاء
الزاهية داخل الخزانة. عابد لم يدخل إليها شيئاً ولم يخرج منها
شيئاً. فتحها فقط وأغلقها بعد لحظات.

أشار لي أن أجلس، فجلست خلف مكتب معدني كبير صديء
الزوايا. وجلس هو خلف المكتب القريب من الخزانة. ليس بالغرفة
غير هذين المكتبين، وقلعدين جلسين قديمين، ودولاب معدني
مفتوح بإعمال به أوراق مُترَكة غير مُرتَبة.

قال عابد إنه سيكون عليّ ترتيب الأعمال الإدارية، وقال إن

العمل روتيني، وإن عدد العمال لا يتجاوز الثمانين. ثم ننهد وقال إنه كان يحلم بيوم يشترك فيه العمل شخص مثري. فهو سكرتير للمدير ومسؤول مالي، وكان أيضاً يقوم بالأعمال الإدارية للأفراد. الآن صبحناح من الأفراد ومشاكلهم مع الغياب والحضور والمرض والسفر والإجازات والتعاقد وإنهاء الخدمة. سوف أقوم لنا بذلك، وأترجم أيضاً التقارير الواردة من القسم الفني الذي يعمل به الفنيون الأميركيون للأميركان مبالغ عمل بعيدة، وسكن متسع، لكنهم يقيمون الشركة هنا لا يوجد غير رجال عاملين يعملون في النظافة والبناء، وإقامة المباني، وصيانة منشآت قواعد الدفاع الجوي بالمنطقة الشمالية، وكلهم من الأجانب أيضاً. آسيويون بالأساس. هنا قطاع الخدمات، والأميركان قطاع الأعمال الفنية الراقية الذي سنتلقى منه بعض التقارير نترجمها لعم عبد الله. ثم قال إن أفضل طريقة للتخاطب مع المدير هي مناداته بمعم عبد الله. عبد الله اسمه، وكلمة «عم» بدلاً من استاذ عندنا في مصر ثم قال فجأة:

- هل تعرف أن عم عبد الله أخفى عني نبأ التعاقد معك؟
- الحقيقة لا أعرف.

ابتسم وقال:

- له تصرفات غريبة عم عبد الله، لكنه دائماً شخص طيب.
- يبدو كذلك فعلاً.

قلت غير معنيّ بعدى حسنة قولي. ودخل الغرفة شاب متوسط الطول يرتدي جلباباً سمعي اللون. ابتزكت من وجهه أنه مصري. كان يعمل هيتية لفضية فوقها طبة من «السلن أب» ويبتسم.

- هذا نبيل عامل بوليه. يعيش معي في غرفة خلف المكاتب. لقد
أبلغني أسس بخلو سرير في سكن الأسبوعين كما قلت لك.

كنت أنا ابتسم مصافحاً نبيل الذي قال وهو يبتسم بدوره
- لعلاً بك في بلدك.

أحسست بالارتياح لوجه نبيل. وجه مثير بحق أنف عريض
وشفتان غليظتان وعينان صفتان جداً. ولم يضايقني هذا التناحر.
أحسست بالطمينة والعفوية خلفه.. وسألني
- حضرتك الأخ اسماعيل
- أجل.

- حدثني عبيد عنك أسس. الحقيقة كنت أنتظره بالممرغ الصغير.
أريد أن أسالك. غرفة مثل هذه مهجورة. وبلد مثل هذه مهجورة.
وخزانة مثل هذه عديمة ماذا تفعل بها؟ هي أقل لي بالقلة عليك
كان يتكلم ويضحك. ولم أجد إجابة غير أن أبتسم.



جلست طويلاً وحيداً في غرفتي صامتاً. فكنت في ما يمكن شراؤه
من آلات. فلم أجد حاجة إلا إلى دولاب نجلجي بدلاً من هذا القديم
القديم. وبعد من المظلات الجديدة. أخبرني عبيد أننا يمكن أن
نشتري ما نحتاجه اليوم

لحاجة قلزت السي إلى ذهني لا بد أنها تفتقدني الآن. كانت أكثر
المتحمسين لسفري وأعرف أنها لا تحب أن أفارقها لبتني كتبت
خطاباً أرسلته مع فاروق. لا أستطيع أن أترك العمل من أول يوم

لأحق به في المطار سأكتب إليها في المساء وأرسل الخطاب بالبريد .
أعرف أن كل انسان يحب امه . هكذا في الغالب . وأنا مثل سائر
الناس . لكنني منذ موت أبي ، صار حبي لها وإخوتي مضاعفاً . حُبُّ
يخالطه نوع من الغلق . حب تخالطه أبوة غير حقيقية . أنا إذن
أختلف عن سائر الناس . لكن أسي مثل كل الأمهات لا بد أنها تعرف
أن آلاماً من الصغرى يأتون إلى هذه البلاد . ومثل كل الأمهات لا
تفكر إلا بلبنها الغريب الوحيد في هذا العالم منذ الآن إذن علي أن
أحرص على كتابة الرسائل . وأحرص على الكذب فليقول أنني دائماً
بخير . وأحكي كل كابوس على أنه حلم جميل . هكذا يفعل كل الذين
اغتربوا حباً لفهمهم . هذا خلقاً زمن الكتب الجميل . وأنا واحد من
رجال هذا الزمن . وإن أصبحت بالاحتجاب الفسوف اللام من
الباحة . نظرت إلى الباب فرأيت شاب أسمر . مكتمل الوجه . يقف
بسد الباب ويوق كنفه فرد . أجل فرد ..

الشباب يرتدي جلباباً أبيض ملبقاً ونظيفاً للغاية ، والفترة فوق
رأسه بيضاء ونظيفة ، والحقال أسود ونظيف . ونكز الفرد هو الذي
يشد عيني . لم ألق والشباب يدخل دون استئذان . ويجلس خلف
المكتب الآخر الغريب من الخازنة . وتابعت النظر إلى الفرد . صفيح
بني اللون . قليل الشعر . ذو عينين ملونتين حولهما شعر طويل .
وحول عنقه هالة من الشعر الأزرق المتكشش . وله خصيتان زرقاوان
ظاهرتان فوق كتف الشاب . وبين يدي الفرد كبلتان لامتدان فرد
جميل بحق يرفع ذنبه الرفيع أعلى من رأس صاحبه .

- أين عابده ؟

- في غرفته .

- غيغ موجود .

- ربما خرج في مشوار قريب وسيعود .

كنت لا ازال انتظر الى القرية الذي وضع يديه فوق رأس الشاب .
- اصرف .

قال بحسم . وضعت رأسي فوق كلي اليسرى . وارتكزت بعرفتي
على المكتب ، ولذت بالصمت . لكنه سألني :
- أنت المصري الجديد ؟

- أجل .

- شواسك ؟

- اسماعيل .

وابتمست عيني اتخلص من ضيق الصدر . لكنه تنهد ورثد
اسمي لنفسه بهدشة ، ثم زلزل يفيظ غيغ مفهوم ، وظهر نبيل وانفأ
بالباب يضطك .
- ها . منصور !

ودخل مسرعاً يمسك يده ، لكن منصوراً لم يمسكه يده . ونحت
ببسم اهتمام صغيرة . مد نبيل يده إلى رأس القرية ، فراجع
منصور قليلاً . ضحك نبيل وخالطني

- هذا منصور . ها . ها . وهي كتلة منصور الصغير . ها ها ها ها .

وراج يضطك بشدة . فنهض منصور مضطرب الوجه ، وانحصر
الفرقة بلا كلمة . كان الفرد يلتفت مضطرباً . وادعشني لن منصوراً
صوتاً لي نظرة حادة غاضبة ..



في العمرة التوينت الهابلوكس نصف التل. قال عابد:

- ألم تفكر حقاً في السكن مع الاسيويين؟

كنت أفكر في منصور وقده. يتذأني بالعدالة دون سابق معرفة.
كيف يتعامل معه نبيل بهذه البساطة؟ لقد حدثني عنه بعد خروجه،
وقال إنه طيب ومسكين ويجب أن لا أغشاه.

- هل أنت متفاجئ للسكن بالبلدة؟

- أجل.

وصمتنا. وتابع النظر إلى الطريق الأسفلتي الذي بدأ لامعاً
للغاية على عكس ما كان في الصباح. الشمس الآن في وسط السماء،
ولأن الأشياء تنعكس على الطريق متعرجة، أبركت عدم استوائه.
وفي اللحظة التي رايت فيها الكلب الأبيض يجري بعيداً بين
الكتبان، الكلب نفسه الذي له منظر العماد المثلث. فبت زوبعة
ترابية صفراء جعلت عابد يطرء السير بالسيارة. حاصرنا الغبار
من كل ناحية فأغلقتنا النافذتين أخاء عابد كشاحات النور، فرأيت
ذرات التراب تطير أمامنا في عشرين من الضوء، وتعود في الغشاء.

- هذا هو الفج، ربح متربة تهب على البلدة بلا صود. ربما كل
يوم. ربما أكثر من مرة في اليوم الواحد. وكثيراً ما تختفي لأيام
طويلة.

وبدا أن العاصفة لن تهدأ. وكنا نقتنل. أثار عابد مساحات
الزجاج التي راحت تزيل الغراب النهمر كما تزيل ماء المطر.
وسمعنا صوت ارتطام ذرات الغبار بجسم السيارة، وبدلت أخاف.
قلت

- لا بد أن نلف.

كان عابد يهوى من الممرعة كثيراً، ويأخذ جانب الطريق ليلف،
لكن العاصفة راحت تنفث شياً شديداً، وبعود الفضاء أبيض،
والأسفلت أسود، والسماء فوقنا غابت زرقاء، رأيت البلدة تقترب
مستدة على الجانبين بميلتيها المنخفضة البيضاء، ودخلتها.



- هذا هو الشارع العام، الشارع الرئيسي بالبلدة،
قل عابد، ثم لخص:

- البلدة صغيرة، أحيائها قليلة، السليمانية الفيصلية،
العزيمية، أم برملن، البلدة كلها في حجم ميدان التمرير بالقلعة،
لا بد أنك رأيت، خلتق، ليس كذلك، وبها فيه، كوبري، علوياً
للمشاة، تصورا

كنت متجدياً إلى الزحام، ومشهد السيارات للراحة في نهري
الشارع، والمحلات المشحمة من الجانبين، الشارع العام هو
السوق الذي سنشوي منه ما أريده لغرفتي ومطبخي، وتركت خيوني
ترتفعان ويتخفضان مع الارتفاع المعلقة في علاقات عالية أمام
المحلات، وبحثت أنظر إلى الأدوات والأجهزة الكهربائية المكسمة
والمرابا للامعة خلفها بلرلانات وعطورات رصاصات وكتب والقلام والياب
للضفاضة راحة لقوائها، الأسود، صارخ، والأحمر صارخ،
والأخضر صارخ، والأصفر والأزرق، والزهور كبيرة تتوسط الألوان،
والأبيض الليل، والكرازين للطرقة على الأرضية، والأوراق المعلقة في
الطريق، وجماعات من الكوريين الشباب تجري وتضحك، ورجال

بجلالبيب - ورجال سراويل. وهنري لهم لحى سوداء وعمائم خضفة
يمشون على مهل. ورجال بلعى حمراء مخضبة بحناء. يبيض
الوجه. مسنون يشون في تعب. عرفت انهم افغان. وشباب رجال
عيونهم تلعب في اللغضاء وهم يصرعون في سراويلهم انفضاضة
والقمصان الراسعة فوقها باكستانيون ولبت الاميكلان في
الجينز. والمصريين أيضاً. والنساء لا أرى وجوههن إلا كشعاع
يختفي وانت تغلق نافذة. شمس عالية. ولغضاء أبيض واسع.
وسيارات زاحلة اثر الفاحيتين. ورائحة شواء. واكاد أرى راقصات
من تلك ليلة ليلة يوزعن الكؤوس على الحارة منرفة بشراب ثقيل.
وشهريار يمر في مركب من الظلمان والقيان خلف اعلام وصنوج.
وأصوات تخرج السيارات تخط بأصوات المسجلات. ودل عابد

- تبيت تشبك أمك وأبيك. شلّ بك أونه المصريون هنا.

وحط على الدنيا صمت

- ما هذا؟ اسمع

وأبطأ من سرعة السيارة البطيئة لصلاً. أزهقت التسمع وايت
يفتح عينيه بأقصى اتساع. ويدد رأسه إلى الامام يكاد يخرج بها
من الزجاج. وسمعنا والمتوسطة..

ركنني أرى الصمت نفسه فقد تولف كل شيء عن الحركة الآن

- فضيحة جديدة.

قال عابد وأشار لي بأصبعه أن لا أتكلم. لم أتكلم وراح الصوت
بقترب. ظهرت من شارع جانبي سيارة شريط مكشوفة يلف في
صندوقها الخلقي شرطي يمسك بميكرفون وتلف جواره امرأة أو
فتاة شيء. مغطى بالسواد كله من الرأس حتى القدمين لا يكون إلا

كذلك. الشرطي يتحدث في الميكروفون بصوت تضخم الآن وبدأ متناغرا الضربك لحيته طويلة الشرطي. والفنرة فوق رأسه خضراء داكنة بها خطوط سوداء قديمة، وحولها انعقال باهت، وملابسه صطراء تجمع أزوارها النحاسية تحت الضوء. ويقول

« .. والصحة بنت سليمان بن مهيبل التلعيدة بالمدرسة المتوسطة بالعزيزية، كانت تخرج كل يوم بعد الدراسة، مع اليعني اليامي بن عبد الله اليامي ... »

ويزداد الناس على الأرصفة وفي اقواء المحلات، ويزداد الضوء فوق الدنيا، واري الفتاة عشة ضئيلة، إلا أن العباة السوداء تلمع وتحدد لنفسها موضعاً في الفضاء الأبيض الواسع، وتشد كل العينين

« .. كانت تخرج مع كل يوم الى طريق تبهاء المهجورة.. »

ولا أعرف كيف استطاع عابد أن يوزري سيارة الشرطة. صار الصوت كأنه كُثِّلَ من الحجارة نسلط فوق رأسي.

«اليامي لم يعتقد عليها، لكنها لفطقتها التشنعاء فُصِّلَتْ من المدرسة،
- فاجسرة -

هاتف عابد وهو يعض عز أسنانه. وأنا الذي لم يخطر ببالني شيء كهذا تصلَّبت عيناوي على الجسد الصغير ضائع للفسادات تحت العباة السوداء الواسعة. أريد. يا ربي، ساعطني، أن أرى وجهها. صار ذلك حاجتي التي تتعدد بالحزن في صغري. الخبرة فوق الوجه سوداء ثقيلة. لكن ضوء الشمس باهر يستطيع أن

يكشفه لي لو أراد. بقيني أنها ماتت واقفة. واسي. انؤلم. إن أراها تتحرك آه لو تتحرك. إنها حتى لا تهتز مع حركة العربة. والشرطي القرد الضخم لا يكف عن الوقوف والانحناء وهو يصرخ لي الميكرون.

«اليامي سجين ثلاثة لشهر سيفادر بعدها المعلقة بلا عودة». وانطلق إلى الشمس في قبة السماء بعيدة. لكن الضوء يغمر الدنيا ببراعة اللبن الحليب. وسأخذ عيني مني سواء العبادة والصبرة وجمود الجسد يا الله يا أرحم الراحمين ها هو الجسد الصغير يختلج. أكثر من مرة يختلج. لا ربح في اللضاء ولا نسمة. ولا يحرك العبادة الآن إلا اختلاجة الجسد. وانتفضة الروح..

ولم أعد أسمع الشرطي. ولا عابد الذي صار يتكلم كالجنون بسبب الفتاة واليميني. رحت أتابع العربة التي تبتعد. أتتبع العبادة وهي تتحرك. الجسد وهو يختلج. حية هي إنن لم تُنمَد. والناس عادت تتحرك في الشارع. والعربات وراقصات ألف ليلة وثيلة فلزن يوزمن للكؤوس. ومركب شهريار راح يتقدم حوله الفتيان والنظمان وخلفه الأعلام والصنوج. وهار الكوريون يجرىن ضاحكين. والهنود يمشون على مهل ممشوفي القوام. والباكستانيون يتشمسون ويعكسون أشعة الشمس من عيونهم. والأطمان انسنون لمشوا القواهم للفضاء في زهول. والمصريون يتكاثرون أمام القفلرين. والأمريكاز يشربون «البرد» وينديهم اليسرى في خصورهم وعلى أنولهم العالية نظارات قلعة. وحابرنتي البضائع وأصوات المسجلات المختلطة الناضرة وحدث اسم رائحة الشواء. ولم أعد أرى في الشارع نساء. أي نساء.

٣

صرت أحب البيت ووقت العودة. تأتي الساعة الثالثة فيتسع الفضاء بي لم أتعلم القيادة بعد. أرشدني كل صباح يسماني وهو يوقّع في دفتر الحضور. منى ستأتي إلى الورشة مستر اسماعيل؟ وأجيب: في أقرب فرصة. ولأن لم أذهب لا أعرف لماذا.

يحملني عابد في سيارته. وأصل إلى البيت في حوالي الساعة والنصف لأجد سعيد قد أعد الغداء. سعيد لول من يصل منا. أحياناً يساعد، لكنه كثيراً ما يكون انتهى من إعداد كل شيء. نتغدى في العادة وحدنا. وجبة يعود في الخامسة. وكثيراً ما يعود مرة أخرى إلى المستشفى غداؤنا قطع كبيرة من اللحم المسطوق ولوز رأي نوع من الخضار وسلطة. والفاكهة عنب أو كمثرى أو بطيخ. كل شيء يأتي طازجاً من الأردن. يقول سعيد، روجيه يحتاج على كميات اللحوم الكبيرة التي تلتهمها. وبلغت انتباهنا إلى ضرر الخضار المسبك في هذا البحر. وضرورة أن نتعلم أكل السوتيه. لكن سعيد يضطك ولا يهتم. لا يغير طريقته في طهي الطعام. ولا رجييه يقواني عن التهام أكبر كمية منه

أدركت حسنة كلام روجيه من اليوم الذي بدأهمني بسرعة بعد

الغداء، ومن الوخم الضائع الذي يكبس على صدري برداً، ومن الحركة القوية التي حرت أحسها في أسعاني والخاصها على إخراج الرياح، لكنني لم أسع لتغيير طريقة سعيد في الظهور

صرت أحب البيت، وتدفق نفسي إلى العودة إليه، منذ يقف عتريها الساعة من الثانية عشرة. لماذا استعريت يوم نزلت إلى السوق ساعة الدائبة هذه للمكتب، لماذا والحقت عليه غلي ذلك؟ لقد شئتُها أعلني، وكسائي أعذب نفسي لرفع بين وقت وآخر عيني إليها حين ينضم العطران إلى الثانية عشرة، أبداً في مناهضة حركة عتري المفاخر. دقيقة بدقيقة أراءه بقلبي لو أسمع صوت لفظة. في الثانية عشرة أكون استعيت عترياً من معظم الشغل، وتصبح الساعات الثلاث البهائية دهوراً، لتفكر في البيت.

هذا لا أستطيع أن أترك العمل، الغرفة، لأكثر من دقائق، وشيئ لا يستطيع أن يمضي وقتاً طويلاً معي، وعابد في غمرته أو خارج المكان كله عابد في العادة يمضي معظم وقته في أعمال عم عبد الله الخاصة، وهي أعمال غير أعمال الشركة يقول لي أن أجلس في غمرته حتى يعود، ولا يعود إلا بعد وقت طويل يكون عتري أنه أنعم بأعمال للسكونارية التي لا تزيد على استقبال الرسائل التليفونية.

- أليس

- من أنت؟

- اسماعيل

- نعمك موجود

- لا، هل من خدمة تؤديها لك؟

- أخبره أن الشيخ صالح، دهم، عليه.

واضع السماعة ويدق التليفون.

- ألو.

- من أنت؟

- إسماعيل.

- وين عبد الله؟

- خرج.

- أدري. وين خُرج؟

- ما أدري والله.

- كيف ما تدري. حمار أنت؟

ونطلق السمكة في وجهي. ويدق التليفون.

- ألو.

- يا عابد جهزت المزيالات؟

- أنا إسماعيل.

- من هو إسماعيل؟

- موظف جديد.

ونطلق السمكة. ويدق التليفون وليس لي أن أشكر علي فقط أن

أكون الأسماء حتى إذا جاء عابد أو عم عبد الله أقومها له

الآن ولد مضي علي أسبوعين لم يعد يزمني تلك. تعودت وتعيد
المعتدين وجودي واسمي، وحقت حدة كلامهم. وبعضهم حمار
يداعمني. ويسألني عن مصر. وأحوال مصر. وأما لا أعرفه. ولم
يسبق أن التفتت به. لكني لم أهد قدراً على تسييل النظر ال
الساعة حين نصحني الثانية عشرة. حتى لو كنت في غرفة عابد.
نظر ال الساعة المماعة تماماً. التي اشتراها هو أيضاً لغرفته.

بعد الثانية عشرة يدير الكون هنا واسعاً لارفاً، فالشمس تضيقه
حتى كأنها ستنطفئ، ويصبح ظهور شخص أو سيارة أمراً نادرأ
إلا اليمنى العجوز الذي يرتدي زياً المرجبياً، والحاجب دائماً به وقد
جلس على أرض الباحة بجوار السور، وراح يضع السواك في فمه
بحركه بيده. لم يحدث أنني رأيته يدخل الباحة مرة دائماً أراه
جالساً بعد الثانية عشرة يحرك السواك في فمه. لا تصافيه الشمس
فوقه ولا تراب الأرض التي يثرثها أنظر اليه فينظر إليّ ويستسم،
وأرى نبيل يتقدم نحوه بكوب من الشاي يأخذه في صمت. ويعود
نبيل في صمت أيضاً وإذا دخلت سيارة عابد أو عم عبد الله أو
أي زائر. ولتارت التراب في الباحة. فلا يتحرك من مكانه. كلما نظرت
نقط إليه نظر إليّ مبتسماً تسمع عيناه بكاء حار. إنه سائق شاحنة
وفي حوائط الخامسة والخمسين قلت لعابد مرة

- ليس لهذا اليمني اسم في دفتر الحضور، ولا في دفتر
الانصراف، وليس له ملف عمل عندي
فقال:

- هناك اتفاق بينه وبين عم عبد الله أن يتناظرا راتبه دون أن
يتم تعيينه بشكل رسمي.

- لكن تعيين اليمنيين لا يربط عليهم أي اعباء، إنهم يمدحون
كالبنا، ائمنكة، ويستطيعون ترك العمل في أي وقت

- صحيح، هو يعرف ذلك، لكنه يقول من ضمن ثبات الأحوال
عم عبد الله يحبه ويوافق على شروطه

قلت لنفسى: إذن لن يدخل هذا الرجل مكتبي أبداً.

لا أعرف بحق لماذا فكرت في ذلك، ولا أعرف لماذا أحببت أن يدخل هذا الرجل مكتبي. أشرت له بيدي مرة أن يتقدم إلى المكتب، فلم يفعل أكثر من أنه ابتسم، وعاد إلى السواك بديرة في فمه. رفاعة فكرت كيف لا أراه إلا وهو جالس في موضعه بعد الثانية عشرة. شغلني ذلك، وراقبت الباحة ليومين حتى أراه في خدمته، ورائعاً كنت انشغل في أمر ما كنت لحظة من الانشغال كخفية لأن أجدّه جالساً ينظر إليّ مهتساً وتلمح عيناه بالذكاء المشتعل كأنه يعرف بالضبط ما أريد، ولا يريد أن ينيلني إياه

صرت أحب البيت، ومنذ الثانية عشرة كل يوم لا أكره أستكر جالساً. ما الذي يقلقني كل هذا الطلق؟ استطيع لو انصرفت عني أن أفسح الطريق لمرور الوقت. والساعات الثلاث الباقية لا تمر بطيئة إلا لأنني أنتظر مرورها

البيت حقاً جميل، بعد نوم القبلولة نضج «الطالوة» مبناً في الباحة ونضج التونة وعطية النعقد الآن تدرأ ما أخسر. لا يمر يوم إلا كسبت ثلاثين ريالاً، وكلما صبحت نفسي جلدأ في اللعبة أكثر مما ينبغي. قلت يا اسماعيل لا مكسب هنا ولا خسارة، كل شيء سيعود إلى أصحابه لكنني سرعان ما أنسى وأبدر جلدأ في اللعب، ويضحك سعيد ووجهه عن هذا التحول الذي أصابني.

رغبة البيت جميلة حقاً بالماء. نحن نتقدم في سبتمبر، والنسمة بالليل تبدو وقد لانت قليلاً. والتليفزيون دائماً أمامنا حتى لو كنا نلعب الطالوة. أنا الذي أنقل التليفزيون من حجرة سعيد إلى الغرفة أنا الذي أحرق من ذلك

صوت أحب التلفزيون وأحفظ كل برامجه . لم يحدث في مصر
 اني ضبطت نفسي متلبساً بالانغماس بالفحشة على التلفزيون . هنا
 تنمو بيننا علاقة غمغمة غريبة . هنا اكاد اتخيل أن برامجه حقيقية
 تدور حولنا . وصوت مغرماً بالفحشة على حنطات رجل بسطة ملايين
 دولار . التي تُبث أكثر من مرة في الاسبوع . ثم نعمت قطبها في مصر
 هنا شاهدت ثلاث حلقات فضيحة . وأمس اعطونا قرأاً بعدم عوصها
 مرة اخرى بسبب حوادث في الربيض والدماغ . قلبي بعض الاطفال
 انفسهم من الامور الغيا تطلباً لستيف اريستين اعطونا عرض
 حلقات جديدة بعنوان الرجل الاخضر . متبداً الاسبرج القدام .
 وانتظر يشطف شديد هذه الحفلات . كل شيء تاله في التلفزيون هنا
 صار يلمرني بشوا هيلم فارس بني حمدان مرثي . وفي المرثين رايت
 كافي اراء لأول مرة . وفي المرثين احببت فريد شوقي . وكترت غريمه
 محمود مرسي . رغم ادواكي لسذاجة الفيلم كله .

في الردهة . وتحت السماء العالية . وفي نسمة ليثة . تبدو اصوات
 المنفين شيئاً ساهواً . وفي الردهة . وتحت السماء العالية . بأحذني
 صوت المؤذن لصلاة المغرب ثم صلاة العشاء . إلى أفلق عالية من
 انشجن صوت المؤذن كانه نداء طائر ذبيح من فوق جبن شالحق .
 بعد المؤذن أسمع صوت المذبح كسجي وهو يرجع أحد الأحاديث
 النبوية يا إلهي ما سر هذا التيلج العميق . ونلك النبرة شديدة
 الاسر . التي تحملني إلى لودية القداعة والسكينة بضاء يلمح
 بوابات القراة في روحي . ويكاد أسمع يترقرق في عيني أنا العاصي
 الذي لا يعرف ذنباً الرنكب

صوت أحب النبيت . وأولم كل مرة للخروج منه . حتر لو كانت

دعوة عشاء عربي معا يتكرر كثيراً. يذهب سعيد الصباناً أو وجيه
لحضور مثل هذه الدعوات عند بعض أصدقائهما لو أصدقاء
لاصدقائهما من أهل البلدة، ويأتون يتحدثون من «الكبة»،
الأكلة الشعبية العربية، حيث تقدم الخراف الصغيرة المشوية فوق
صوانٍ كبيرة لوقها الأرض المغطى بالصنوبر واللوز والجوز، وكيف
يصير الأكل بالأيدي مباشرة، والشاطر هو من يضبط شهيقه، لأن
الأسهال كثيراً ما يصيب الذي يُقبل على الأكل بهمة ويقول سعيد:
«ليس سهواً أن تأكل، المهم أن تتخرج»، لكنني أحب إذا دخلت البيت
أن لا أغلده.

ينتهي الأرسال التليفزيوني، وأدخل حجرتي لأغلق في الصحف
والمجلات التي يشتريها رجليه وسعيد. ويتركها في المطبخ بعد
قراعتها. كل الصحف تتحدث عن المسائل وثقافته، وحملت إحدى
المجلات عنواناً يقول (ألا من رسالة نزلت إلى رأس الخائفين؟)
يفتح العنوان صورة للمسائل في الجزيرة العسكرية الألمانية وفي لغة
تجلبب الشهير لا ألق كثيراً عند السليسة أتجوزها وأبحث في
الاعلانات عن نساء، صور عارية لنساء، لا أحد ذلك حتى الآن رغم
كثرة الاعلانات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث
إيطاليا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة، النساء شيء، لم
أفكر فيه من قبل، لكن لا بد أنني ما جئت إلا من أجل ذلك، لماذا
أنيت هنا حقاً؟ لجمع المال؟ لأخوتي؟ للأكثوبة التي وضع أبي
حبلها في عنقي، أنا لا بد خائف من نساء يوماً، تلك البحر الذي
لم أشأ أن ألقى فيه يوماً بحجر، والذي بسبب ذلك الحرس اللعين
على الأكثوبة، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذي لا أعرف من
أين أصابني، ضيقت أكثر من قلب، وضيق قلباً كبيراً، أي رجل

تعيس أنا! لكني صرت أحب البهت ساعة فنقل مراتبنا الى الرتبة
لننتم. يقول وجيه إن ذلك سيصعبه أكبر الضرر ليما بعد، لكنه لا
يشركنا، ويقول سعيد ليس أجعل من نوم رجل وامرأة هنا تحت
السماء والطير والنجوم، ونضحك. لي بنصره الأيمن قبلة الخطوبة.
ولم أحاول أن أعرف منه شيئاً، هو لا يتحدث في الأمر، لكنه ينشد
وهو ينظر الى قبة السماء النرصعة بالنجوم

مكلميني لهم يا أسيمة ناصب

وليل الفسيه طي، الكواكب

منقاعس حتى قلت ليس بمنجل

وليس الذي يرعى النجوم بليسه

ونضحك. ويقول وجيه: لكن صاحبك اسمها عداد. وليس
أسيمة، فيلمز لي سعيد بطرف عينه ويقول: «جاهل»، وأعجب من
معرفة سعيد بالشعر وهو مدرس التربية الرياضية.

أريد أن أقول إنني أيضاً أعرف الكلج وإن علا التراب اذاكرة،
إنني قضيت صباي ومطلع شبلي مع الأغاني ومحبون الأضطر
إنني وإنني. ولا أقول. أقول لنفسى: كان الوقت منسجاً فلا تأس
أفكر كيف أن سعيداً أبداً لا يفهم في حديثه عن خطيبته التي
برفت اسمها فقط. كذلك لم أعرف عن وجيه حتى الآن أكثر من أنه
متزوج. ذلك واضح من القبلة التي لي بنصره الأيسر، لكن سعيداً
ال له: «لا يفهم الحب من يتسع قلبه لامرأتين يا دكتور». وسكت
نا مرتبكا، وهوجئت بوجيه لا يهتز. يصحك ويقول: «الله يعرف أكثر
نا. لذلك شرع لربيع نساء للرجل. ولنا أبحث عن الثالث الآن»
نظر إلي وقال: «هل يبدو أنني متزوج من اثنين؟». ابتسمت

مرتبكاً، لكنه استمر يضحك ويقول إنه تركهما معاً في المنصورة. لم يشأ أن يصطحب واحدة فتغضب الأخرى. وهو يحب أن يهزق بالغرور. ولامر ما تركنا وجهه للحظات ودخل حجرته، فحسر في سعيد بأن زوجته فللثنا الجمال. لواحدة وألذ كاليد والثلثانية بنت كالفسر، وهو طامنا تحدث عن امرأة ثالثة فلا بد سيفعلها، لكنني لم أجد من اللوالب أن أخوض في شؤون أي منهما طالما أنه لا يفتح الباب خوفاً نفسي ذلك. وأثرت أن أعرف عنهما ما يلقين به إلى، ولم أشعر بأي خسوف. أنا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلاكنا مرأة لاسعة تنزلق عليها الوقائع، ولا لفسد أحسلي بالراحة في البيت، ولا أحلول أن اغتتم فرصة غلب واحد منهما لأعرف منه شيئاً عن الآخر أمامي وقت طويل معهما لا بد ينكشف لي فيه كثير من الأسرار

- ما لك اليوم تلعب شارداً؟

قال سعيد ونحن تلعب الطاولة في الزينة كلان وجهه نوبنجياً الخبئة بالمستشفى.

- فاروق. لم يصلني منه خطاب.

ضحك وقال:

- هل تنتظر خطاباً من شخص سافر ليخرج العـب.

ولذاب بالزهرين بالقوة، وسمعنا صوت طواقات خفيفة على الباب.

- ترى من الذي يأتي الآن ربما وجهه ترك العمل وعاد يلعب

الطاولة.

قال سعيد وهو قائم يضحك ليفتح الباب. فتح وسمعته يصيح:

- أهلاً يا دكتور رائت تعال، لدينا زبون جديد.

ودخل الربة شخص ذو قامة طويلة، تقدم بصفافتي بحرارة،
فبادلته المشاعر نفسها وقدم له سعيد مقعداً وهو يقول لي:

- الدكتور رالت، طبيب مسالك بولية عظيم إنه هو صاحب فكرة
الغيب بالفلوس ورد الخصارة لصاحبها آخر لشهر لا بد أنك
ستلعب معنا يا دكتور، متى وقت طويل لم نوك.

ابتسم رالت بدهوء، وقال:

- الحقيقة أنا لم أت لأسهر، جئت فقط لأودعكم، أين وجهه؟

تصاحل سعيد بدهشة:

- توه عما؟ خيراً يا دكتور.

- انني عائد إل مصر عودة نهائية

- مفسول.

- لماذا لا يكون مفسولاً؟ ستصالح لي الصباح، ألم يخبرك وجهه؟

- اطلاقاً، وجهه اليوم يوتحي في المستشفى

هن رالت كتكه وابتسم وخاطبني

- القرار الصعب هنا أن تعدد متى تعود، الوقت هنا معل، يبدو
كذلك حقاً، لكك تكتشف فجأة أنه مرّ بمرجة وأخذ معه خمس
سنوات من هموك، بعضنا هنا أمضى عشر سنوات، كم خمس
سنوات وكم عشر سنوات في عمر الواحد منا؟ لا أحد يفكر في ذلك،
قوة الضباب وكثرة المال تُنسينا، لقد حاول الكثيرون شفي عن
العودة لكنني لموت، خمس سنوات كامية جداً لأي بلد غير الوطن
هنا لو تأملت الأمر ستجد سعفاً كبيراً، من حقل أن تزور الناس
وتتصرك، لكن الناس هي الناس ولا صباح جديداً ولا مساء جديداً
- ولم يلاحظ أن حديثه طال أكثر مما ينبغي - لنا لا نستطيع البقاء

في دولة يتم الانتقال بين مدنهما بالطائرات، أكثر من خمس سنوات،
ثم ماذا يريد الواحد منا غير مبلغ مطلق يبدأ به حياته في مصر، أنا
فعلت ذلك. عندي الآن عيادة في طنطا. وسأسافر من هنا إلى أمريكا
لأشتري بعض الأجهزة، وأعود لأعمل بالعيادة وأعيش كأى مواطن
يعتمد على عقله وقوته. هل ترائي مخطئاً؟
أبتسمت. أجبت:

- على العكس، معك كل الحق

كان سعيد قد تركنا واتجه إلى المطبخ ليعمد كوباً من الشاي
لوالدت، وعاد به يقدمه إليه قائلاً
- شاي موزين منك يا دكتور.
- أشكرك.

وأخذ كوب الشاي، وقال لي

- الأسكر عندي مرتفع، لا تنزعج، يحدث ذلك للكثيرين الآن
وقال سعيد:

- لا تظن أن وجيه سينأخر، إنه غريب جداً يا نساء فقط. إن يبقى
للمصباح

- غريب أنه لم يخبرك بعرف أنني مسافر غداً ولا يفكر أن يمر
بى.

- قد يفعلها في عودته. ربما رتب نفسه على ذلك. ستوحشنا
كثيراً يا دكتور. اسماعيل سيء الحظ لأنه لم يتعرف عليك من قبل.
انت لم نزلنا.

وخاطبني الدكتور رالت

أنا سعيد بمعرفتك يا أخ اسماعيل. هل تحب أن أحمل لك أي رسالة لمصر؟

- أحمل في السلام يا دكتور

١ - تصور يا استاذ اسماعيل، إنني أكثر الناس احتياجاً للبقاء هنا. سعيد يعرف وجهه أبني المصاب بشلل الاطفال يلتهم علاجه معظم ما أكسبه أبني هناك في مصر، لكنني قررت أن لا أبعد عنه أكثر من ذلك.

ارتبكت كثيراً. قلت

- ربما كان وجهك معه أفضل علاج يا دكتور.

- هل تظن ذلك حقاً؟

- بالتأكيد.

رسمتنا، لاحظت أن سمياً بدأ يترقق في عينيه، وفي اللحظة التي هم فيها بالقيام، سمعنا المفتاح يدور بالباب. وهناك سعيد - هذا هو وجهه.

ويخل وجهه بالفعل وهو يقول:

- مساء الخير عنى المصريين

صانحننا وقال لرائت:

- أنا قادم من عندك. لم أجده بالطبع. لا تمنني ما حدث الليلة

طبع

- ماذا حدث؟

تسأل رائت بهندوء. فقال وجهه بعد أن جلس على مقعد رابع

- تبوك لن تنام الليلة. ثلاثة من الصعوبة فتلوا صاحب للعمل.

طعنه قطعاً صغيرة منذ شهر، ووضعوه في ماكينة خبطة الخرسانة.

رضاعت الجنة في البناء. اكتشفت الجريمة اليوم فقط. تمّ اللقيض
عليهم واعترفوا. وثقل أرواحهم إلى المستشفى بين الحياة والموت من
أثر التعذيب.

٤

أي يوم جميل هذا؟

ولفت أحدث نفسي أمام باب غرفة مكثبي متطعناً إلى السماء الزرقاء العالية، والفضاء السابح في نور الشمس الباهر. الصمت بعد لم تغد قوة البحر، فالساعة لم تتجاوز الثامنة. جاء العمل وانصرفوا بعد أن وقفوا في دفتر الحضور، ولم يفعل شيئاً بعد ذلك غير شرب القهوة. والجنس قليلاً أذكر دخولهم في الساعة عشرين.

«صباح الخير»

«نعم مودونغ»

«السلام عليكم»

جعل ثلاث اسمها كل صباح. وفي الظهيرة حين يعودون للتوقيع في دفتر الانصراف يقولون فقط «السلام عليكم». يتحدثون بسرعة كما تاكل الارانب. وابتسم لي وجوههم لانهم دائماً يبتسمون. لكنهم دائماً على عجل. لا فرصة لقيام علاقة مع احد. يحدث ان يتردد البعض الى المكتب أثناء النهار، لكن لوقت قصير أيضاً. لمقابلة عم عبد الله أو للتحويل إلى طيب، أو لطلب إذن بالانصراف ساعة

لقضاء عمل يتعلق بالبنك أو استخدام الزوجة والأبناء. فيليب
سوساي بيانياً، الكهولاني السيلاني المعجوز هو الذي يقف أحياناً
يتحدث معي. أخرج مرة نسخة صغيرة من القرآن من جيب سترته
وفتحها وأشار إلى آية موضحاً الانساز في كيد.، وسألني ماذا
تعني. راخني أنه يحمل نسخة من القرآن. وراخني للنسخة نفسها
نهي بالانكليزية والعربية معاً. أجبتة:
- في نعم رمتقة.

نشاط

- كل الناس تتعجب؟

- المعنى أنه لا راحة في الحياة الدنيا. الراحة الحقيقية في
الآخرة.

قال في دهشة

- لكن الناس هنا مرتاحون جداً؟

- من تقصد؟

- أهل البلدة مستر اسماعيل

ابتسمت مسكتة

- هل أنت مسلم فيليب؟

- هوذي لكنني سأشهر إسلامي أنا لا أريد العودة إلى سيلان.

اددهشني وهو الذي تجاوز الخمسين أنه يفكر على هذا النحو.
لكنني ابتسمت له. وشددت على يده وهو ينصرف. لم يمر يوم بعد
ذلك إلا مسكتني فيليب عن معنى من معاني القرآن. ولما سألته متى
سأشهر إسلامه. قال:

- بعد أن ألهم القرآن كله مستر اسماعيل إتني جلد في الأمر.

بحر فيليب كان هناك «مشر» الأرضي الذي يدخل ويخرج في
عجلة واضحة. يلقي السلام ويوقع في الدفتر ويمضي غير منتظر أن
أرد عليه التحية أكثر من مرة فكرت لسأله لماذا هذه العجلة.
ودائماً أنسى. في النهاية قلت لنفسى. لك في خلقه شؤون ولم يلدت
انتباهي من بقية العمال غير «أرون بونكر» التيلاندي نو العيين
الغوزيتين والشارب المغولي. يربكني في حضوره وانصرافه. يوقع
بالانكليزية. وينظر إلي طويلاً. ويبتسم ابتسامة واسعة. ويمضي
مر مهل. يفعل ذلك كلما جاء الى المكتب. وأحياناً يسألني عن حالى.
فأقول: بخير. فلا يقول شيئاً آخر ويمضي. بدا لي مثل شخص
يعرفني منذ زمن بعيد. ويريد أن يتكلم بنفسه.

- ورايت عابد يقف فجأة بيلب لحرفته. نظر إلي وقال:

- يوم جميل اليس كذلك؟

ابتسمت قلت

- كنت أقول لنفسى ذلك منذ لحظات.

- مع عبد الله لدي اجتماع في الإمارة اليوم أما إن أترك المكتب
تستطيع الذهاب الى أرشد لتعلم القيادة. يجب أن تتعلم القيادة
حتى لا نحتاج لأحد نوصيك للبيت.

في اللحظة نفسها لمحت نبيل يقترب من ناحية البيوتيه يجعل
سينية عليها فتجانثن من القهوة. نبيل يفعل ذلك مرتين في الصباح.
بعدها لا يقدم لنا شيئاً إلا إذا طلبنا ولجأة صباح:
- يا فتاح يا عليم. الجمعة وصل.

كان يحدث عابد. ونظرت إلى التبراة حيث أشار. فوجدت شاباً
مصرياً سمح البنيان يتقدم في الباحة مبتسماً

- صباح الخير على الصريح -

قال وهو يقترب منا أخذه عابدين يده ودخل غرفتي فدخلت معهم. صابحتني غشاب بقوة. ووقف نبيل يحمل القهوة وينظر الى الغشاب في دهشة. ثم خاطبني

- استعد يا عم ستطعم خمسين ريالاً من لول واناب

كنا نسلعنا رواتبنا أمس. ما كدت المرح في الكلام حتى قال الضيف:

- نيس لي والله للميت .

ولا بد ان الارتباك الشديد باز على وجهي وأنا اجلس. ورايت عابدين يتجه الى الخازنة يلتفتها ويخرج منها خمسين ريالاً. وقال جمعة والفأ. بينما وضع نبيل القهوة. وقال لعابدين:

- سأضع فنجانك في غرفتك.

واستدار بمشي لئلا جمعة ضاحكاً.

- أكر تدفع يا نبيل؟

ضحك نبيل وقال

- الميت القادم.

وخرج. وجمعة بضحك. وعابدين يبتسم وهو يقدم له الخمسين ريالاً. وأخرجت لنا من جيبي مبلغاً فمستها له. وقال عابدين

- جمعة يعمل في شركة البازعي اكبر مقلول في البلد. اكبر مقلول في المملكة تقريباً. عنده سفن في البحر. واسطول سيارات بحاروب به اسرائيل لو أراد. لا يمر يوم دون ان يعوت عنده واحد من العمال القبازمي ومدبروه يرفضون دائماً دفع مستحقات الميت. يرفضون

ودفع ثمن شعر الجثة، يرفضون حتى ثمن الصندوق الخشبي
ادخلوه في العلقة. ارض طاهرة. دائماً يقولون. أصبح معروفاً أن
نكن جنسية مندوباً لجمع التبرعات للموتى عند النيازي.

ما كنت استوي الأمر حتى دخل نيبيل "المكتب يقول الجمعة".

«لو أرسلت أجداً فجأة مرة يا عم الجمعة قد لا يموت أحد بعد
ذلك».

«حمر وجه الجمعة، لكنه لم يكف عن الانسحاب حتى بدا في فجأة
شخصاً شديد الحمالة»



طربت فهدوني وحدي. انصرف الجمعة، وعاد عابداً إلى غرفته،
وانتشل نيبيل في تنظيف السيارة الكاديلاك الواقفة في الباحة.
سيارة بيضاء جميلة تلف مثل لوزة ضخمة تسبح في بحر من النور.
لدى عم عبد الله أكثر من سيارة. ويركب في اليوم الواحد أكثر من
واحدة، وكل منها مجهزة بتليفون لاسلكي. ثم استطع أن أضر
وجه الجمعة من الشرفة. قال عنه نيبيل بعد انصرافه إنه يعرفه
وينتسب من سجنه. وأنه في الأصل يعيش في القاهرة بمطابق الإنعام
وإن أباه نزي، وضحك وقال: «الدم يحرق» لكنني لم أضحك كنت
حاضراً بما يقول

نهضت أذهب إلى «الرشدة»، لا يجب أن أقعد بهاء هذا اليوم.
قطعت الباحة الناهرة بضوء النوار. وترك نيبيل عمله في السيارة
الكاديلاك، وتحق بي بعد البوابة:

-
- إلى أين؟
 - إلى أرشد، اتعلم القيادة.
 - إذن خذني معك.

ومضيفنا لا بد أن نبيل يعرف بالتشغال عم عبد الله بالإمارة
اليوم فهو يمشاه حتى الموت.
- اتعلم يا أخي أن اتعلم القيادة منك.

قال نبيل ونحن نتقدم صاعدين. ثم لود. تطلمت إلى الجراج
المتروك المجاور للكلاب الذي يسكنه الأسويرون. هذا مكان لم
أحضر إليه من قبل الأرض بين مكاتب الشركة وبينه ليست معقدة،
لكنها ليست صعبة. أرض من الحجر الجيري عليها طبقة رقيقة من
الزغال واستمر نبيل يتكلم.

- المشكلة يا أخي أنني لا أجد الوقت بالنهار لأن عم عبد الله
يمكن أن يعود في أي وقت ويحتاج إلى القهوة
- لماذا لا نتعلم في المساء؟

- أرشد يخالف استخدام السيارات بعد العمل. وعابد لا يسمح
لي بالتعلم على سيارته.

أربكني بحق فكرت لماذا إذن يأتي وقد لا يجد فرصة أخرى.
قال كأنه يقرأ للتكراري

- أحببت اليوم أن أراك وأنت تتعلم سوب اتعلم مما تعلمه
أعلمي. اضلعي. يعني.
أهتسمت. كنت أضحك. قال:

- أي والله.

انزعجت أضحك. وأحسست أن الفضاء يجالوني في ضحكاتي
رغم أنه لا جبال حولنا. وطل فجأة
- لماذا لا تصدقني؟ لماذا تسخر مني؟

وكانما للفضاء الواسع ازداد اتساعاً فجأة. أحسست أنه لا
يوجد في الدنيا كلها غيرنا أنا ونيل فقط في هذا العالم. وأحسست.
وبالعناية هذا الاحساس الذي لن أنساء أبداً، برغبة في أن تقتله
لو أن سكناً كانت في يدي لطعنت. وولدت أراقب الدم يمشي فوق
الأرض لامعاً تحت الضوء..

- هل تصدق أنني أحببتك جداً يا أستاذ إسماعيل؟

قال. فادعشني وأهشني أنه لا يرفع الكلفة بيننا اليوم لا
يحدثني باسمي مباشرة كما تعود. واستمر يتحدث

- اعتقد أنك طيب يا أستاذ إسماعيل. عليك هذا شعبان. كريماً.
ينام معي في غرفة واحدة وأعرفه. تصور أنني أحياناً ألوم من النوم
فرعاً خوفاً من أن يفتنني. لماذا يحدث ذلك يا أستاذ إسماعيل؟ هل
سأجبن هنا؟

وتوقفت عن المشي مزيج ضاحك من الشاحر أوقفني لا أعرف هل
أريت أن أهون عليه أم ألعنه أم أمره بالعزلة. قلت وأنا أسك
بذراعه:

- لا نصد نفسي عن الناس يا نيل.

وبالمنظرة عينيه وهو يكثر بيكي فجأة. قال:

- أنا ثم القصد ذلك. أريت أن أذكرك أن لا تتعادي في صداقة

أحد . أنت هنا مثل كل الناس لجمع المال فقط

تركزت ذراعه، وشييت صامتاً لاحظت أننا نبتعد عن بعضنا قليلاً ثم تعود ونقترب لم يطل مشينا فالتسلية قصيرة، وقبل باب الجراج بالليل سألت

- هل جئت لتعلم القيادة هنا؟ أستطيع لو أحسبت أن افزع أرشد يعلمك في الساء .

قال:

- لو حدث أنني سرقت الخزانة هل يقتلونني؟



سألت أرشد:

- وحكك تعمل في هذه الورشة؟

اجاب

- ممي «فناج الدين» . خرج بهرب إحدى السيارات الورشة صغيرة كما ترى

كنا قد أنهينا من الدرس الأول، الذي لم يزيد عن التعرف على أجهزة تابلوه السيارة، ونقل الحركات والسيارة في حالة وقوف.

لقد تركني نهيل بمجرد بلوغنا باب الجراج، قال إن هم عبد الله ماكر يمكن أن يعود في أي وقت، ولم ينتظر اجابة مني عن سؤاله المفاجيء الذي أربكني.

انشغل أرشد عني قليلاً وراح يملأ كوبين بالشاي من «تورمس» أخرجه من درلاب خشبي صغير. رحلت أنامل الورشة والجراج

سيارات قليلة معطلة، وكثير من القمود القديمة تملأ الأركان، والأرض سوداء مشبعة. لأرشد وجه شميد الحضور، عليه دائماً مسحة استنكار واستياء. تزداد هذه المسحة حين يلقي الـ الكلب ويدخل في نقاش مع عابد حول مشتريات الكلب من الأغذية. أرشد مسؤول أيضاً عن إحاضة الأسيريين.

لأرشد عينان مسطرتان، حادتا الذكاء، وبياض بشرته يميزه عن كثير من الباكستانيين، رغم أن له الشارب نفسه المعروف بعناية واتساق مع الشفة العليا، وله الشعر نفسه الأسود الناعم. لكن ملابس أرشد كلها تضيق وهو يناقش عابداً فيما هو مطلوب من لذاء. يبدو أرشد في البداية نطفاً، وهو يتكلم بالإنكليزية يختار كلماتها بعناية، لتكون واضحة وسهلة لعابد الذي لا يعرف الكثير منها، ودائماً يطلق حديثه بكلمات عربية، لكن سرعان ما نغسل ملابس وجهه، وترتفع فيه حمرة الدهشة والاستنكار. أرشد يبدو جداً دائماً وعابد يحدثه بغير اهتمام، بالضغط كما يلقى الواحد بوراقة في سلة مهملات. يقول عابد: «ماش كمون»، ويهز كتفه، فيقول أرشد: «بيس ماشش كمون مستر عابد». كمون إذ نيسبيري، ويطول الجدل دائماً حول كمية التوابل التي يطلبها أرشد. التوابل من أرخص الأشياء بالمطلة، إلا أن عابداً يحلو له أن يتوقف عندها ويتعنت. يقول أرشد نلغد الحسب: «مستر عابد بليرز ديميمير هلو مينه نايم أي طوند يو ذات كمون أنه شقة أنه بيير أنه أول بهلوات إذ نيسبيري فور أول فور...» ولكنك تضحك من هذا المزيج الغريب من العربية والإنكليزية المعجون بلكنة أوردية.

الحقيقة أنني دهشت من موقف عابد الذي لا بد أنه يدرك قيمة

التواويل في طعام الأسيرين. قلت مرة لأرشد وهما مستدان في
النفاش، إن عابداً يداعبه فقط، فخرجت يعايد بقول لي جاداً: «أنا
لا اداعبه. إنهم يستهلكون كمية كبيرة جداً ويكلفون الشركة
الكثير. بعدما لم تدخل في النفاش.

- اشرب الشاي مسر اسمايل.

قال أرشد، فأخذت الكوب في يدي، ورشقت رشقة، وقلت:

- أرشد. أنت تعرف أن الباكستانيين غير التاييلانديين غير
السيلاشين. أنا في الصباح لو بعد الظهر. في حديثهم معي، لا أكلد
أميز بين كلماتهم. يصبح صوتهم واحداً تقريباً حين يقولون صباح
الخير لو غود مورننغ لو السلام عليكم. أنت الآن تحدثني
بالانكليزية. لكن صوتك لا يختلف عن صوت أحد. أنني اسمعك
فلذاكر الجميع شيء غريب. اليس كذلك؟

ابتسم أرشد. وراح ينظر إلي بقلق شديد في عيني. ابتهج أرشد
فجأة. لا أدري لماذا أنا قلت ذلك كله دون ترتيب. ولا أعرف
بالضبط متى فكرت فيه قال:

- كنت أيضاً سبتشابه صوتك معنا مسر اسمايل.

سكتنا، وراحنا نشرب الشاي. وولعت عيني على كتاب فوق مقعد
قريب. فقام وأخذ الكتاب ووضع في الدولاب الخشبي وعاد يقول:

- أنا أسف مسر اسمايل. لقد اضطرت هذا الكتاب معي
طواً. أنا لا أجد وقتاً هذا للقراءة.

نامت وجهه قليلاً. فأعرض عيني. لماذا بخشاني إلى هذا

الحد* رشتت ما بقي من الشاي دفعة واحدة. وقمت أصابعه غلّ
أن يلتقي في الغد.



يا الهي، حاهذه السيارة التي تدخل الباحة بهذه السرعة، وثثير
كل هذا التراب؟ قلت لنفسى، وما كنت ادخل الغرفة عائدأ من عند
أرشد. وسمعت صوت باب السيارة وهو يفتح، ثم يغلن بقوة. ورايت
عليهأ يقفز داخل مكنتي:

- ملف السيلاني بسرعة

- أي سيلاني؟

- فيليب. هل لدينا لحمه؟

كلن لدينا أكثر من سيلاني. لم أشأ أن أرد. وقلت اتعجب منه
لا يعطيني فرصة أعضاء اللف. بل يهجم على الدواب يفتحها،
ويحتطف ملف فيليب، ويعود يهرول خارجأ. اسقط وهو يبحث عن
اللف عدهأ آخر من المظلات فوق الأرض. رحت أعيد ترتيبها في
فيظ ثم رحت أبدر في الغرفة. ودت لو أصرخ. أصرخ في الحد، أي
أحد وباني شيء. ورايت نيبلاً يدخل حاملاً حسيبة فوقها فتجلن
القهرة

- تشرب القهرة؟ لقد ذهبت بها اليه فرفض.

كيف أخذ القهرة بهذه السرعة وذهب بها أيضاً. لا بد أن عم
عبد الله هو الذي دخل الباحة مثيراً لكل هذا التراب. كدت أنفجر
بالضحك.

- رفض القهرة وصرخ في وجهي أن أنصرف. ستطردني أنت
أيضاً؟

- فضع القهوة على مكتبي واجلس. هل عرفت شيئاً ؟

- كارتة. فيليب سرق راديو من السوق وقبض عليه.

- كيف عرفت؟

- سمعت عم عبد الله يقول ذلك لعابد وأنا أدخل.

وراح يهتز بالقضك، وبمحاوَلته أن لا يصدر صوتاً، وسمعنا

صوت عم عبد الله وهو خارج من المكتب يقول لعابد

- اجلس هنا لا تتحرك. وقل لهذا - يقصدني بالتأكيد - أن لا

يتحرك مكانه

وسمعت صوت باب السيارة يُفتح ويُغلق بعنف مرة ثانية.

وسمعتها تدور. ورأيت عم عبد الله يعود بها إلى الخلف في سرعة.

ثم ينس أن ينظر إلى بعدة. ثم اندفع إلى الأمام بقوة. فعلاً الفضاء
مرة أخرى بغير أكثر مما هو فوق الأرض.



نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشرة نظرت إلى الباحة

فوجدت الفيني المعجوز يدير السؤال بيده في فمه يدخل مع غبار

السيارة. كانت هناك فرصة أن أراه يدخل اليوم لولا غبار عم

عبد الله. ابتسم وبركت عيناه وهزأ لي ككفه حين رأني أنظر إليه.

ابتسمت وجلست إلى مكتبي لتعجب من خلق الله ما الذي خلقاً

بجمل فيليب يسرق رجل مثله تجارز الخمسين مهيب الوجه

وملاحظ كبير لأعمال الكهرباء. ويريد قضاء أكثر وقت بالملكة

ويستعد لي شهر إسلامه. ماذا سيقول لزوجته «روزالينا» ولبناته

العشرة. خمسة هنا وخمسة تركهم في سيلان. العاشر من ابناؤه
 أحببنا هنا واسماء غيرلاندو، ويقول إنه ليس السور مثله ولكنه يني
 مثل «روزالينا». قطعة شيكولاتة صغيرة. وعمره عامان الآن.
 ويصحو في الصباح مع فيليب يتعلق بساقه لا يريد أن يفرج
 يديه، فيحمله فيليب من فوق الأرض. ويضعه فوق الدولاب.
 فيضج «غيرلاندو» ويصرخ فيليب ويصرخ فيليب ويصرخ فيليب
 «غيرلاندو» كما هو فوق الدولاب لكن يبكي. لا تفكر أبداً «روزالينا»
 صديقة الجسم أن تصعد على كرسي وتنزله. «غيرلاندو» معجزة الهيبة
 فمن كان يصيح أن روزالينا تُحب بعد أن تجلوزت الخمسة
 والأربعين، لكنها الأرض الطاهرة مسنو اسماعيل. هكذا يقول في
 «أنني وزوجتي مثل النبي زكريا وزوجته في القرآن مسنو
 اسماعيل، فيليب يفسد كل شيء ويحرق راسه. إن يشهد إسلاما
 وإن يني بالملكة.

أحسنت بالضييق للفت عازماً على ترك الغرفة والجلوس في
 البوفيه قليلاً مع نيهل لكنني رأيت يخطو وينساع

- ريس رايسج؟

ولفت منهشاً من عورته بعد انقطاعه كل هذا الوقت. كان يتجه
 إلى المكتب الأخير الغريب من الخازنة ويجلس خلفه وانفرد فوق
 كتفه. يسألني كأنه كان معي منذ دقائق، مع أنه أخطئ لأكثر من
 عشرين يوماً الآن. ولم يفكر حتى بالقاء السلام.
 رفاق القليفسون.

- آلي.

- انزل السماعة.

صوت عم عبد الله. أعرفه ولا أخطئه. هو أيضاً يعرف صوتي.
لا بد. وإلا ما قال ذلك يريد عابد. ما ينبغي إذا كان التليفونان على
خط واحد* جلست من جديد الى مكتبتي منتظماً بالقينك
- يا هلا يا اسماعيل.

ذكرني منصور بوجوده. قريت إذا لساء إلى أن اردت الاسماء
بأعظم منها

- تسمح لي بالجلوس*

- لقد جلست بالفعل.

وسكتنا قليلاً. قال:

- لقد سافرت إلى عمان. ذهبت بالسيارة. عمان جميلة جداً..

لم ابد. وظهر نبيل بالياب حاسلاً طبقاً به قليل من الفول
السوداني والفستق. قال منصور
- ضعه على الأرض.

وضع نبيل الطبق. وتلفت مبنا الفود. وهز منصور كتفه مرة
بسيطة. فلفز الفود الى المكتب ثم إلى الأرض وراح يلتقط الفول
السوداني والفستق في سرعة مضحكة. راح نبيل يضحك ويقول:
- سرك. سرك. سرك. العلم منصور.

احمر وجه منصور. ورايت يحارل أخفاء انصالية صغيرة.
ولجأة وجدت نفسي أضحك بشراسة. قال نبيل بعد أن توقفت عن
الضحك

- منصور زارنا بالليل. احضر لنا فستقاً من عمان.

ثم أهتم. قال منصور لنبيل

- فسق عمان طراز ليس كاذبي بياح هنا. لكن لا تنس. انه
ليس كله لك. لا تنس الكيس الفاخر بالفرد - ثم خلطيني - هل
يضايك ان يأكل الفرد هنا؟
- بلناكهد.

- اجبت بحسم.
- لو احببت ان اخرج لفرجت.
لم ارد. وانتحب نبيل الذي لا بد انه ادرك نثر الصدام.
وتساعل منصور:

- مصري انت يا اخ اسماعيل؟
- مالا تصد بالضبطة
- اتصد هل انت من القاهرة. يقولون عن القاهرة مصر ليس
كذلك؟

- انا من الاسكندرية.
- جميلة الاسكندرية بها شاطيء وبحر.
- بها اجمل شاطيء في الدنيا.
- رأيت القاهرة ولم أرها. هل تعرف السباحة يا اخ اسماعيل؟
- انا سباح ماهر فزت في بطولات كثيرة
كنت اكتب. لم يحدث اني سبحت عشرة امتار.
- تسبح وسط النماء في البحر؟

- وسط نساء يرتدين الملبهات البكيني والان ينزلن بمايوهات
قطعة واحدة فقط. صبورهن تسبح لمامك. ما رأيك؟

رائنه ينظر الى ثم يطرق. وينظر الى المكتب. ويضربه بانامله
ضربات سريعة منتظمة. لاحظت اتصاخ اظافره رغم ما يبدو من

نظافة مظهره العام، ورايت وجهه بكلهر فجأة ويتبد بالميموم، ثم
وقف ودار حول المكتب. وكأنما أحس به القرد توقف عن الإتهام
الحبات القليلة البالية. ومد له منصور نראה فصعد عليها، ثم
استوى فوق كتفه، واتداع منصور خارجاً بلا كلمة واحدة.



كان منشره لول الواصلين للتوقيع في دفتر الانصراف. ولأن عم
عبد الله استدعى عابداً ليلحق به في الإمارة، طلبت من منشر أن
يحملني في سيارته. ولأنني أعرف أنه في عجلة من أمره دائماً، قلت:
- نر بسمغرق توقيع العمال وقتاً طويلاً لا نكفل
قال
- خذ واحسد يا رجل.

وجلس على انقسم الجلدي الواسع ونام. أحل من سالفه،
وارضى قبعته على وجهه، ونام، وسمعت شخيره في تحفاته. إلى هذا
الحد يتعب منذر في العمل؟ سألت نفسي «أرون يونكر» يلف
أمامي مبسماً ابتسامته النجدة. لاحظت، لأول مرة، أن أسنانه
مبصرة في همه كيهما اتفق.

قال وهو يصوب نظري عذبة المفوليتي:

- أنا محتاج إلى قرص ثلاثة أشهر مستر اسماعيل.

كنت أضحك من كفته وهو يتحدث بالانكليزية. يقول «تري» بدلاً
من «تري»، ويقول «نن» بالميم المفضمة والنون لفظ ويعني شهراً.
قلت

- هذا عمل عليل

قال لي يأس

- أوه مسطر اسماعيل، عايد هذا صعب جداً.

وديت على ذراعي، وقال إنه مضطّر إلى هذا القرض ليُرسله
لزوجته لتشتري بيتاً في بانكوك، بيت صغير ثم قال:
- ما فائدة صلي في المملكة إذا لم اشتر بيتاً في العاصمة مسطر
اسماعيل!

تاملت قبضتي واستلّاء جسمه وصُفيرة بشرته وصلعة رأسه ومظلم
وجهه النائلة، واستمر يتحدث
- الاتحد شراء بيت في القاهرة؟
- أنا أعيش في الاسكندرية أرون.
- أنا أيضاً لا أعيش في بانكوك
- الاسكندرية أجمل من القاهرة.
- حقاً مسطر اسماعيل، إنها مدينة جميلة جداً.
حسبت أنه يهاريّني ويتلفظني، لكنه قال

- لقد رأيته مسطر اسماعيل في السينما في فيلم أميركي جميل
كان اسمه موحد بيرة مشج في الاسكندرية،

بيت على كتفه وقلت:

- ساسامعك أرون، سأتحدث مع عايد في الأمر

قال بيّوس:

- أشكرك مسطر اسماعيل، أنت شخص طيب جداً.

ثم ذهب على قدميه ليهمس في أذني:

- دو يو لايك فابن؟

تلحظة الأولى لم اتفهم، فذهبت وأنا استغرب للسؤال ارتبكت

عاد بهمس:

- لا تخف مستر اسماعيل. أنا أجهزها بنفسي إن خمتة أروون
هي. ولنح..

كانت حينئذ تتسعدان بالق غريب كأنما يشعري بالبهجة كلها.
كنت

- لا أحبها.

وكأن صرني لا بأسج. أحسست بالخوف حقيقة، حتى أنه
انصرف من أمامي من دون أن أشعر



في الطريق ضُربتنا ربح العجاج بدوامات صفراء ثقيلة أضواء
منظر الكشاحات. لكنها لم تفلح في إشغال هذا الظلام الأصفر، بلضاً
من كل ناحية، بكأن يخنقنا. صرخ مناد:

- لا حيلة لي في تراب هذا البلد. أنا منظر الذي لا يفل شيء
أمامه. كهرباء يعمل. ميكانيكا يعمل. مجارة يعمل. حداثة يعمل
مراقبة براغب. موت بصوت. أنا مندر أعجز عن مقاومة هذا التراب
الأصفر.

- نلق بالسيارة أفضل

- نغتنق يا رجل. قد يحول الوقت الكل يطف الآن بعيداً من نهر
الطريق الكل يخاف. الطريق مفتوح من الوسط. نطلق بسرعتنا
نفسها.

وصرت أسمع صوت ارتطام ثران الرمال بالعربة، وأحس كأنما

شخص يحملني في صندوق مطلق ويظهر بي. المشكلة اني اعرف
اني في سيارة. ماذا افعل؟ هل اتوسل اليه ان يوقف. صرخت.
- منذر. قف بالسيارة

- تصرخ (ي يا رجل. تصرخ في منذر. تريد ان نموت. الا تعرف
انها بلدة ملعونة؟

ولم يهدئ. من سرعة السيارة. صر يضحك بهستيرية يهذي.
منذر للضئ من سلام. منذر يتحدى السوبرمان ها ها ها. لا
تخف يا رجل.

- لا تخف يا زلة. يا استاذ. يا مصري. هل تحب السمكات؟ لنا
كرف. اكزبه جداً. ها ها ها. وصوت الرمال صر كصوت مطر من
حصى ماذا افعل مع هذا المجنون؟
- لا تخف. سائق. اهدئ. من السرعة كما ترى. لا تخف اخي
اسماعيل.

واصبحت بالسرعة تقلّ فعلاً. وبالسيارة تأخذ جلب الطريق
لنظف. لكن العاصفة راحت تنفخ. وظهرت بيوت البلدة قريبة

- انظر لقد قطعنا مسافة طويلة ولم يحدث شيء. نظروا منذر
صائبة الكل يلف على الجانبين. منذر لا يلف ويجري في
المنتصف.

- لا اظن اني ساركب معك مرة اخرى يا منذر
- سركب معي كثيراً يا استاذ.

وداح بلود السيارة عز من رغم انكشاف الفضاء

- ساركب السيارات التي تطلعت تسبقنا لن اضيق اهدأ. قل

لي يا استاذ، هل تسكن وحيداً؟

رحبت أنتامل وجهه المستدير المليء متأثر بشور النبعة بشرقه
بيضاء وعيناه خضراوان.

- اسكن مع أصدقاء.

- لي بيت عربي.

- أجل.

- هذا أفضل مما فعلت. كنت اسكن في بيت عربي منذ تزوجت
سكنت في شقة في عمارة. أسوأ شيء هنا أن يكون لك جيران.

لم ألهم ماذا يقصد. فراح يحكي لي حكاية صاحب البيت الذي
يسكن في شقة تقابل شقته. صاحب البيت رجل تجاوز السبعين، له
زوجة لم تتجاوز العشرين. الزوجة المسافرة بعد خمس زوجات.
منذر لي خروجه ويخوله يرى الزوجة الشابة أمام باب شقتها
كلشفة وجهها إنها جميلة جداً شقراء. من برها يقل إنها تركية
منسوبة لي الملكة منذ عشرات السنين. إنه يخالف هذه المرأة
الصغيرة. ومسلئة

- هل أنت أردني يا منذر؟

لم أرتب للمسؤال. ولم أدر ماذا يحدث منه. أنا أعرف أنه
أردني تماماً.

- هل يهيك هذا يا استاذ؟

- أبدأ أريد فقط أن أسالك عن الأردن. يقول منصور إنها
جميلة.

ضحك وقال:

– منصور! هذا مفعل يا استاذ، هذا له قصة عجيبة سامعيتها
لك فيما بعد، اظن ان بيتك قريب الآن
كنت قبل ان اركب وصفت له البيت وكنا وصلنا فعلاً. ما كنت
الفتح باب السيارة لانزل حتى هنا.
– استاذ، انا نمت ارنشاً، انا فلسطيني.
وكان ينظر الى بعد غريب.



- لماذا لا تحب النزول معي إذ السوق؟

سألني سعيد فجأة وهو يطلق الطلقة. كنا نجلس في الروفة
وكان الوقت يدخل في المساء واستطرد
- أنت تلعب شارو اليوم. لقد خسرت كثيراً.

لم أشأ أن أحدثه بشيء. ماذا يفيد القول بأنني الفكت في الصمت
الذي يحاصرني في العمل منذ أيام؟ لا أعرف أي خطأ ارتكبته مع
"أوشد" الذي إذا جاء ليطلب من عابد شيئاً يتصدد وجود عابد
في حجرتي، تجاهلني ولم ينظر عني إلّا. ينهي حديثه مع عابد
بسرعة، وينصرف مطيعاً لكل ما يقول. لا يحتج ولا يغضب. ونحن
أذهب إليه لاتباع التمرين على القيادة يتعامل معي بجدية شديدة.
يبدو دائماً يفتح كل طريق لحديث آخر. منذر لا يزال يدخل ويخرج
بسرعة. لكنه صار ينظر إلّا في خروجه ودخوله بشحن غير مفهوم.
يبدو متعظراً للرد على أي شيء أقوله أو أفعله. حتى فيليب الذي
توسط مع عبد الله لدى المشتقات، ومنع ترخيصه أو عقابه. لم يعد
يحدثني فيما يصعب عليه من القرآن. يبدو غير مستعد للحوار في
شيء. يعرف أنني إذا تكلمت سأسأله عن الذي دفعه للسرقة. وهو لا

يريد أن يخوض في ذلك لكن هل يدعو الأمر حقاً لقطع كل كلام؟ لقد بدا لي في الأيام الأخيرة أنني شخص لا يأسر الناس جانيه. هكذا بلا سبب الخرافات. وقليل ما تذكرت عهدي للناس أن لا أكون مشاركاً في شيء. وأن أظل امرأة لامعة تنزلق من فوقها حبات المطر. وشعلني الضيق الذي لا أعرف إلى أي وجهة أدفع به. حتى منصور الذي يبدو ضعيفاً استطاع أن لزيح طيه بعضاً من غيظي. عاد واختفى. لم يعد أمسي في العمل غير عابد الذي لا يمضي من الوقت إلا للقليل في المكتب. ودائماً في أعمال عم عبد الله الخاصة. ونبل الذي قال لي منذ أيام: «لا تصفق ما حدثك فيه بشأن الخرافة». ثم انقطع عن كل كلام معي. يقدم القهوة في صمت ويمضي أنا واليهمني للمحور فقط نتبادل الابتسام من بعيد قلت لمعبد: - إنني فعلاً بحاجة للتزول معك إلى السوق.

وطعنا فردي ثياب الخروج. كل في ثقلته. اليوم جمعة. يوم يكون معظم العمل فيه عزي، مسعيد يصحو متأخراً ويخرج إلى الجامع. ويظل فيه حتى الصلاة. ووجهه عادة ما يمضي اللبلة في المستنق، ورائتي أن البيت صباح الجمعة لينام. يكون عزي أنا الذي لا يصلي. ولا يعمل ليلاً. أن يعد طعام الغداء. طعنا يوم الجمعة يكون مصرياً. سمك مطهي وسمك في الصلصة وبانجان مطهي وبطاطس مطوية وفول وفلفل أخضر مطهي أيضاً وأرز بالخلطة وطبق كبير من السلطة وعصير ليمون أو برتقال. لقد تعلمت عمل ذلك كله من مسعيد.

يلوم وجهه بعد الصلاة ليتفدى معنا. ويخرج إلى المستشفى ولا يعود قبل العاشرة. نجلس أنا ومسعيد نتفحج على التلفزيون. أو

تلعب الطاولة. نحرس دائماً أن نرى حديث الشيخ علي طنطوي شيخ تجارز الخمسين له وجه اليف. مشرق البشرة. نموطه لحية القصيرة بيضاء. يتحدث كأنه يجلس معك ويخاطبك أنت وحدك بلغة قديمة. يتحدث في أمق المداخل الفقهية ببساطة تامة تصل إل كل عقل. لذلك فيما يبدو تلمسه الناس. قالوا إنه في الأصل مصري. وقالوا إنه سوري. وقالوا إنه مغربي. وأبدني فلسطيني.

علي اني نم اكن بحاجة الي التزول إل السوق بسبب ما يهاصرني في العمل من صمت مفاجيء. هذا ايضاً نوع آخر من الصمت في البيت الذي احببته واحببت العودة اليه والبقاء فيه اطول وقت. بان لي أن حياتنا تعني علي اطلاق ثابت انه لا شيء يربط بيننا غير أننا غريباء. نفسك كثيراً لكن علي حكايات نسكبها من غرتنا. لم يحدث ان خاض واحد منا في امر خاص امام زميله.

تلعب الطاولة فيكون جهدنا في الفوز نتفرج علي التليفزيون فنظارت بينه وبين التليفزيون المصري. ولأن كلاً من سعيد ووجيه يوردي نظارة أثناء اللعب أو الفرجة. احس دائماً اني اجلس مع اثنين من العلماء لا يبدو لي أن علاقتنا يمكن ان تمتد بعد ان نفترق. سنفترق. لا بد أن نفترق يوماً. لكن علاقتنا لا تحفر لها مجرى في القلوب. علاقة جذيرة بالاحترام. لأن الاحترام القتياد هو اساسها ولان تشهد يوماً خروجاً عن المألوف. حتى حين يبدو وجهه قلقاً من العودة الي مصر. ويقول إنه لن يستطيع أن يعاين الطب هناك ابدأ. وأنه بعد عودته سيفتح ورشة للنجارة. نفسك. ولكنه يبدو جاداً ويبدو الامر لا يعني اهدأ. أحياناً يقول سعيد: وصلني اليوم رسالة من ابي يتسائل ووجيه. كل شيء بخير؟ يود سعيد: مكل شيء بخير. وينتهي الكلام ووجيه لا يتحدث عن رسائل تصل إليه.

لنا ايضاً لا اقل ليس عن قصد . ولا يبدو انهما ايضاً يقصدان ذلك . لا بد ان كلامنا لا يزال مشدوداً إلى الطرف الآخر البعيد... الوطن والاهل . حقيقة اننا سنعود يوماً . لا بد ان نلعل معلها ونسعد بيننا وبين ما حولنا . ولان كلامنا مضمّن إلى عودة للفرقة . لا يبدو ان للخلق أو للخلق منفذاً ينمير من الينا . أي حياة هذه التي تبدو نظمية مثل درس في قواعد اللغة . كل شيء حولي بارد . إنني وخروجي اليوم الى السوق لا يزيد على ابتسامة باهتة .



ركبتا سيارة سميد الدانسون . جُئنا قليلاً في أرضة جانبية حتى دخلنا إلى الشارع العام هل يصدق أحد أن هذه ثاني مرة أرى الشارع العام رغم مرور أكثر من شهر على وصولي . لا يزال الشارع مزدحماً كأنني أراه لأول مرة . كأنني تركته منذ قليل وعدت اليه . لكننا ندخل في السماء . انسيئت المصابيح على الجانبين زابت القمر عالياً في السماء هلالاً صغيراً .
- المني افضل .

قال سميد بعد أن جنح بسيارته الى رفاق جانبي . كنا قطعنا نصف الشارع العام تقريباً توقف وتركنّا السيارة وعدنا نمشي . رصيف الشارع العام ضيق بالفرقة والبضائع صمت بشري غريب وطرقة عالية مفاجئة في الجرم منذ اسس . يبدو أن الصيف يلفظ آخر انبساطه نحن في أكتوبر الآن . في منتصفه . وفي النصف الثاني من ذي القعدة . أسابيع لليلة ويهل علينا العيد الكبير والحدج لقد بدا التكليف يرسو بيت برناتسجاً خالصاً عن الحدج وشعائره . لافتات والنوفتيه . هي الأكثر شيوعاً في الشارع فكوت ان اشترى شيئاً

لأمي وإخواني ونزاجعت. لا أعرف أحداً مسلحاً إلى الاسكندرية
لأرسلها مع. ولا أعرف أحداً يسافر في الوقت القريب.

الآن أرى انسحق الفضل معاً وابتعدت أول مرة. أمشي على جبل
وسعيد لا يتعطيني في شيء. لكنني لا أشعر بأي غربة. هل كان
مشهد انسحق غريباً أول مرة حقاً، أم مشهد عربة الشرطة واللحاة
المسكينة فظيها؟ الآن لا أرى ما حولي يختلف كثيراً عن سوق
المنشية بالاسكندرية. فقط لا أحد يتنادي على بضائعه. وأشكال
الناس هي التي تختلف

- تستطيع أن تحول نفوسك إلى مصر عن طريق بنك التراجعي.
إنه أشهر بنك هنا.

قال سعيد حين رأني ألتحق إلى لائحة البنك. قلت:

- أنا فعلاً في حاجة لإرسال مائة جنيه لأمي.

- وأنا أريد أن أسأل عن سعر الجنيه الذهب

وجذبني من يدي، ندخل، وأصاف

- وجبه سيسكنني بالليل عن ذلك إنه يحب أن يشتري بفلوسه
ذهباً. يقول إن الذهب الفضل من المولات.

سألنا من باب ضيق زحام شديد ضابطاً بالدخول، البنك صغير
لا أعرف كيف اتسع لهذا العدد من الناس ولأنفسهم وعائلاتهم.
وقف سعيد أمام موظف باكستاني شاب يسأله عن سعر الجنيه
الذهب مائة رطلية وتسعون ريالاً. سمعت الموظف يقول. وولفت
أننا أمام موظف آخر يفصلنا شباك من الحديد. وطلبت إليه أن
يحررني شيكاً بما يساوي مائة جنيه مصري. أخذ مني خمس مائة
ريال، وحرر لي الشيك الذي سأرسله لأمي بالبريد. أحسست وأنا

أقف انتظر انتهائه من تحرير الشيك أن شعاعاً من الضوء يفتقر
خدي. شيء يشدني أن التفت إلى ركن بعيد في الزحام. أعرف أنه
حين ينظر إليك أحد تشعر بنفثاته وإن لم تره. يزداد شعورك حدة
إذا كانت النظرة أكثر دقة وإمعاناً. لم لفتن إلى ذلك إلا بعد أن
التفت ورايته بعيداً في الزحام يصوب إلى عينيه كأنهما بقعا ضوه
في غرفة شديدة الظلام. إنه منصور ولا أحد غميه. رغم أنه لا يوجد
قوة فوق كتفه هذه المرة ارتبكت لا أعرف هل أتوجه إليه أم
أتهمله. جذمني سعيد وهو يلون
- لماذا تطف جلدك هكذا؟

رايت وجه منصور يتشكل بالغضب رايت عينيه تتسعان
وتاتلفان بشيء أشبه بالنذير، وأقبل نحونا كسهم جامد. تولعت أن
يسرني. لا أعرف لماذا أتوقع منه الإساءة دائماً، لكنه تجاوزنا
بسرعة وخرج يمشي له طريقاً بكتفيه.
- لماذا تطف. ألا تسمعني؟

هناك سعيد وهو يهزني. كان غرق غمزير قد تقصد على عيني
ووجهي. أخذت الشيك الذي أعده المؤلف الباكستاني، وشركت
سعيداً بشدني كمن ذراعي للخروج.



- ما لك؟

لم أريد مشيئنا نقليل اعداداً من الباكستانيين للسمر، والافغان
البيض حمرة اللحم. باللحم فقط نميز الافغان. وربما أيضاً بنظرة
الدول في عيونهم. ملابسهم لا تختلف عن ملابس الباكستانيين

القميص نفسه الطويل والبرصاال المضغاض الذي قال عنه نبيل مرة وهو يضحك إنه صنع خصيصاً للطفو فوق مياه الليضانات التي تتحدث عنها نشرات الأخبار كل يوم.

قابلتنا أيضاً جماعات من الكوريين يمشون مسرعين، وكلمنا قليلتنا امرأتان معاً يقول سعيد «مصريات». يشرح لي كيف يمشين اثنتين اثنتين. تلتزم ما تغطي امرأة وحدها المرأة مع زوجها أو صديقتها. رأيت أمام أحد المحلات عدداً من الأوروبيين، وربما الأميركيين، يمشون السفن أب، وبينهم فتاة شرقي ينظرون جينز، شفرة، لا تغطي وجهها ولا شعرها، وتضحك بعجاء. لم أر غيرها في طول الشارع

أمام محل بقالة ضخم وقفنا القيل علينا العامل تاركاً بقية زبائنه. لاحظت أنه في نهاية المحل من الداخل يجلس رجل فوق الأرض مستنداً الى حشاية صفيحة جوار الحائط، وقد نُدّ سائقيه رزاح يسخن الترجيلة، اعطى سعيد ورقة للعامل الذي صانعه عيشاً

- سنعود بعد ساعة

قال سعيد، فرد العامل وهو يزداد ابتسامة

- في امان الله.

ومشيئاً، قال سعيد

- الرجل الذي يدخن الترجيلة وهو صاحب المحل. العامل يعني اسمه محمد، يحب المصريين جداً ويحبهم المصريون. ذكوي ولأح كل الليبيين اذكيا. سنعود بعد ساعة. يكون جهز لنا كل شيء.

ونابغنا الشئ. رايت اصااط الشارع نزل. والزحام يخف،
والمحلات تتباعد. ويظهر بعض المباني القديمة والخرايب. حتى
وصلنا إلى مكان منظم تماماً، ووقلنا نشم رائحة المخللات.

محل صانع به مصباح وامر. ورجل مسن محني الظهر، تقدم
سعيد نحوه وتقدمت معه طرب سعيد من الرجل أن يجهر لنا كيمساً
بخصلة ربالا. بينما رحت انطلق إلى البراميل المصلوقة حتى
مسلط اتحل. وإلى البراميل الصلجية المكشوفة التي في بعضها
بصل أصفر وأبيض يسبح في مياه حمراء. وفي الأخرى خيار
متراكم في تراخ، تطفو بظوره فوق الماء. وفي نعيمها قطع اللبث
الحمراء والبيضاء وقرون الفلفل الأخضر لم يكن هناك غيرنا
والظلام. والتهلل البعيد لا يضيء شيئاً وتخلبت البراميل مئنة
بالديناميت الذي سينفجر في الحال. رحت انظر في الظلام إلى
الجامع واضح المعالم أمامي. جامع كبير لكنه مغلق. ومنازل كثيرة
بيضاء منخفضة خلفه.

- هذا جامع الجندة الرئيسي. أمامه ثقلام الحدود. كل الحدود
تقريباً فيما عدا قصر الرقية يتم في مكة. يقولون إن هذا الجامع
أقامه في الأصل الرسول نفسه حين غزا تبوك. اعتقد أنه صل هنا
لفطر وأليم الجامع فيما بعد.

قلت:

- هنا أين يتم الجلد والرجم.

- في الغالب لا يوجد رجم. لم أره حتى الآن. يتم ترحيل الزانية
من الغرباء الزانية من أهل البلدة ثم يكتشفها أحد حتى الآن
الجلد لا يزيد على ضرب بالخيصرانة. يسميه المصريون بتغليفس

مردم. هي، مضحك. لرجعت في رمضان الماضي ربما رايت الجلد صباح أول أيام العيد. ربما ترى ذلك العام القادم. إن أكبر عدد من النجلومين يتم جلدهم هنا في عيد الفطر. الفطر يتم سجنه بغية شهر رمضان ثم يجلد يوم العيد الجلد الحقيقي يتم في الإمارة. يتلذه الأسير بنفسه. ليس بالخيزرانة ولا بالسوط. بالمقل على اللحم وجبه يحدك عن المنقولين للمستشفى مُدْرَجين من الإمارة.

أقشعر بدني وأنا أصلاً لا أحب الظلام. وأخذ سعيد الكبيس البلاستيك الكبير الذي ملأه الرجل بالمخل. وقَبِلَ أن نعيد سلاته عن البيوت خلف الجامع. قال -

- هذه منطقة أم درمان. كل سكانها سود. ربما سمعوا أم درمان بهذا السبب - وابتسم - وربما صار أهلها سوداً لأنهم يسكنون أم درمان. إنها منطقة مشهورة بالشموز وخلافة. معظم سكانها من المنشدين والمغنين والراقصين في الأتراج. الرجال والنساء. مثل عوالم شارع محمد علي في مصر. لكنهم لا يجلسون على المقاهي ولا أمام الأبواب هل تعرف أنه رغم مرور أربع سنوات على وجودي هنا، لم يحدث أن دَخَلْتُ هذه المنطقة؟ إنها خطيرة جداً.

واستدار يعود في الشارع. فاستدريت معه تاركاً أم درمان خلفي والمسجد المخلق. وصوبت عيني إلى الأضواء البعيدة. لكن سعيداً قال

- كلمنا اثنت هنا ورايت الجامع. تذكرت غزوة تبوك. وتذكرت حكاية خريبة يتداولها الناس. يقولون إن إحدى الفيلك التي مر بها النبي. رفضت أن تقدم له ماء يشرب. وحالت بين جيشه وبين بنوهم. فدعا النبي عليهم أن ينفرض أفراد هذه القبيلة. وتغل حتى

يوم القيامة لا يزيد عددها عن عشرين. عشرين امرأة ورجل وطفل
فقط كلهم ولد مولود مات أحد أفراد القبيلة إنها قلعة التي
يتحدث عنها الناس هنا. هل تعرف أن ذلك صحيح؟

فويل أن أجيب الحراف

- لا تتكلم.. إنها حكاية مرمية لا أحب تذكرها.

ومشينا صامتين. لكنني تذكرت منظر حين قال من البلدة إنها
ملعونة يوم حاصرها -الصبح-. لا بد أن منقراً كان يقصد ذلك. أمر
بشع بحق لا أظن أن الرسول يفعل ذلك بأحد. لا أظن أن أحداً
رأى أحداً من هذه القبيلة هي قصة مرمية اخترعها مجنون. إلا
أنني أحسست بخوف خطيفي لم ينفذني منه إلا سماعي صوت
أذان العشاء غالباً يصدر من جامع بعيد لا أراه ورايت المصلات
تغلق أبوابها. والمارة يدخلون في الأتلة. ورجلين مسننين ذوي نعتين
ببضارين طويلتين. يمشيان على الرصيف يحمل كل منهما في يده
درة يضرب بها من يقابله ضربة خفيفة ويقول بصوت عال. صلوا.
صلوا.

- هؤلاء أعضاء جماعة الأمر بالمعروف. يظفون السوق
ويمنعون الناس للصلاة.

قال سعيد ذلك وهو يهذهني لتدخل رقائاً جانبياً منقطعاً نضجياً
فيه قليلاً. فوجدنا عمداً من المصريين قد سبيلونا إلى الزقاق. وظفروا^{١٧}
ينظرون إلينا ضاحكين.

انتهت الصلاة. وخرجنا وخرج الناس من أركابهم. وارتفعت
أبواب المصلات. وظهر الناس الذين اختبأوا خلفها. وراحت الحركة

تدب شيئاً فشيئاً في الشارع، وصارت الأضواء تزداد لي عيني كلما
تقدمنا، وفللتني كتف من الوجوه التي رأيتها في قدوسي عادة،
وتصرف بي سعيد إلى باحة واسعة خلف بنك الرياض. لم وجدت
سوقاً كبيراً للخضر والفاكهة واللحوم اشترينا مانجو وبرتقالاً،
وعدنا إلى الشارع نلتحق بمحل البقالة قبل أن يفلو وسألني
سعيد

- هل نسيت حديثي معك منذ أيام؟

- أي حديث؟

- الدرس الخصوصي.

كان سعيد قد حدثني عن امكانية زيادة دخلي بإعطاء بعض
الدروس الخصوصية، إن ممارسة عملين أمر مسموع في المملكة،
لكن الدروس الخصوصية ليست عملاً رسمياً الدروس
الخصوصية أيضاً ممنوعة، لكن على المدرسين فقط، أما من هم مثلي
لا يعملون في التدريس فلا جناح عليهم نسيت هذا الحديث ولم
أهتم، لكنه فيما يبدو أخذ الأمر جاداً. دخل بي إلى محل أدوات
مكتبية أنيق، استقبلنا فيه شاب صغير مبتسم. قدّمه لي سعيد
باسم طالبه، وقدمني له.

صافحني الشاب بحرارة شديدة، وأخذنا إلى ركن بعيد في
المحل، ثم أخرج ثلاثة صفيرة، وأخرج منها غليظين من شراب
«الفيستو». رعاد يحدث زبوناً كان يقف معه قبل دخولنا.

انتهينا من الشراب، وانتهى خالد من التزيين، وأقبل علينا هاشماً
باسماً بسعادة غائقة. كان جليده الأبيض نظيفاً لامعاً، وكذلك
غترته وعقاله الأسود، وبدأ كل شيء فيه مبتهجاً أخرج من جيب

الجليل الاعلى روفة قدمها لي وقال:

- هذا عنواننا يا استاذ اسماعيل.

استكت بالروفة لا امرى بالصبط كيف اتصرف ولا ما هو
المطلوب مني. وقال خالد:

لا تفكر بالكفاة يا استاذ. سنعطيك ما هو طيب إن اختي
تلميذة ذكية لا ينقصها إلا إتياء قلبه في اللغة الانكليزية.

إن رتب سعيد كل شيء. وتفق مع هذا الشاب على أن أعطي
دروساً لأخته يا الهي! دروس لغتة.. وهذا بانسكة؟ ولا بد أن الدم
ارتفع أثر وجهي. ولم أتر إلا بفائدة رقد اتصرف من أمامي ليعد
وفي يده عبة بها فلان شيطرن مذهبان. وقدم لي العبة الانيقة
قائلاً

- هذه عربون سجة يا استاذ متى تحضر؟

- بعد اسبوع

لا اعرف لماذا قلت ذلك. هذا ما حدث من أي حال رأيت سحابة
داكنة تظن على وجه خالد. لكنه سرعان ما ابتسم وقال:

- إن شاء الله يا استاذ.

قلت:

- لي أمان الله

ومدت يدي 'صافحه'. فأخدها بين يديه. ونشد عليها بقوة ثم
صالح سعيداً ما كنونا تلفلت لنخرج حتى ننتف.

- استاذ.

توقفت. الترت مني خمس

- أرحبك أن تعذر ولا تخلفني.
نم لمر كيف ارد - كنت للكر كيف قبلت هديت بهذه السمولة.
للت
- لا تقلق. سأحضر في الموعد.
شد على يدي من جديد بقوة الذي يعقد حلفاً، أو يقطع عهداً
بالوفاء الى الأبد.



بعد العشاء رحنا ستخرج على التلفزيون في ردة البيت.
سألني سعيد
- أين نخرج؟
أجبت
- نعم.
قال:
- إذن ستخفي العيد وحدك.
وسكننا قليلاً حتى قال
- أنا سأحج للمرة الثانية وجيه سيحج للمرة الرابعة. اليس
كانك يا مكتورا؟ أجاب وجيه
- صحيح لكنني هذه المرة سوف أخرج لأمي.
ابتسمت وتساوت:
- هل يمكن ذلك؟
أجاب سعيد:
- يمكن. ألم تر حديث الحج أمس في التلفزيون؟ ألهم أن يحج

الإنسان لنفسه أولاً.

وسمك وقال :

- ووجه في الحقيقة سيخرج لأمه من باب التوفير بدلاً من أن يرسل إليها تذكرة. ويستقبلها ويتحمل معها. يرحب لها. فوجئت بوجهه يقول ببرود :

- هذا حقيقي، لكن الحج الآن أيضاً صار شيئاً شائعاً أنا أوفر على نفسي المصقة، هل تراني مخطئاً يا اسماعيل؟

- لا.. طالما أن الاسلام يرفض ذلك فلا خیار على الفكرة.

قلت ذلك غير مقتنع بكلامه، لكن ما فائدة الجدال في المسألة برمتها. ووجه من الفروع الذي لا ينحرج عن فكره. وقال يخاطب سعيد :

- هذا رجل لن يرحل لكن يقول الحقيقة ولا يلجأ للغش واللمز.

ضحك سعيد. وانشغل وجهه فجأة بكتابة رسالة على الطرود المنبعث من شاحنة التلفزيون وفكرت أنا في سعيد الذي حدثني اليوم لأول مرة عن خطيبته «وداد» التي تعمل مدرسة في البلدة، وتعيش معها أمها فكسحرم. وكيف إنه لا يستطيع أن يزورها لو يراها إلا في السبوت، وعدفة وبسرعة

لم يكن من السهل أن أصدق ذلك، لكن لذا بكذب. قلت لنفسي ونحن عائدان من السبوت، وكان لا يزال يتحدث. قال إنه سيغادر في نهاية هذا العام الدراسي عودة نهائية. كل عام هنا ضاع هناك. قال بلا مبالاة. لقد هجر نفسه شقة أنيقة بمصر الجديدة في عمارة ضخمة انهارت بعد بنائها. أنه يبعد الله لأنه لم يسكنها قبل الانهيار. ويحمد الله أن خطيبته وداد تلهمت عرقه. اشترت هي

شفقة بمخدراتها، والفتنة أن يكون هذا علمها الآخر. فقبض ربح يا صاحبي. كل شيء هنا قبض ربح.. كان يقول ويضحك وهو يترك السيارة. لكنني كنت أدرك عذابه. وأي أيام للخطوبة تضيق هنا بلا لقاء حميم. كان يقول أكثر من مرة. وفي اللحظة التي انتهت فيها إلى أن خالداً الذي قابلناه اليوم في السوق. قد يكون أخاً لواحدة بنت سليمان بن سبيل. إذ حدثني سعيد من قبل أنه يعرف أخاها. وإن له مكتبة بالشرع العام. في هذه اللحظة التي فكرت فيها أن الفتاة التي اختار سعيد في أن أعطيها درساً قد تكون واحدة نفسها. في اللحظة التي كنت فيها انتفض أسأله. بدأ المزيج يتكرر نشرة الأخبار الأخيرة بصوت عالٍ نالخ. قلن:

بسم الله الرحمن الرحيم..

ولكم في الحياة قصص يا أولي الألباب..

عواحق اليوم مفتي مكة. على إقلمة الحد بالسيف. على ملك بن عبد الله بن مالك. الذي قام في رمضان المعظم الماضي. بخطب فتاة كانت ترمي الغنم في تفرج مكة. وهرب بها إلى الطائف. وهناك أقام والشيطان خيمة بين الجبال. وأخذ يعاشر الفتاة بالقوة معشرة الأزواج. لقد تم اكتشافه وكر الزنديق هذا الأسبوع. وهاجمته قوة من الشرطة. لكنه كان مسلحاً برشاش استطاع به أن يقتل أحد أفراد القوة المهاجمة. اتني مكثها الله عز وجل من القبض عليه حياً...

- هل سبق لك أن رأيت تنفيذ الإعدام بالصيف؟

سألني وجهه بيرويه أجبت:

- لا.

وتحسنت هنفي.

٦

زحام شديد من الأوتوبيسات الكبيرة والصغيرة، وسيارات
البيجو والمرسيدس والشيغروايه والتويوتا والداتسون والهيونداي
والفيلد وماركات أخرى لا أعرفها، يشغل الطريق لقادم من
الشمال، طريق المطار، التجه إلى الجنوب.

تبوك لول البلاد الكبيرة في الجزء الشمالي الغربي من المملكة.
هذا بيت الحجاج ليلة أوليائين في الضلأ جوار السيارات، الوصول
إلى تبوك معناه الاطمئنان.

الرحلة بعد ذلك سهلة وفي أرض مقدسة في تبوك يقوم
المستشفى بدور المجرى الصحي، فيتم الكشف على الحجاج
القادمين من الشمال، من الشام وتركيا.

في طريقني إلى العمل كل صباح أرى هذا الزحام، وأرى النساء
واترجال وطفلاً من الأطفال، وقد جلسوا على الأرض جوار سياراتهم
يتناولون فطورهم في صمت، والسيارات والأوتوبيسات والحلة تشغل
جانبي الطريق.

توافل الحجاج الأتراك هي التي تغلق عيني في ذهابي وعودتي

من الفصل، فقرأ شبه عراة، حفاة، بيض النحر، حمر الوجوه، مستنزون في الغلجيم، على وجوههم سمعت وانتظار، إنهم بعيدون دائماً عن السيارات، لقد جاءوا مشياً على الأقدام، وسيستمرون كذلك حتى يصلوا إلى مكة، ينامون في الخلاء، يصادونهم لأن البرد لم يلبث بعد، ومعهم أمتعة قليلة ربما لا تزيد على الحطية من الصوف الخشن.

لم تدهشني أعداد السيارات والأوتوبيسات لدهشني أولئك القادمون على الأقدام. وكنا بعد لم نغادر العصور القديمة التي قرأنا فيها عن لوطس الحجاج القائمة مشياً من المغرب والاندلس، أو على ظهور الجمال، والخارجة من مصر تحرسها قوات من المماليك لتعبد عنها غارات الأعراب. كل الحكام المماليك كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج من غارات البدو، حتى جاء محمد علي الكبير الذي احتل أرض الحجاز نفسها فأمن الطريق نهائياً. كل الحكام القدامى كانت مشكلتهم تأمين طريق الحج الآ، يا الهي، إسرائيل مشيت على طريق الحج القديم وفي تطرق سيناء من الجنوب عام ١٩٦٧ بالضغط كما مشيت على طريق الساحل الشمالي حيث مشي سيدنا إبراهيم، ودخلت العريش حيث عرش هو لأول مرة وبالضغط كما اندفعت من الوسط فوق غصبة التيه، حيث شل بنوها يوماً عصا الطاعة على موسى الكليم، ولم يفلتوا هذه المرة، لقد حفظوا الطريق، مشيت إسرائيل وداست على كل الطرق المقدسة إيمان لم يحدث لأحد، وقالت الأرض أرضنا نزلها والأنبياء الأنبياء ولا فرعون يستطيع أن يجبر أحداً منا على الكذب ولا الخروج لنونا إبراهيم كان طيباً كذب لينجو من فرعون بأمراته وأخونا موسى كان طيباً لأنه اتبعنا بالفرار اليوم عدنا وبها من بنات

أبراهيم سيسبح أمامكم في المياه فمن منكم يقاتر على منعهم؟ لقد جاء موعون أخيراً إلينا يطلب الففران. يستعمليه ما أخذنا منكم يفرط أن تقفزه بذلت أبراهيم في أسواقكم. وإن يكذب رجائنا بعد اليوم.

مستفك إسرائيل طريق الحج في سيناء. لكن لا أحد يعطي عليه الآن. الحج بالسنن والطائرات. لا أحد يأتي مشياً إلا هؤلاء الأثرياء المشعبون. لكن الحج هنا صامت صامت. لا صوت ليل مراد يشتد يا رايحين للشيء الغالي. ولا سمعد الكملوي يملأ الفضاء. ولا أجل النبي. ولا أعلام بيضاء مرهقة فوق السيارات. ولا زغاريد تنطلق. ولا أظن أن الناس هنا تعرف شيئاً عن الحركة القومية والتقاليد التي أرسنها الحجاج القادمون بالسيارات وعلى الأقدام مشعبون. مشغولون باستكمال الطريق والتزود بالطعام. ينزلون إلى السوق ويحسسون في البلدة. لكن لا تستطيع أن تميزهم. غرباء في بلد مليئة بالغرباء. لا أحد يُخبرُ من هنا. فلا ترى لهداً بملايس الإحرام لا تستطيع أن تعرف الحجاج. إلا خارج البلدة. حيث يدور حولها الطريق الشمالي. ويعبرها بسرعة الـ الجنوب ماراً بالمستشفى. ثم دُخلاً في القرمال. لكن حيث الحج هو حديث الناس هذه الأيام.



دخل أيشد إلى غراشي. وقال إن الباكستانيين نظموا أنفسهم لذهاب الـ الحج. ويريدون أن اتخطل لدى عم عبد الله ليعطيهم حربة بقل كبيرة

ابتسمت ها هو أرشد يكتمني لقد انتهى تدريجي على القيادة.

وتسلمت أمي سيارة صغيرة نصف نقل قديمة لا تنقل بها. ولم يجد
أرشد عن جدته في القريب. اليوم يتحدث في شيء آخر حافته:

- ستسألون بسيارة نقل؟

- أجل سركب الرملة في هنتوفه. ونقابل فيلوتها أنا ورواح.

- لكن هذا صعب. لماذا لا تستأجرون أوتوبيس؟

- يكلف كثيراً مستر اسماعيل.

كنت أعرف أنه بتقسيم سعر إيجار الأتوبيس لا تكون التكلفة
كبيرة. لكن الباكستانيين لدينا عمال نظافة أو فنيين بسطاء. ولا بد
أنهم يحرضون على كل قرش

- هل ستحدث مع مستر عبد الله مستر اسماعيل؟

عاد أرشد يسألني والقليل بأم على وجهه. طليت منه أن يجلس
فجلس. طليت له القهوة فشربها. كنت أريده أن يتحدث كثيراً
وتحدث. قال إنه متخرج من معهد عال للفنون، وأنه لنار تشكيل
لديه لوحات صغيرة يرسمها في غرفته في الكاسب. لكن لا يطلع أحداً
عليها. وقال لي أن لا أتدهش. لقد علمه أبوه قيادة السيارات وعلمه
الميكانيكا منذ صغره. أبوه كان سائقاً ولما كان في احتياج إلى
السفر. اضطر إلى استخراج جواز سفر بمهنة ميكانيكي حتى
يحصل بسهولة على عقد عمل. لا مجال هنا للفنانين مستر
اسماعيل. قال وهو يبتسم ثم سألني:

- ألا يحدث ذلك في مصر؟

قلت:

- يحدث.

لكن دهشني ثم كنت لم أصدق الكلمة ولم أشأ الاستغنى

عما أراء غامضاً فيها. وقال ارشد إنه متزوج. ولديه طفلة جميلة اسمها زينب. يرسمها دائماً في غرفته. وقال إنه من «بيشارور» وماذا تعني بيشارور يا ارشد؟ أليست بلدة مثل سائر البلدان؟ لا مستر اسماعيل. بيشارور أكثر البلدان فقراً. كل العاملين هنا من عمال النظافة تقريباً من بيشارور. إنهم لا يفرمون بأجراتهم السنوية. يعملون فيها لتحسب لهم أجراً مضاعفاً لا يعودون إلى بيشارور إلا بعد أربع أو خمس سنوات مع نهاية التعاقد. قلت - لكن هذا صعب جداً

قال

- أصعب منه أن تذهب إلى بيشارور ثم تعود إلى هنا
ويستطيع قليلاً ثم قال لجاء:
- بكستان بلد متكوي.
لم أفهم ماذا يقصد. قل.
- ضياء الحق شريك جداً مستر اسماعيل. ألا ترى عينيه؟ إن بيوتو أفضل منه.

- هل تعرف بيوتو؟

- أعرف أنه مسجون الآن.

- سيفتكونه مستر اسماعيل. بيوتو هو الذي صنع ضياء الحق.
ضياء الحق انقلب على بيوتو ضياء الحق مثل السادات مستر اسماعيل

أريكني ارشد بعلي، واستمر يتحدث بعفوية شديدة. وسألني:

- أنت تكوي السادات. أليس كذلك مستر اسماعيل؟

ثم أرد ضاح مني الكلام. ورايته يتحدث كطفل مريض للغاية.

قال

- ذلك واجب مستر اسماعيل. واجب أن نكرهم جميعاً أنتي اعرف الكثير عن مصر عن مظاهرات بنابر العام الملغي مظاهرات الفقراء. في باكستان نحتاج مثلها لكن العسكريين أغبياء يظلمون الرعايا على الناس. إنهم جميعاً ضينا مستر اسماعيل. كل هؤلاء الرؤساء صديا. اننا بحق نغساء جداً.

وسكننا طويلاً ها هو أرشد الصامت ينفذ كشلال. كيف نتح لي قلبه. هذا الذي كان يبدو شديد الخوف مني: لقد نهض والفاً بسائني:

- هل ستوسط لدى مستر عبد الله؟
- اطمن أرشد، وسيوافق.
- اشكرك مستر اسماعيل. لكن تحج معنا؟
- لن تحج هذا العام.
- إذن ستعطي العيد وديك مستر اسماعيل.
- وتركني وخرج



- الآن تحج مستر اسماعيل؟
- نعم
- إذن ستعطي العيد وديك

أدعشني هليلب سوساي بيليا وهو يقول لي ذلك أيضاً حديثي اليوم. وجد نفسه وحياً لوجه أماسي. وكان عليه أن ينتظر معي بعض الوقت. لقد انصرف غايد لأمر من أمور عم عبد الله الخاصة. وانتقلت الجلس في غرفته لم تكن ساعة مضت هل حديثي

أرشد معي. وكنت لا زلت أفكر كيف فتح لي قلبه بهذه السهولة. أي سر وراء اتفاحه في الحديث على ذلك التعمق لثراء كان معدباً به أم شاء أن يعذبني؟ كلمني على كل حال، وأشاع كلامه في نفسي نوعاً من البهجة الغامضة. أرشد لا يخشائي، ولا أنا شخص يثير خوف أحد. سألني فيليب عن عابد قلت إنه في الليلة. نظر إلى ساعته منضيقاً، وقال

- لقد طلب مني الحضور في الثانية عشرة.

نظرت إلى ساعة اتحاطت فوجدتها الثانية عشرة وجدت نفسي تركته والفتاً بالفرقة. وأخرج أطل على فيلحة علني أرى البيني وهو داخل إليها. وجدته جالساً في مكانه يدير السواك في لحيه. وأني فابنسم. ابنسنت بعدت إلى الحجرة. جلست خلف المكتب وجلست فيليب على أحد المقاعد، وشغلنا الصمت للحظات. فسألت.

- هل يحتاجك عابد لأمر هام؟

أجاب في ضيق:

- هو قال ذلك.

تأملت وجهه البارز عظام الوجنتين. وجه قوي رغم ما بلغه فيليب من عمر. صار يضع نظارة طبية الآن. لم أره يضعها من قبل. قلت قوياً قوتيب:

- هل كنت تعرف أن مسنر عبد الله سيخلصك من الشرطة؟

وأحسنت بالأسف. مضى وقت على حادث السرقة. وما كان علي أن أنكره به. يبدو أن رغبتني في معرفة نواله كانت أقوى من لغزوني على الصمت. قال

- لا

- رأيتهم فابتسمت وتشجعتُ سألته
- ألا تعرف قانون هذه البلاد لينوب؟
- أعرف مستر اسماعيل
- إذن كيف فعلت ذلك؟
- إنه راديو قريب مستر اسماعيل، راديو يسبح موجات.
- لكنه كان سيكلفك الكثير، كان يمكن أن تشتريه
- نعمه ألف وخمسمائة ريال راديو فخم جداً، أحببت أن
- استمع إلى إذاعة كولومبو هل رأيت من قبل راديو يسبح موجات؟
- لا.
- خلاص.
- قال ذلك باللغة العربية فجأة، لكنني لا أعرف كيف ركبت
- الشيطان، فقلت
- أنت تستعد لإشهار إسلامك مستر فيليب والسادة حواء
- الاسلام
- أعرف لكن ليس في القرآن نص على عدم سرقة راديو يسبح
- موجات.
- انطلقت أضحك، وابتسم هو ابتسامة واسعة مضيئة بالضحك
- الذي لا بد أن سببه له ضحكي حتى أن وجهه الاسمر احمر قليلاً
- عليه لأن أن تعجل بإشهار الاسلام حتى ينسى الناس
- حدث.
- سافعل ذلك قريباً مستر اسماعيل لكن قل لي، أن تعج
- العام؟

فاجاني فيليب. وتوقفت سيارة عابد أمامنا في الباحة. لم ينزل منها. لكنه أشار إلى فيليب فتوجه نحوه، وركب السيارة معه. وانطلق عابد به دون أن يتكلمني صار عليّ أن أقل في غرقتي وقتاً آخر.



تولعت حين دخل شبل الطرفة، ووقف بنظر إليّ ولا يتكلم للحظة. إنه سيصانني بدوره ما إذا كنت سأحج هذا العام أم لا بدلت الشعر بالضميق من تكرار السؤال. كيف المرح المسألة. لم يمض شهران على عشي هذا. ولوجئت بعيد الأضفى بلغز أمامي الواحد حين باتني هنا لا يفكر إلا بالعمل. لا بدوك إلا متأخراً أنه في أي مكان من بلاد الدنيا لا يختلف الزمان. فلعيد الأضفى وقت معلوم حضر لو كنت في الصين أو اليابان، لكنني حقيقة فوجئت بعيد الأضفى. ولوجئت أيضاً بمسألة الحج. الحج مرتبط في ذهني بكبار السن من الرجال والنساء. أنا لم أر حاجاً غير هؤلاء في مصر والحج في ذهني تسيفه طلوس كثيرة أراها تتكرر كل عام في الحرم الذي سكن فيه بالامكندرية. زينبات ونباتج. والطفال يلعبون أكلمهم في الدم. ثم يطعمونها على الحائط الخمسة وخمسة. في عين الحسود. وشباب يرسمون جَنَلاً يركبه شيخ ويسمعه صبي. وجامع بعيد ونقل في الطريق. ورجال تأتي تصالغ لصاح قبل سفره. وسيارات تجري في انطراقت مزينة بالأعلام والنورود. وشيوخ تقرأ القرآن في مرادقات صليوية. ولاثم للفقراء. لم أفكر لبدأ أن شاباً مثلي يمكن أن يحج في هذه السن المتكثرة. ذهنتي أنه هنا يمكن أن توكب سيارة قبل مراسم الحج بيوم واحد

وتذهب لتسج وتعود هذه هي المسألة التي لن يفهما أحد. ولم
أحدث بها أحداً حتى الآن. لكن نبيلاً لم يتحدث في الحج جلسي
وقال ان اسمع اليه جيداً قلت:

- خبيراً.

قال:

- ليس بخير.

استسعت. لقد بتّ أحفظ طريقته في الكلام قلت

- ليكن. نعم.

قال:

- أنت تعرف أنني خاطب.

- ترى في إصبعك دبلة

- أنا في حجة شديدة. هل استمر في الخطوبة أم للسبها؟

ولم ينتظر رداً. ولم يكن لدي رد بالطبع. استمر يتحدث:

- لنا اتفاقاً راتباً ألف ومئتي ريال. يعني ما يساوي مائتين
وأربعين جنهما مصرياً أرسل نخطبتي مائة ولامى خمسين وأعيى
بالباقى فلا أوفر شيئاً لقد فُتحت خطبتي لنفسها حساباً بينك
مصر لا. في سبتي بنك. بنك اجنبي. أخبرني بذلك منذ أسبوع
وظننت أن أهول لها ما أرسله على حسابها. ولا أرسل إليها شيكات
لو حوالات لأن ذلك يستغرق وقتاً في صرفه. زحام شديد. كثيراً ما
لا تجد دولارات بالبنك فيعطونها نقوداً مصرية. يعولون الدولار
بالسعر الرسمي فتضمر كثيراً. هي تقول ذلك في الخطاب. يصرفون
لها الدولار بثمانية وستين قرشاً. مع أنه في السوق السوداء
بثمانين. فضلاً طبعاً عن ما في إرسال الشيكات من مخاطر. موظفو

البريد يتمتعون الخطايا ويأخذون الشيكات لأنفسهم. موظفو
البريد في مصر فطراء جداً كما نعرف، ولا بد أنك تذكر أشكالهم
ضحكت نساء

- حتى لو كان الشيك للمستفيد الأول للخطأ؟

قال

- لا شيء يستعصي على موظفي البريد في مصر.

ضحكت بشدة واستمر هو يتحدث

- أمي أرسلت لي أسس خطياً تنصح لي أن أكل من إرسال نفوذ
لخطيئتي لأنها تعني مع سائق من الحي. من الكيت كانت. لا، ليس
الكيت كانت من سوق الجمال في امبابه.
قلت ضاحكاً:

- ليس مهماً أن أعرف المكان، أنا من الاسكندرية إذا كنت
نسيت ولا أعرف القاهرة جيداً

سكت قليلاً وقال بهدوء شديد:

- لكن ما أكلتك عنه ليس بالقاهرة، إنه بالجيزة.

انطلقت أضطه من جديد وأبسم هو وقال:

- ما رأيك؟

- في أي شيء؟

- الفسخ الضخوة أم لا؟

فكرت قليلاً. قررت أن آخذ الأمر جدياً حتى لو كان هو يهزل.
قلت:

- امتنع عن إرسال نفوذ لخطيئتك وانتظر. ستعرف ما إذا كانت
تحبك أم لا

سكنت قليلاً ثم قال:

- إذا كانت تحبني سأحزن جداً على قطعي للقلوب. وإذا كانت تحب غيري ستتركني هي. وليس من المعقول أن ينتظر الرجل حتى تنوكة امرأة.

وجدت المؤلف محبباً خطأ. قلت:

- إذن سافر وتحب الأمر بنفسك.

- أنت تعلمت السألة. أنا لا أستطيع السفر. سأفعل كطالبين وأضي أجازتي السنوية في العمل. أنا محتاج لكل ملهم.

سكتنا وفكرت في هذا المحتاج لكل ملهم كيف يرسل كل مرنه تقريباً. وقال كأنه يحدث نفسه:

- المشكلة التي أحبها بنت الشيمه إنها تقرأ المجلات والمصطف.

وظلت أتأمل وقد شرد عني بذهنه للحظات ثم قال:

- هل تنصح لي أن أسأل عابد أيضاً؟

قلت بأنساً من الأمر كله.

- لا أحد يستطيع أن يفيد. أنا لا أهتم ماذا تفعل بالضبط. الرأي الصحيح أن توفر ما ترسله لنفسك حتى إذا عدت إلى مصر تحصل من شقة تنزويج فيها. هل ستزويج بدون شقة؟

لكنه عاد بشرد بذهنه لم يبد أنه استوعب كلامي. ثم قام وهو يقول:

- الأفضل أن أحج ثم أفكر بعد الحج.

وما كان يتقدم خطوة نحو الباب حتى التفت إلي وقال:

- هل صحيح ان الاسلام يبيع للإنسان ان ينج نفسه؟
سمعت شيئاً كهذا في التلفزيون.

تذكرت حديث رجب وأجبت:

- الاسلام يبيع ذلك بشرط ان ينج الشخص نفسه أولاً.
بللت الدمعة على وجهه وفي عينه وقال:

- طيب إذا كنت أمي مريضة وشبه مشلولة، وأنا لا أضمن ان
تعيش عاماً آخر. ولريد ان أحج لها هذا العام. هل يرضى الله
الحجة لأنني لم أحج لنفسي؟ لا أظن .

وخرج وليلي ينتفضر خوفاً من ان يسألني ما إذا كنت سأحج
ثم لا. لم يسمأل. ولا سألني أحد آخر. لم يتحدث أحد معي بقية
اليوم.

٧

- لماذا تصرع هكذا؟

- ولماذا أبكي؟

تساعت وأجاب الدكتور وجيه. دعاني لقضاء سهرة معي في المستشفى. فلما بدأ الجمعة وسنطيع أن نسهو معي حتى الصباح.

لم أتردد. قلت هذه فرصة أخرى للخروج من رتابة الإطعام الثابت لحياتنا. خرجت مرة في صعبة سعيد إلى السوق. والليلة ساقضيها في صعبة وجيه في المستشفى.

وجيه يتحدث كثيراً عن مشقة العمل هذه الأيام. الزحام الشديد في المستشفى بسبب موسم الحج. مفاجآت الحجاج وحوادث الطريق. أول أسر حدثنا عن بعثة الحجاج الذين يجدون أنه من اللازم فعصمهم للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية عن الكوليرا بالذات. الكوليرا هي مبعج الموسم. يكون على الحجاج أن يكشفوا مؤخراتهم لغذم المستشفى الرجال للرجال والنساء للنساء. يقوم الخدم بكشط الشرج بملاقط طبية. يتم بسرعة تحليل ما علق بها. أول أمس ولحق ركارب أوتوبيس كاسر أن يكشفوا مؤخراتهم.

بصعوبة شديدة انتصاع الرجال للأمر، لكن حين جاء دور النساء احتج الجميع الرجال والنساء معاً. لم يعد ممكناً الحوار معهم ارتفعت صيحات احتجاجهم، وثابت معاني الكلمات في المهجة الشامية الغاضبة. الركاب جميعاً سوريين، ويحجون لأول مرة عن طريق البحر لقد عانوا بعد أن السماء لن لا يأتوا للحج أبداً بعد ذلك. إن إجراءات الحبر الصمعي معروفة. لكن دائماً بقائها بهذا الحجاج. وسألته:

- ألا يتم ذلك في بلادهم؟

- حتى لو تم في بلادهم لا نأخذ به لا بد من الفحص هنا.

- ألا توجد طريقة أخرى للكشف عن الكوليرا غير التكتل بالملاحي؟

توجد طبعاً. تحليل البراز. لكن أين الوقت الكافي ليحضر كل هؤلاء للحجاج عينات من برازهم؟ ليس أمامنا إلا وصمهم في صفوف ثم ينحنون كاشفين مؤخراتهم. ويمر أخدم بالملاحي لكشطها.

- انها مسألة مريبة حقاً

قلت وضجكت وربما بسبب هذه الطرائف ذهبت معه اليوم.



في الطريق نُبّهني وجبه إز أن المستشفى صغير مجرد مبنى من دورين به أربعة التسمام صغيرة. الجراحة والبطنة والولادة والأطفال. ولا يزيد القسم على غرفتين بكل غرفة أربعة أسرة. قال إنهم يبنون الآن مستشفى ضخماً. لكن العمل لن ينتهي فيه قبل

ثلاث سنوات. وقال إن هناك مستشفى عسكرياً كبيراً بالقاعدة العسكرية اسمه «ويتنكو». مستشفى لم يكني لا يعمل فيه أحد من العرب. ولديه يصل راتب الممرضة الأجنبية أضعاف راتب الطبيب المصري في أي مستشفى آخر.

وصلنا إلى المستشفى، ولاحظت حركة لا تنقطع في الراحة الواسعة التي تشغل مساحة كبيرة من الدور الأرضي. رجال ونساء داخلون خارجون في صمت وسرعة. لم يكن الجو حاراً بدأ الصيف يفسح الطريق ببطءاً للشتاء. دخلنا في نوفمبر. انتهينا من ذي القعدة ولم يبق على الحج غير أيام ثلاثة.

صعدنا إلى الدور الثاني، وإلى حجرة ليست نظيفة كما ينبغي. أخذني وجهه. جلس هو خلف مكتب خشبي صغير قديم. وجلست أنا إلى جانب المكتب بالقولبة مقعد آخر دواليب زجاجي به بعض معدات طبية بيضاء منطلقة اللعاب. لاحظت أن هناك الجدران متساكط في أكثر من موضع، ورأيت خلف البارافان البلاستيك طُرف منضدة الكشف لونه ملامح حائل بياضها.

دخلت بمجرد جلوسنا ممرضة قدمها لي باسم عابدة. ابتسمت ابتسامة خائفة لم تُخف مظاهر الجدية على وجهها. بدت متحيرة لا أدري لماذا. في الحقيقة أعني انصاع عينها لتسوداوين واشتلاق بياضهما في غبطة ضوء الحجرة قلت لنفسي. هذا أول وجه نسائي أراه هنا وقالت هي لوجهي إن جميع الحالات على ما يرام. نسأل - والصباح -

- لم تصلنا ولمه جديدة الليلة يقرنون إن النهار كان مثيراً بالعمل.

- هذا من حسن حظنا. مع أنني كنت أريد للاستاذ اسماعيل أن يتلرج.

نظرت أني مبتسمة وقالت:

- وهذا سيرى أكثر مما هو في مصر. ألم تدخل مستشفى في مصر؟

سألتني، وأجبت على العود:

- دخلت مرة لإجراء عملية فتنق.

أأعرب لماذا أجبت بهذه السرعة. لقد رأيها تكتم مضجعتها وتساؤل وجيه:

- ما لك يا سسفر. هل قال الرجل شيئاً مضحكاً؟

- أبداً. لكن يبدو صغيراً على الفتنق.

وبدت مرتبكة جداً. وأحمر وجهها. وأطردت أنا خجلاً. وسمعتها تقول:

- أسفة أسفة جداً.

وانصرفت بسرعة. نظرت وجيه إلى، ومطُ شفثيه. وقال:

- الزاحدة في مصر لا قيمة لها. هنا أحياناً يتجاوز راتبها راتب الطبيب المتبدى.

قلت لنفسى: ما هو يعود ويتحدث عن أنظمة المادية للأشياء، ودخل من الباب رجل متوسط العمر، ووقف صامتاً، وخلفه شرطي صغير الحجم. وقف وجيه بسرعة ودار حول المكتب ليصالح الرجل بحفاوة.

أهلاً يا دكتور أهلاً بك.

أر وقدم له القعد الخالي. لكن الشرطي طال في غضب

- لا تجلس.. هيا انتب.

ولف وجيه سالمناً، وتاملت أنا الرجل الذي منعه الشرطي من الجلوس له لعمية طفيلة ٧ يعتني بها. وفي عينيه انكسار، وملابسه متسخة غير مهذمة. عاد وجيه إلى المكتب بسرعة، وأخرج من أحد أراجيه مطروفاً معلقاً قدامه له. أخذ الرجل بيد مرتعشة ولم يتكلم استدار ينصرف، ولم يتروى الشرطي في إمساكه من ذراعه والإسراع به. رأيتهما في الطرقة الطويلة الممتدة أمام الباب. الشرطي يسرع والرجل يسرع جواربه بكاد ينحتر. باز لي الرجل من بعيد أقصر مما رأيت داخل الغرفة. وجلس وجيه معزولاً. وضع رأسه بين كفيه. واطرق نظراً إلى المكتب ظهر بالسبب رجل آخر، أسود، يرتدي جلباباً وغترة قديمة وعطالاً مسرلاً، وقال:

- أرسلتني السميت عابدة يا دكتور..

قال وجيه دون أن يرفع رأسه:

- سؤاً لنا شايأ يا نعلان. معنا خفيف عزيز.

قلت لنفسي: هذا إن من الخافم أرسلت عابدة نتخفف من أثر ما حدث منها. ولم أتمس الرجل الأول الذي دخل مع الشرطي، المصري الذي يرتدي بدلة قديمة وخاطبه وجيه بالدكتور.. قلت:

- ما الحكاية بالضبط؟ من الذي دخل مع الشرطي؟

تنهد وجيه وقال:

- إنها قصة غريبة هذا طبيب مصري له هنا خمس سنوات منذ عام ارتكب خطأ فظيلاً حضر إليه شاب سعودي ومعه امرأة قال إنها زوجته، وطلب إليه أن يقوم بإجراء عملية إجهاض لها، ٧ تعرف

كتب أخيراً الدكتور الغريب اسمه هكذا «سيد علي الغريب» . كان عليه أن يحفظ الإيهام منوع أصلاً إلا لنوع طبية . إن أي طبيب يمكن أن يخالف ضميره ويخلق الأسباب الطبية للأجهاض لكن هذا لا يحدث . الدكتور سيد الغريب فطها . كتب تقريراً بضرورة الأجهاض . لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعرف . لا أظن أن الشاب المغمود في الخواء بالكلية . الدكتور سيد قديم هنا ولا بد أنه كسب كثيراً . كان يمكن للمسألة أن تسلك الفتناء ماتت أثناء العملية . والأشبع أن تشطب الخلق . ويظهر أنه ليس زوجها ولا يت لها بصلة . منذ هذا اليوم تم تحديد القامة الدكتور سيد الغريب . منع عنه زواجه حتى تفصل المحكمة في أمره المحكمة لم تفصل حتى الآن . صلبوا ما معه من نفود ويضعوه في بيت جعين جداً تصور البيت الوحيد الذي له حديقة بها نخيل وأشجار ليموز عام كامل مضي وهو على هذا المزيج . كل شهر يسمعون له بالخروج مرة مع الشريط ليأتي إلى المستشفى يأخذ ما يساعده به . إننا نجتمع له كل شهر بعض النفود . نشترك نحن الأطباء المصريين والممرضات في ذلك . أهله في مصر لا يرسلون له أي شيء منذ وقت الحادثة . ولولم يساعده سيموت من الجوع .

وسكنت لحظات ثم قام فجأة وهو يقول:

- لم أكن أحب لك أن ترى ذلك . هذا ما حدث على أي حال سأقوم بجولة سريعة وإذ جاء نعلان بالشاري فلا تنتظرنني .



لم يكن من السهل تسيان شخص مثل الدكتور سيد علي

العريب. لقد نظر الي نظرة حربية في الملاحظات التي انشغل فيها
وجبه بإخراج الظروف من المكتب كأنه كلز بيده أن لا أراء.

أنا في النهاية مصري مثله لم يكن يحب أن أرى مأساته. لا بد
أن يعرف أن مأساته شائعة بين الجميع، ولكن لا بد أن يأمل أن
لا تتسع الدائرة. وثالث نفسي إلى رؤيته مرة أخرى لا أعرف لماذا
والحسنت بطريق شديد، اكتشفت أن نعمل قد جاء ووضع كوني
الطباي على المكتب، وأنهما صابرا باردان لا يمكن شرب أي سحما،
وعاد وجهه إلى الغرفة وخلفه رجلان من أهل البلدة قال بجمود
دخوله.

- ما لك اكتابت هكذا؟ تلكر في الدكتور العريب؟ لقد شعونا
ونعوه.

لم أراء. والثقت هو إلى الرجلين اللذين كان أحدهما متوسط
العمر بينما كان الثاني مسداً، محني الظهر، مخاطب متوسط العمر:
- ما تشيبة؟

راعني أنساح جلبابيهما وتمزقهما في أكثر من موضع، لم يكن
على رأس متوسط العمر عترة ولا عقال، وكانت على رأس المسن فترة
قديمة جداً غفها فوق رأسه بلا عقال، وكان يرتدي سترة قديمة
سوداء فوق الجلباب.

قال متوسط العمر

- بشتكي من أعدة يا دكتور.

أنسار وجهه إلى منسدة اكتشف خلف الباراقان، فاختلر
الرجلان، وتبعهما وجهه الذي رحى أسمعه بقول «هنا الأذى».

وأسمع صوت الرجل السن واعناً غير واضح الكلمات. مجرد غمضة غير ملحوظة. وأسمع وحيه هنا يا رجال^٢، ويتردد الصوت الواهن كأنه وراء معذب. ثم ظهر وجهه. وجلس إلى المكتب. وظهر بعده متوسط العمر. قال وجهه:

- سأكتب له على حبوب تقوية وتشليه.

- أكتب له على إير. الله يرضى عليك. الإبر تدخل في القدم وتغذيه.

نظر إلى وجهه كأنه يشهدني على هذا التدخل الغريب في عمله وظهر السن سحنياً لا يكاد يلفق فأسنده متوسط العمر على ذراعه وقال وجهه

- المشيبة لا يتحمل الإبر.

- أكتبها - الله يرضى عليك يا مكتوب

وَيُ متوسط العمر. فسكت وجهه. وفتح درجاً من المكتب. وأخرج منه بعض عيوان خشبية تلولها له. وقال:

- لا إير ولا حبوب. خذ هذه.. يظليها ويشرب ماها في الصباح كل يوم.

اختطفها متوسط العمر وهو يقول: هذه أفضل لك يرضى عليك يا مصري. واستدار بالسن. وانصرفا على مهل. قلت

- يبدو أنه لا زالت للشب العربي سطرته.

سكت وجهه قليلاً وقال

- هذه حالات ميئوس منها.

تسألت:

- هل مصروح باستخدام الأعشاب هنا؟

أجاب

- هذه مجرد عيذان قديمة وجدتها في الطريق. هم يفتننهم
بطريقتي وأنا أوفر مال الفولة.



عاد نعمان لطلب إليه وحيه أن يعد لنا كوبين حديدين من
النشاي. وأنا رحت أنتظر إلى ساعتني، فوجدتها تزحف أو متصصة
للليل، وراودتني رغبة في الانصراف. اكتشفت اليوم في وحيه جانباً
لم أكن أحب أن أعرفه. ثم انني لم أر شيئاً حريفاً. رأيت سجيناً
مصرياً ودجلين من أهل البلدة أشد فقراً من لغواء بلادنا في هذه
البلاد الفاسد لا أهمهما. ولم يكن من السهل الانصراف. فوجهه
بتحدث ولا يكف عن الكلام.

قال إن ما يحترقه هنا ليس كثرة الحوادث. فهذا شيء وارد في كل
البلاد العربية حيث يفودون السيارات برعونة فائقة. لكن تحدثه
الحوادث التي لا تنقطع عند بلدة «قشنة» الواقعة على الطريق
المؤدي إلى المدينة المنورة.

في كل ليلة يعمل فيها بوجهياً للصباح. يتوقع حادثه أو أكثر عند
ظلمة، ويظل طويلاً الليل يرهف أذنيه ليرسم صوت سيارة الاسداف
وهي تادمة إلى المستشفى الليلة يرجو أن لا شيء من ظلمة أي
حادثة وجودي معه يقلل من حجم المثلث الذي يشمر به دائماً حين
بعضي الليل وحده هنا.. سألته.

- ألا يوجد مستشفى في ظلمة؟

أجاب

- إنها قرية صغيرة لا حظ اسمها الذي لا يد احداثه من انقلاب السيارات. بها مستوصف صغير يعمل بالبنهار ولا يتحمل حالات الحوادث - وانسم - لا شك انك تذكر الدكتور رانت الذي زارنا منذ اصليبع ليودعنا قبل عودته.

- اذكره بالطبع.

- حين جاء هنا لأول مرة تم توزيعه على مستوصف قلبية. هناك لا يوجد مخبز ولا محل يبيع الخبز. استمر رانت يعمل هناك سنة، وتعود كل اسبوع ان يأخذ ما يكفيه من خبز من هنا لا تعرف كيف نفد الخبز من ان يدري. كان الجو شتاء بارداً زمهريداً. وهو مسكين مصاب بسكر لا يستطيع ان يتحمل للجوع كان معه خمسون الف ريال. كل طرد الليل ينظر اليها ويتلوى. كان مستعداً ان يدفع الخمسين الف ريال ان يعطيه رشيماً واحداً. ومن سوء حظه انقضت سيارة الاسعاف عن الدواب ثلاثة ايام بعد ذلك. كان يأكل نفسه. لقد اكتشف انه يعض ذراعه بالفعل. وحين وصلت سيارة الاسعاف كان هو امر مشلول الهلاك ركنها وجاء الى هنا. وقف امام صاحب المخبز اللبناني يطلب ان يبيع له خبزاً بالكاف ريال. لقد هرع الرجل وقلبه مجنوناً لا احد يشتري ابدأ بهذا المبلغ. ولكن رانت وقف بصريح طلباً ان يبيع له الرجل بالكاف ريال خبزاً باع له الرجل كل الخبز الموجود عنده. ووضعه رانت في الاسعاف. لكنه في اليوم نفسه لم يعد إلى قلبية. صدر قرار بنقله إلى هنا. لقد دُفِعَ الخبز طيناً وهرنا نضحك

لكنني لم اضحك. ما زالت اشعر بالضيق والرغبة في الانصراف و دخلت عابدة الى الحجرة. فأحضرت براحة خفية. كان خلفها رجل

من أهل البلدة. قالت لوجهه وهي تبسم:

- عنده خراج.

كنا تجالوزنا منتصف الليل. وقال وجهه مستنكراً

- وهل هذا وقت مناسب؟

قلت بأسعة

- لقد جاء. نحمزه حتى الصباح؟

نكن وجهه خاطب الرجل الصامت:

- ومن الذي؟

مد له الرجل يده لليمنى خراج عبيد ركب على أصبعه
السببية قبل النظر مباشرة. نظر وجهه إلى الاستنكار لا يزال عن
وجهه وذلك للرجل

- ضح بك فوق «المصفا».

وضعها الرجل على المكتب. ورأيت وجه عابدة يمتقع رميلها
تكاد أن تفسران. تريد أن تتكلم ولا تستطيع. كئن وجهه بقرب
وجهه من يد الرجل. ويده تعبت في أحد ادراج المكتب نخرج شيئاً.
ورق وجهه فجأة، وأمسك بذراع الرجل من عند الترميح بيده
اليسرى. وبيده اليمنى التي كانت تعبت في الدرج طعن الرجل
بمشرط في الخراج مباشرة فصرخ الرجل، وانفجر الدم والصدود
فوق يده. وصرخ وجهه (الطن يا سسشر). وجرت عابدة إلى الدواب
تخضر قطعاً، وأنا ولقت كمن لدغه عتق. وتبادلت إلى العائط خُبل
إلى أن اندم والصدود سيندفعان إلى وجهي. ورأيت الرجل يفيض
الدم من وجهه، ويكاد يتهاوى، حتى أن عابدة قفقت بالقطن على
المكتب. ووضعت بسرعة مقعداً خلفه تهاوى. بالفعل فراقه غائباً عن

الومي. ووجهه الذي ترك المشريط راح بيده فبعنى يضغط على
الخراج بالظن ولا يترك وسيع للرجل الذي أحكم القبض عليه.
وعائدة تنظر إل وجهه باستنكار شديد. وطلب إليها شئشاً ودهاناً
للجرح. ثم راح يصمده. ترك يد الرجل فسطط من فوق الكرسي على
الأرض.

- شيلوه..

قال وهو يخرج من خلف المكتب ويفادر الحجرة كان نعلان قد
جاء وانحنى بحسن الرجل ويمضي. ورايت عابدة تمضي خلفه
والدموع في عينها

عاد وجهه وأنا بعدُ واقف لم أجلس. لقد خرج يمسك يديه. وهو
الآن يظهرهما بالسائلون ثم يجفنها بالظن.

- لماذا لا تجلس؟

لم أكن قادراً على الجلوس. تذكرت اللام العايات والمكتشفين
الببيض الذين يمشون. في أيديهم سيوف قصيرة. يقطعون بها
الاشجار الكثيفة التي تعوق الطريق وعادت عابدة. وولعت بالياب.
وقالت لوجه:

- كسده.

- هل جرى شي؟

- كان يمكن أن يدخل في صدمة.

- هذا عملي يا مستر..

- انت مطفي يا دكتور.

- مستر القزمي حدودل

كانت عيناها لا تزالان نديتين بالدمع، وبان على وجهها غضب شديد. وانصرفت. تقدمت انا اجلس من جديد مدعوشاً من خلال وجيه أمام عابدة. وخيم علينا الصمت للحظات ثم قال:

- لا يمكن ان اذبح الفراج بلبيع. يغلطون العمليات سوف يفيق ويشكرني ويترى.

ولم اكن مستعداً ان ارى اسعدني الحظ وسعدنا صوت سيارة الاسعاف القادمة من الخارج. ودخلت عابدة بعد لحظات قزعة تقول

- حادث فظيع. ستة جرحى انقلبت سيارتهم في قلبية.

وجرت من امامنا واسرع وجيه خلفها. قمت بهدوء ونزلت إلى الدور الاول وجدت حركة كبيرة من خدم المستشفى حول الاسعاف حملوا الجرحى. واسرع خلفهم وجيه وعابدة وعدد آخر من اطباء الشباب ومن الممرضات لم ارفع من قبل وفقت وهدى في زحمة المستشفى. انظر الى سائق الاسعاف الذي لم يمارس مكانه وتقدمت منه:

- انا صديق الدكتور وجيه كنت معه هنا واريد العودة إلى البيت.

اشتم لي، فرايت سناً ذهبية تلعب في مقدمة فمه قال

- اسعد.

صعدت إلى جواره، وادار محرك الاسعاف. شلح صفيح من أهل البلدة. نظيف الثياب. لم يتكلم الا في منتصف الطريق. قال:

- الدوران الذي تلعب عنده الحوادث في قلبية يستطيع اي سائق

أن يقطعه بسهولة، لماذا إذن تحدث الحوادث؟ يسخر هذا والله
العظيم .

لم ارد ولم يعد إلى الكلام أرشدته فقط الى بيتي



فلماذا أنا هنا؟

سؤال صعب يا واضحة. الصعب منه أن أرى وجهاً لوجه
وكأنني كنت أعرف. من يوم رايتك تحت الشمس ووسط الضوء
الابيض وتخلت نفسي أن أرى جسمك يختلج وأنا أعرف أنني
سأقابلك.. صغر كالذي يقلب السيارات في قلبية كما قال السائق
ذو السنة المنهبة. لكن هل أنا مُتبرك؟ لا أفهم أن أعداً منا ميسر
للآخر. لماذا إنن تفعلك الأقدار في طريقني؟ لأنها بلدة صغيرة لو
كانت القاهرة ما تغير شيء. أنت الثانية التي رأيت وجهها.. التي
كلمتها بالأمس فقط رأيت أول وجه نسائي. رأيت هادة. في يوم
رايتك ما الذي جعلني لأذهب لأعطيك الدرس، كنت نسيت موعدي،
ومضى على الأسبوع أسبوع آخر. ليتني ما أخذت طاقم القلام
الشيلبرز رأيت فتذكرت أنني نسيت. لم لكن نسيت سعيد لكرني
أكثر من مرة. إنك لا تعرفينه. أخوك يعرفه. وفي كل مرة قلت له أنني
أذكر الموعد. ويراني لا أذهب. وأقول سوف يفهم أنني لا أريد ويكف
عني. ولم يكف ولم أت. رأيت هدبة أخيك فاحسبطني بشعور
بالذنب وجفتك خائفاً

أعرف أنه لا أحد رأى جسمك يختلج فكري. أنا والشمس. لا بد

لأن الشمس راته هي التي كانت تعكس اشعتها على الكون ببراعة
للذين للعليب. سارنى جسدك الآن أمامي. هل يفتح أم يخلج
جسدي أنا هذه المرة؟



استقبلني خالد بفرح طسولي غامر. قادني إلى غرفة واسعة
مفروشة بلبسُط الحمراء الوثيمة. وعلى جدرانها حشائيا صفحة
خضراء. رأيت مكتباً في ركن بعيد وحوله متعددان. مكتباً صغيراً يبدو
نشزاً في غرفة عربية التسميم. فقلت لا بد أنه أجدُ للدوس على
عجل لم يسكنني خالد عن سبب تأخري عن الموعد الذي ضربت
له. خالد يبدو شخصاً شديداً الضيل حقاً. شغل الوقت بأن راح
يحديثني عن نفسه. قال إنه منخرج من كلية التجارة في جدة. وأنه
كان يتمتع لو التحق بالجامعة المصرية في القاهرة. وقال إن جده
لأمه مصري جاء هنا في الثلاثينات ليخرج ولم يعد. وأنه لا يزال
يعيش. وأن العائلة كلها تعب مصر والمصريين. وقال إنه رفض
استكمال دراسته في أمريكا. ذهب عاماً وفتح الدراسة وعلم. لم
يتخلص بعد من شعوره بأنه العربي الذي ما كان عليه هكذا لجهة
أن ينتقل من الخيمة إلى حوائط الاسمنت العالية. وضحك. كيف
تعيش في بلاد لا تسمح فيها حركات أجدادك؟ وبغضب. وقال إن
أفضل وقت هو الذي يمضيه في الخيمة المنصوبة في باحة البيت
الظلية التي يعيش فيها جَدَّاه. جده لأمه وجده لأبيه. جده لأبيه
حارب مع الملك عبد العزيز في العشرينات ولا يزال لا يتكلم إلا عن
ابن سعود وأفعاله الأسطورية. هذا إذا تحدث. وضحك خالد كثيراً
وهو يقول إن جده لأبيه لم يكف يوماً عن تلاوة القصة الغريبة التي

راجعت عن ابن سعيد . والتي قيل فيها انه جُرح في بطنه جرحاً كبيراً وشاع بين الجنود قرب وفاته فكانت قواته تندحر حتى فاجأ الجميع بدخوله على زجاجة جديدة . ولعل خالد إن جده كلن يهزل فرحاً وهو يصور جنون المشوه بعد ذلك بقائهم الفريد الذي لا يؤثر فيه سيف ولا رصاص بل بتزوج وبطنه مفتوح . لكن الجدد غاضب الآن لا يتكلم منذ زمن طويل . وسكت خالد لحظات طويلة ثم قال «أختي هي واضحة بنت سليمان بن سبيل» . قلت : «أعرف» . ببساطة تحدثت قال «اكتفوا بأن لا تذهب إلى المدرسة وتؤدي الامتحانات من الخارج» . وسكتنا طويلاً حتى قال . «أنت يا أستاذ اسماعيل مصري ولدينا من مصر دم يجري من عروقنا» .



دخلت واضحة يسبقها عطر غامض . صاحبتني بيد صغيرة ارتعشت في يدي . لمازنا قدم خالد كلاً منا للأخر . ما كنا نحتاج إلى تقديم . هكذا فكرت . أخال أنني كما رايتها في الحضره الأبيض الزائغ رأتني رغم أنني لم أر وجهها . ولا كان يمكن أن يرى بوضوح من خلف نقاب تقيل . ويخرج خالد يتركنا معاً وأنا في غلبه للوحشة . أنا وفنساء وحدنا في الغرفة الواسعة الرطبة في البيت الكبير الصامت وسط الصحراء المترامية في البلاد شامسة الأرجاء

ولم أعد مهياً للدرس . وأحسست أن واضحة أتت ذلك . لم أعد منتظم الذهن . وددت الانتهاء بسرعة . ووددت الفرار اكنفيت بمساعها تتحدث عن الصعوبات التي تقابلها في اللغة الانكليزية . وودعتها بتيسر كل شيء .

قلت فجأة :

- اكتشفي وجهك -

كانت لحظة أحسست فيها بضرورة أن أرى عينيها تستقبلان كلاسي . ما دمت لا أرى وجهها جيداً فلا يمكن أن أرى وجهي . فكيف إذن يعرف أحدهما الآخر وكيف يتذكّره؟ وكنت اعترض لولا أنها تعجّلت في تلبية الطلب

ثم صلح واستأن خدية وحيثما عسلتان ناعستان وأهداب طويلة وبشرة خمرية مفاجئة، وقوس الشعر الأسود فوق الجبين وتحت رباط الرأس الأخضر يدي، بشعر غزير خلف

- ما الذي يضايك في اللغة غير القواعد -

- القصة طويلة .

- لكنّها ممتعة

- ألعلها محي

- سنقرأها ونعيد ترتيب كل شيء . ونضحك كثيراً مما سيفعله الخادم بلسيلز توت وهو يظوف العالم مع سيده المفضل

وهزت فجأة أشم أنفاسها الزكية، وعطرها أنفاسها كثفت وانتشر، وطال الدرس أكثر من ساعتين، وكلما نظرت إليها أوضحت أهدابها، وكلما ناولتني الكتاب تلامست أناملها لارتعشت أصابعها . لا بد أنها لم تكن تلمست في طول الدرس . لقد أبعدت الكتاب جانباً . وسألتني

- مصر جميلة يا أستاذ -

- جداً

ونظرت إليها وطالت نظرتها إليّ

- اذن لماذا انت هنا؟



اربيكتني يا راضعة ولم اجد كلاماً الفوله. انا هنا لان هناك من
يسعدهم ذلك. قراء. انا هنا لان المصريين جميعاً هنا. قراء. لست
أنا آخرهم ولا جندك المصري اولهم. قراء. انا لم اكن احس الا
معطرك النعاس فلم اذا جعلتني انهي الدرس الذي ظل وكنت لا
أريد ان انهيته؟ رغم ذلك صرت ملهيقاً لفلانك فجئت في اليوم التالي
وجئتني بلا رباط رأس. شعرك الاسود الغزير منسدل على ظهورك
كبحر عميق بليل مليء بالامرار. معطر جميل. قلت ولم اكن اجدالك
فإذا بك قد سجد لي زجاجة عطر

- لي انا؟

- لخطيبتك في مصر

ولم استطع ان افول اني غير خاطب ولا متزوج كيف لم تدركي
ذلك وهدك ويداي املكك طول الوقت " انك صليحة تتعبدن معي لعبة
الطميلة والاسنان. تكن سؤلك ليس صغيراً. ولا شيء ينقذني الا ان
من شعرك الغزير المغربي بالنسجاة لكن هل استطيع؟

- هل مناني في العيد؟

- لا

قلت لاني تعودت ان تكون الاجازات في الاعياد ويا لخبيثي!

- هل ستخرج؟

- لا.

اذن ستمضي العيد وحدت

ولم استطع التراجع. وجاهدتني الحسرة. نسيت أنني رأيت في
يومين وجهين جميلين. وجه تفتت فيه العنان والدمع، ووجه رفيع
الخطاب.

٩

لم تولدني أمي اليوم على صوت الترابيل والتهليل والتكبير
وأصوات الأولاد في الشوارع ولا الخنايا الصباح المبهجة بالعيد.
ليس علي اليوم استقبال אחי المقزوجة وزوجها وولديها. ولا אחي
انطفة وبنتيها. ولن تطلب אחي المشاكسة الطفلة في الجامعة أن
يفسحوا لها مكاناً لتجلس جوارى. ولن يبدو علي אחي الطالب
بالجامعة أيضاً شيء من الملق ككبر حجمه ومد يده لي يأخذ ما
أعطيه له من نفود.

أي شخص مكاني الآن قد بيكي من بيت كبير واسع عليه أن
يتناول فيه إنظاره وحيداً في يوم عيد. لكنني رفعت صوت الترابيل إلى
آخره وابتسمت.

لم أذهب للصلاة منذ سنوات لا أجدي العيد. فمت مبكراً حقاً.
ولكنني شطت بأعداد الانظار. لهم مسلوب وشورية بالهيل وفئة ولا
أحد يجلس حالي.

شجار مطاخي لا تعرف كيف بدأ لقد عاد أبي في الحال من
الصلاة وأوشكت أمي أن تفرغ من أعداد المطود الساخن ولا
تعرف سبب الشجار.

ارتفعت الأصوات أيضاً في الشقق المجاورة، والتي فوقنا، والتي تحتنا، واختلعت أصوات الرجال بأصوات النساء بنحيب الأطفال بخوفنا، نكز أبي يتراجع: حطك مني يا أم اسمعيل كل سنة وانت طيبة. وسكت الجميع، حط على الدنيا صمت وارتفعت الضحكات في كل الشقق وفتحت الأبواب للفرح، فإذا كان يحدث ذلك حقاً، لا أعرف حتى الآن، لماذا انتهى؟ ربما لأن الأطفال في كل الشقق كبسوا مثلي، وربما لأن الآباء حاثوا مثلي أبي، والامهات مرضن مثل أمي كثيراً، أو مثلي يا الله! هل يمكن أن نموت أمي ولنا هذا؟ ودحت نكل بشهية عظيمة غير مبال بما يقفر إلى ذهني من ذكريات، أو أفكار طيبة.



خرجت إلى الشارع، لا حاجة بي للسيارة، سامشي وأرى هن البلاد خالية حقاً، لا أستطيع أن أعطي العيد وحدي في البيت. كل الأغنياء يسافرون في العيد إلى الشام وأوروبا كل الفقراء يسافرون إلى مصر، النساء والأطفال لا يتركون التلفزيون والفيديو الغريبة يمشون، الغرباء من غير المسلمين لا يلدرون بيوتهم يا الهي! هل يكون هذا حقيقياً؟ ومشي.

أرض مشربة بين بيوت منخفضة الطعما لأصل إلى الشارع العام، لا أرى غير بعض عنزات صغيرة تتقافز فوق السيارات المركونة أمام أبواب مغلقة لبيوت مغلقة النوافذ أيضاً، وامشي..

باب يفتح لجة. يخرج منه رجل وامرأة مغطاة بالسواد.
وأطفال يركبون سيارة غارفة وأسمع ضجة كلامهم، لا ألهم منها
شيئاً. وتتحرك السيارة على مهل وتختفي وأمشي ..

أدخل الشارع العام. لا سوق اليوم أبواب المحلات كلها
مهددة تذكرني بأبواب محلات شارع الكس بالأسكندرية بالليل.
أرض الشارع مغطاة بالأوراق المهتلة والكرازين الفلرغة تشغل
الرصيفين، وطب البازد، الفارغة في كل مكان، والجو صحو،
والفضاء يبيع، وأقرأ اللافتات هنا محل ساعات، وهنا عطور، وهنا
مكتبة، وهنا بقالة، وهنا جواهرجي، وهنا شرائط كاسيت وهنا أدوات
كهربية، وهنا بنك الراجحي الذي رأيت فيه منصور فاضلاً
وأمامه بنك الرياض ويخلفه سوق الخضار المطلق اليوم أيضاً
الشارع ليس طويلاً كما رأيت من قبل. وما أتذا أحمي عراميد
النور، فاحدها حوالي مائة متر ناحية واحدة. إنني هي ملتزم على
الناحيتين ولا داعي لإحصاء الجاسب الآخر. أكلد انتهى من
الشارع، وتقلبني خرابات ومساكن غير مبهمة، وبيوت مهددة
جدرانها، وبيوت بعار بنالهما. وأرى قطعاً ضخمة كأنها تعود أو
شبهاء تتجمع في الخرابات حول أشياء لا أراها. لا بد أنها بقلبا
طعام. الشمس تلو في السماء والفضاء يتسع. ما أجمل الفضاء
حين تكشف وجوده وأنت بين الرحام ما أنتهه حين لا يكون منك
إلا هو في بلد بعيد في يوم عيد! ما أنتعشي وفضائي هذا لا يقتون
القطر. لقد باركها النبي. هكذا يقولون لكن هيئات للكلاب أن
تنجو من أحد. يا الهي! ما هذا الكلب الأبيض السارح في الشارع
ضخماً مثل حمار شاردة إنه حتى لا يتلفت حوله. في حجم الكلب
الذي رأيت من قبل في الصحراء. هذا كلب آخر وربما هو الشارد

في الرمال لمرّ ليه أحد بأن اليوم تكون البلدة صحراء . إنه يلف وينظر إلى اداعبه بيدي من بعيد أشير إلى القطط حتى يهاجمها لكنه يلتفت ويبتعد على مهل وامشي حتى أصل الجامع مع آخر الشارع فأجده مفتوحاً رخائياً وأمامه محل المخللات منلق



هل أجوس في طرقات أم دومان؟ لا نافذة مفتوحة ولا أبواب . منازل وأطلة من قرميد أبيض ضخم وسيارات قليلة مبعثرة على أرض متربة لشوارع ضيقة والكوام العامة لا تطط حولها ولا كلاب ورائحة مكتومة في الفضاء والشمس تمشي معي . أين ذهب أهل المغنى والطرب والحظ ولا الفراح اليوم ولا زينات . هيك هيك هيك . ضحكة داعرة معتدة كسكين بارقة تعكس اشعة الشمس وضحكة رجل عريضة قوية بعدها حفيظة أم خيال؟ لا أدري . لكنني سمعت ودليت رجلاً يسرق جارياً عبر الشارع الذي لمشي فيه الهويينا ويختفي في زقاق ، ويمرّ بعده رجل آخر تكاد فقرته تنزلق من فوق رأسه . إذ يضع يده فوقها وأختفي بدوره ولا أحد يظهر بعد ذلك ولا قط يمضي جوارى ولا كلب غلطي . يا الله! تقدم أم اتراجع؟ لا خوف من الضلال فالمنطقة كلها تحتويها العين . وأجلدة كلها يحتويها النظر إذا سعدت فوق مقعد لقط . فلاشي .

ميدان واسع في مدينة مهمة . وكل البيوت حول الميدان تشتعل فيها حرائق وينطلق من نوافذها دخان وجندي يصور عن بعد القتل يتلفث حوله في فرع مصوباً بندقيته إل لا شيء أو أي شيء يمكن أن يظهر بغتة . يمضي الجندي بجر دخان الحرائق المشتعلة في للسيارات والعبابان التي فوقها جنث مستحية الهامات . ويدور حول

نفسه كالطليوز متوقفاً في كل لحظة عدواً. يرى امرأة مضطربة
الوجه أمام باب بيت تحترق نوافذه. الشمس تسقط عز وجهها
الأبيض الملعوف بشال أسود. فيسطع الوجه مبهراً حداًياً ويتحدد
الجسد المشقوق في الثوب الأسود أيضاً وتنزل الكاميرا إلى خدائها
الأسود وربطتي سلقها اللامعتين. وهي تعود بسرعة تتابع دقات
خدائها عبر الميدان ذي الجلاط الأسود المربع الكبير وتدخل في الزقاق
ضيق قدر

شرفات نوافذ البيوت في الزقاق أمامها تسيل معلق في حدس
مقطوعة الجسمي يتريد لحظة قبل أن بعدد متابعاً المرأة يدخل
الزقاق الضيق ليجراها تختفي في أحد الأبواب فيهرول أرى ربطتي
سلقها وحذاءها الأسود وهي تصعد السلم الخشبي يرفقاع
سريع، حتى إذا ما بلغت السطح رايت الجندي في جنر السلم يتطلع
إلى أعلى فيرى قدميها ويصعد مسرعاً. تلتطم السطح في سرعة بين
بط ودجاج ينفر فرحاً ويصرخ ويدخل من باب غرفة ويكون هو على
السطح واقفاً يرى الباب وهو ينفلق، فيتقدم بهبط ويدفع الباب
ويطافن وجهاً لوجه تشبه خائفة يتراجع ربهما عز لها وهو ينظر
اليها بعينين نهنتين، وجهه تحزنه لعنة مفرقة ويتقدم تاركاً البندقية
من يده تسقط عز الأرض. وتسطم هي في تراجعها بالسريز
التحلي ذي الأعمدة العالية خلفها والذاتوسية البيضاء الدانتيلا
حول الأعمدة من أعلى ويفترب منها تنقلب العيون في معنى
فلمس ويمد يده إلى عمقها وتتفرق عيناها بالدمع يربح الشعر
من جانب العمق فتسيل برأسها على يده بهدوء يمد يده الأخرى
يربح طوق جلبابها عن كتفها فيبرز معلقاً وريداً ويتسع طوق
صدرها وترتفع شفها في نداء مومن وتسجل آهائها ويصرخ

طائر فوق السطح وتمرق طائرة تلقي بقنبلة فوق المدينة فتندفع إلى
احضان الجندي المسكين المنعب. وفي جبهة القتال البعيدة تنطلق
الذائع متتابعة وأرى الجندي بعد ذلك فوق المبرير يدخل سيجارة
عارياً نصفه الأعلى ويغطي نصفه الأسفل علاءة ببغضاء وهي ثائرة
فوق صدره عطر ظهرها فوق الملاحة. وعلى كتفها الأيمن خال صغير
وتعبد بأناملها في شعر صدره. وما زالت أجويس بين المنازل
التصائمة لام درعان. بواقد موصدة وأبواب مغلقة ولا أحد يجري
لنمسي أي: سر في هذه المنطقة يكاد يبعث أهل المغنى والطرب في يوم
عيد؟ لا وجه أسود أر لبيبي بلوح لي فهل لطرق الأبواب "يا الهي"
إنني أسمع صوتاً يغني صوتاً كأنه أتيت قادم من كهف بعيد.
وانتقدم ويسر له ارتفاع الصوت وعطفه وتنضح نبرات الأمل في
ترجييعه إنه صوت أنثى اكلم أرى دمعها يصاحبه عزف عود بك

جعلت لعرفاء قيسية حكمة
وعرفاء نجد إنهما شقيقتي

فما تركنا لي زلفي بعراياها
ولا سقية إلا وقد سقياني

فلما شفيك الله والله مالنا
بما طمنت منك الضلوع يدان

وبعد صمت ولنا صرت أشف تحت التلذذة وعاد الصوت ممزوجاً
بنحيب يردد العناء. وباء صمت ثم علا النحيب وحده فوجدت
نفسي أمشي. ذهلت عن البيوت حولي حتى وجدت نفسي قد خرجت
إلى الشارع الذي يفصل أم درعان والعزيرية معاً عن السليمانية
بالمنطقة العربية للبلدة حيث أسكن. أسرعت بالعودة إلى البيت وأنا

اشعر ان شيئاً لا ادركه كان معي وسقط مني.



استلقيت على السرير وضغطت حتى اهتزت جسمي عند جئت
هنا نادراً ما جلست في حجرتي على مقعد . اكتشفت ذلك الآن .
صعب أن يكون بالحجرة سرير ونجس على مقعد . قمت واشعلت
التبغيزين . ماذا افعل ؟ صورة للحُجاج في «بني» . زحام هائل من
اللون الأبيض . بشر وخيام . ابتسمت من فكرة أنني قد أرى أحداً
ممن أعرفهم وسط الزحام لا بد أنه قد أُذِن للظهور لأن الصورة
للحجاج يصلون في الخلاه سيك لمدة ساعتين ونصف الغناء التي
تعب الاكروبينات فوق الحصان لها ساقان طويلتان كل فتيات
السجك لهن سيقان طويلة . ساعة مع الغناء الذي لم انتبه اليه .
فيلم «سبيكي» مثير ليجت لاتكستر وصوفيا لوردين وأنا غابندر عن
نظار انتظر فيه الوباء ضاح مني اسم الفيلم . بدأ ولا ادري .
انتمتون أعرفهم جيداً . فقط ظننت أنها غلردن اليزابيث تابلور .
كبرت أنا غلردن ولا يزال في وجهها شيء من نرجسته الجميل القديم .
احس الآن بالهواء الراسخ القديم في أزقة حينا «بالقواس»
بالاسكندرية وبرائحة سينمات الدرجة الثالثة حين كنا نجري بلا
مثل خلف «الكونتيسة الحافية» أينما نجرى و«رأي» «كامل الفار» وهو
يصرح بنا . الكونتيسة الحافية في سينما «كونكورديا» الكونتيسة
الحافية في سينما «كلوبانزا» . الكونتيسة الحافية في سينما «خير» .
في كل أحياء الاسكندرية البعيدة كان يتابع أنا جابندر ويسوقنا
أمامه نضحك . لماذا كنا نفعل ذلك حقاً ؟ أحد «الصل» كمال من بيننا
في وقت مبكر ولم يحدث أن شاهدت «الكونتيسة الحافية» بعد ذلك

ولا رأيت شعرتي أما غارندر المكشوفتين. ولا قواعها الذي يدعوك لن
تصوته إلا اليوم. لم يعد يدعوك لشيء... مضت عشرون سنة على تلك
الأيام .

ورجعت القلب على بطني ثم طهرني. انتهى العيلم واطلست
التيفيزيون وكان المساء اتقدى الآن في موعد العشاء ليس من
السهل أن تاكل لعداً مرتين في يوم واحد لكنه عيد ما بين الحجرة
والطبخ. في المسافة القصيرة لفردية المكشوفة أحسست بالبرد.
هذه بناتر شفاء فليس وعدت بصينية كبيرة عليها سلطانة شروبة
وطبق من اللحم وأخر من الفتة كل شيء ساخن وأربع الصينية
ليصل البحر الى وجهي حتى أدخل الغرفة انني جالس بحق.

وسط الاكل لمركت لن المسكون حولي اكثر مما ينبغي. مسكون
جانم كانه شخص آخرى وأعمى يجلس معك. أشعلت التيفيزيون
ولمت اطلق باب الحجرة الذي كان يضيء لي الظلام الكثير في
الضواوح ولان في حجرتي مصباح كهربائين أشعلت الثاني.
أريد غروباً باهراً انتهيت من الاكل. ورفعت صوت التيفيزيون
اكثر. ودخلت تحت الغطاء معدداً فوق السرير. ورجعت أتابع حلقة
جديدة من -الرجل الأخضر- رجل يعرف سر الرجل الأخضر ويعتزل
نفسه إلى رجل أخضر آخر. رجل أخضر شديد الإخضرار.
ويستخدم قوته في الشر فيكون على الرجل الأخضر الاول. الاصلي.
العالم المسكون الذي اصابته خطأ كمية من الإشعاع وهو يجري
تجارب. يكون عليه أن يهرم الرجل الشرير شديد الاخضرار ويألفها
من معركة رهبة بين نيتان يئنصر فيها الرجل الأخضر الاصلي
الخير على القاتم الشرير. لكن المصباحين بدت بهتان. وأحسست

بطعم تراب ناعم في فمي. ثار العج في الخارج إنز ووشلال الفجار
من تحت باب الحجرة ومن شيش النافذة. ماذا أفعل؟ ليس علي إلا
الانتظار لا أستطيع أن امتح ياباً ولا شمباً. لكن كيف يهتز
المصباحان حقاً؟ ورأيت زجاجة الكولونيا الموضوعة فوق
التليفزيون بارزة أمام عيني. هنا يشربون الكولونيا. ويلغون بالليل
سكاري تحت أعمدة النور. ثم أكن مستعداً للخروج مرة أخرى.
نقل الطعام على جسمي. وشدني النوم من سحقي.



انتهى اليوم الأول بنهاره وليله. كان لا بد أن ينتهي أعرف
ذلك. وخرجت في سحبي اليوم التالي أمشي أريد أن أرى البلدة وهي
تعود إلى الحياة شيئاً فشيئاً

وجدت محلاً لنقله قريباً من البيت فتحت أبوابه ولا أحد يشترى
ولا أحد يقف فيه للبيع صاحبه يسكن في بيت خلف المحل لا بد
أنه سيخرج من بيته بعد قليل. أرجأت شرائي للمسجائر حتى
عودتي. ومشيت حتى وصلت إلى المخبز اللبناني بأول العزيزية.
ونظرت إلى وجه صاحبه الأحمر. أرجأت شرائي للمخبز حتى عودتي
ومشيت. خدس باليدى بأنني لن أرى في البلدة أكثر مما رأيت لكنني
مشيت.. قلت لقد مع نفسي. أمس جئت في شوارع العزيزية وأم
ورعان. اليوم انحرف يسار الشارع العام في اتجاه الإمارة. لا فرق
هنا بين حي وهي في شيء إلا الاسم. البيوت متشابهة. العصية
بيضاء وصفراء لها بوابات حديدية. والفجرات منها لا ترتفع عن
ثلاثة أقدام. نكن ماذا يمنع أن أمشي في مكان لم أمشي فيه. يا
إلهي! هذه الطريق تصل إلى بيت واضحة القريب من الإمارة. لا

يمكن ان اتصد ذلك. لامرٍ كيفما اتفق. لاخلاق انفسى شيئاً الفكر
 ليه واشهد من الطريق. لماذا اخذتني قدامى لواضحة اطرق الباب
 والسأل عن خاله القابله لأقول نه: مسيرك العيد. كما يقولون هنا.
 ولا بد ان واخضعة ستاني لتقول لي ذلك ايضاً. إذا لم تأخذني
 لدماي إلى واخضعة اعره. فكزت لي شيء المشغل فيه نعمي فلم أحد.
 ربعا لانني فكزت لي ذلك. لكن الحليلة ذهلقني. فانا اشعر براسي
 خارباً يصرفني الهواء كأننا نزعوا من تحت عظام الجسمنة كل
 شيء. ورحمت أريد بصوت خفيض. جعلت لعرف اليمامة حكمة..
 وسمعت صوت اثراء يأتي واهناً من بعيد يخالطه التشجيع.
 - لماذا تكلف؟ فيم ننظر؟

سألني الشرطي الواقف أمام الباب ارتبكْتُ انني اتقد بحق
 انطلع إلى البيت. بيت صغير له حديقة نخيل وشجر ليمون. وعلى
 باب يلف جندي صغير السن يعمل بدقية. وفي شرفة صغيرة
 بالقدور الأرضي يجلس الدكتور سيد الغريب بلعبته الطويلة
 الموهشة ينظر إلى بتركيز شديد. كلانا ينظر إلى الآخر منذ لحظات
 إلى.
 - آسف لا اتصد شيئاً.

قلت للجندي ومشييت وجدت نفسي لمرح الخطى عائداً إلى
 البيت لم اشقر خبزاً ولا سجانر لي عروني. لدى ما يكفي على أي
 حال.



في الغرفة وجدت التلفزيون مشغلاً. أنا الذي اشعلته. ولما لم

أجد الإرسال قد بدأ ثروته عيش، وخرجت. ها هو بيت برنامها عن
 مبلريات قتل ماشش، غريب صوت هذا المذيع الذي يتلح المبلريات
 الألمانية بلغة عربية فصحة. هذا غي، لم اتعوده من قبل. وكان علي
 أن أكرر مما أكلت منه أمس لم أتناول الفصاري حتى الآن لماذا
 خرجت اليوم حقاً فقط لكي أرى البيت الموقوف فيه سيد الغريب
 كي اصضم به في طريقي وأرى نظرتي الي وكأنها لغوي. كلفني
 يتكلم ويذكر في أن. لماذا حقاً يفعلون به ذلك؟ لماذا لا يحاكمونه
 وينهون المسألة؟ لا يمكن أن تتأخر اجراءات المحكمة كل هذا
 الوقت. هنا في المحكمة قاضي شيع لا يحتاج إلا أن شهر. لا
 محامي ولا نيابة ولا مرافعة ولا عريضة اتهام. لا بد أن مسألة
 الغريب طواها النسيان. لو أن أحداً ما. أي أحد. قول لفت انتباه
 الإمارة لانتهد مسألة الغريب على أي نحو لكن لا يفعل ذلك أحد
 حتى الآن هل أظن أنا؟ وانشغلت بأعداد الطعام. أكلت ونمت
 وصحوت لسمع صوت طواقم بالباب. سأفتح لأجد امرأة تطلب
 شربة ماء وتتهافت سافطة فاستندها فوق ذراعي وأجعلها الم غرائني
 فلا تلتقي من فضيحتها إلا بالليل وبالقيل لن تخرج وفي الصباح تكون
 قد ألفت البقاء معي. وجب هواء لرمش الباب الحديدي بالخارج
 وأخذت ادعك عيني وأنتبه إلى الطرقات على الباب لفتت وطارت
 الحجرة. ثم اندفع. ابشمت ومشييت على سهل لا يمكن أن تطرق
 الباب امرأة. وأمام الباب توقفت قليلاً. لماذا لو كان الطابق امرأة
 بحق؟ لن أسمح لها بالدخول. فتحت الباب لرايته. رجل عجوز
 عمنق الثياب وعل رأسه غترة قديمة يعقل حلك سواده ويمد لي
 يده. يا إلهي! شعاع هنا؟ في المملكة العربية السعودية. ويدق
 الأبواب أيضاً ببصرار! «يسهل لك. قلت لم يتحول. أنه حالي

القديم أيضاً. لم يتكلم فسلم بما لا يفهمه. لعبته الطويلة هي التي تحركت مساعده هابطة. وظل ماداً يده. عدت إثر الحجرة مسرعاً واحضرت عشرة ريلات ثلوثه ثيابها فأخذها ومشي في الردهة ثوقت. ضلام واسع حولي لكن القمر يلمتوب غوطي من الاكتمال ويكفي على الدنيا بقليل من البهاء. سخطنا في الليل ولا ادري والتلفزيون يذيع آذان المغرب. لم أتناول غدائي ولست سجاتي وجبة واحدة تكفي اليوم. وبحث لنصت للدعاء لشجي بعد الاذان.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات في هذا الطريق جائياً أو ذاهباً، فقيه الله تعالى يوم القيامة ولم يحاسبه وأدخله الجنة. وقال: من حج هذا البيت أو اعتمر فلم يرفث ولم يفسق كان كما ولدته أمه. وقال: من حج وعليه دين نفي الله دينه. وقال سعيد ابن المسيب: كنت جالساً عند القبر والمنبر فسمعت قائلاً ولم أر شخصاً. اللهم إني أسألك عملاً باراً، ورزقاً داراً، وميشاً قاراً، اللهم لا تجعل بيننا وبينك بعداً سوانه. اللهم إز كان رزقي في السماء فانزله. وإن كان في الأرض فيسره. وإن كان قليلاً فكثره. وإن كان يسيراً فكثره. أعوذ بالله من القنوع والخسوع والخنوع. اللهم اجعلني لغفر خلقك البند. وأعناهم بك. اللهم اجعل لي رزقاً واسعاً، واجعلني به فاعداً.



اختلف دعاء الشيلة من كل دعاء ليس لوهدني ولا لأنني لم أحج. ذكروني يا بني. كان كثير الدعاء بعد الصلاة سبع سموات مضت على موت الآل. ولولا قطعة أرض صغيرة كان يحتفظ بها. ما اكملت

العاصمين الآخرين لي في الجامعة. ترك ما يكفي إلى اليوم الذي اتبع
ليه رسالته هو.. كانه قدر رسم لي كل شيء.. كيف لم أحفظ بصورة
واحدة لأبي. وكيف لمي نسيت وجهه.

فمت لجدة ونفالت من الدولاب كراسة استخدمها لي كتابة
الرسائل وكتبت:

السيد / ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية بالقورديان
بالاسكندرية.

أشرفاً بعد التحية:

أنا اسماعيل خضر محيي مدرس اللغة الانكليزية في مدرستكم
الغراء.. سافرت الى السعودية بجواز سفر تم استنطاجه على أساس
بطاقة شخصية مزورة لم اثبت فيها وتلفني كمدرس حتى لا
تضعني الوزارة عليكم أن تحتسبوا أيام انقطاعي اجازة بدون
مرتب حتى اعود بعد عام .

وسزلت الورقة. وكتبت:

السيد / ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية

رجاء حفظ مكثني في العمل بمأهود بأسرع ما يمكن.

وسزلت الورقة وكتبت:

السيد / ناظر المدرسة.

إن أهود ولن أبقي هنا. سأنظهر

وسزلت الورقة أيضاً. وفقرت من فوق المربع وسط الغرفة.

واحد. اثنين ثلاثة اربعة واحد الضراعات للكتفين.. اثنين.

الضراعات جانباً أربع ثلاثة. اسطر خضض واحد اثنين. ثلاثة. هذا

فقد باب اللعين بات معي في الغرفة رغم البرد وانكشف فوق سلك
 الصباحين. هل الطلوع؟ سيستمر ولا يخرج. هذه الروزنامة
 انعطلة بالحائط لا بد من تمزيقها. نوفمبر. بعد شهرين يبدأ عام
 جديد. وبعد اثني عشر شهراً ينتهي. لن أضع روزنامة في الغرفة
 في العام القادم.. هذه وضعها فاروق. لقد جهّز في الغرفة تجهيزاً
 كاملاً. أين فاروق الآن؟ لم يعد ولم يرسل رسالة فلا نلقى التليفزيون
 وافتح الراديو. إذاعة صوت مصر العربية تميمكم من بغداد. بعد
 أيام ثل الذكرى المشؤمة للزيارة الخيانية للرئيس المصري انور
 السادات إلى القدس اليوم بدأت دورة الخليج لكرة القدم بالوقوف
 دقيقة حداداً لقرب هذه الواقعة الخيالية. ما هذا الرئيس المصري
 بالافكار العربية. واحد اثنان ثلاثة والف في الهواء. وتحت بلب
 الغرفة فلنسكب مستطيل الضوء المنبعث منها على الرقعة وامتد
 طويلاً على الأرض ورايت البدر في السماء يوشك على الاكتمال لقد
 رايت منذ قليل حين دق الشعاع الباب. لم يتحرك من مكانه كثيراً.
 التفت لا يمر من الآن لن يمر بسرعة. لن أصل إلى اليوم الرابع
 لتعيد إلا هاتكاً. أهلاً بك أيها البدر أيها الملك. هاتنا قلب في البرد
 أحبك. وحدي في هذا البيت الفارغ في هذا الحي الساكن في هذه
 البلدة النائمة في وسط الصحراء. هلاً نزلت وجلست معي قليلاً أيها
 الملك العظيم؟ لا امرأة تكلمني وتكلمها والقول إن وجهها كالقمر أو
 أنني رايتك على وجهها هل تعرف من قال بانه ملك؟ امن المعتز.
 قشاعر الخليفة. كان رديء الاستعارة والتشبيه. ما زالت ادركي.
 ربما قتله خضوب بعد أن خضوب. يا لهي! إنه لعروة بن هزام
 صاحب الأبيات التي سمعتها صباح أمس من المرأة الباكية. ذلك
 الذي شق شقعة مات فيها. والذي لم يدركه ابن الخطاب فلم

يجمع بينه وبين غراء . ليها البدر الملك أين ستنام في الصباح
 وتشي؟ تريد أيضاً أن تنام. ودخلت الحجرة وأغلقت الباب لتتسر
 اليها. واحد. اثنين. ثلاثة. ما هذا الصوت العذير من المطبخ؟
 خروشة متتابعة وانقطاع قليل. إنه علي قار يمرح قار ادرك أن
 سعيد الذي تخصص في صيده في مكة الآن. بالضغط كما أدرك
 النكب الأبيض الضخم خلو الجلبة فنزلها ورايته أمس. يا للغار
 لتذكي! ويا لسعيد ومصيدته الجبارة! لا يستخدم مصيدة مكدوفة.
 ابتدع طريقة وحشية مفرزة. الفئران دائماً تذهب إلى المطبخ. وضع
 لحيماً من الخشب تحت حوض المطبخ بحيث يصنع مع الجدار
 زاوية حادة عند الركن. يطارد سعيد القار حتى يدخله في الزاوية
 الحادة ويصطد بقدمه على اللوح الخشبي لينفجر القار بين اللوح
 والجدار ويحمله سعيد في ورقة يلقي به إلى الشارع من أعلى
 الباب. كل يوم يقتل قاراً. منذ أسبوعين توالف. اختفت الفئران وقال
 إنها أحست بقدم الشتاء فلم تعد تخرج من جعبورها. هذا القار
 كان يتكأ في مكان ما فلم يذهب إلى جعبوره سائركه حتى يدخل
 ويحده ولا تطلق الراديو وأشغل التليفزيون الآن. طرقت خفيفة فوق
 الباب الحديدية للبيت. انني اسمعها جيداً. لا يمكن أن يكون
 شعباً آخر. لقد أدركت أصالة العضاء وما هو المذبح بقول حديثاً. من
 يأتي في هذا الوقت؟ من يعرفني هنا لم يحج؟

— منصور —

فتحت بعد أن فتحت الباب. كان يتشم وأنا لا أستطيع أن أبعد
 عيني عن خصيتي الفرد الزوالوين فوق كتفه.

١٠

اعتزلت وجره الباكستاني، وهانوا أكثر حركة ومرحاً بعد
عودتهم من الحج. سألت لرشد الذي دخل مكتبي ووقف لا يتكلم
- هل كان الجو حاراً إلى هذا الحد؟

- كان برداً مستر اسماعيل. نعمنا في العراق وسافرتنا في عربة
مكتشوفة.

وعاد إلى ذمونه. كانت الساعة حوالي الساعة والنصف. قال لي
صديق

- ما هي حكاية مستر عابد معنا مستر اسماعيل؟

- هل حدث شيء جديد؟

- امس مساء بعد عودتنا تحدثنا في ميزانية الكلام هذا
الاسبوع. لقد عاد من الحج أكثر بطلاً.

- معذرة لرشد. أنت تعرف أمي ؟ استطيع التدخل بينكما .

- أعرف مستر اسماعيل لكن ؟ بد أن يساعدنا أحد. هل
أتحدث مع مستر عبد الله؟

- لا .

نظر إلى طويلاً ثم انصرف دون تعليق. لقد ابتكرت فجأة أن

عابداً لا يفعل إلا ما يُرضي عم عبد الله. لكنني بعد انصراف ارشد فكرت هل جاء حقاً ليقول ذلك؟ لا بد أنه كان يريد الحديث معي في شيء آخر عاد ارشد إذن إلى تروءه معي في الكلام.



حين دخل نزيل جعل القهورة كان يتنسم ابتسامة كبيرة وضع
الغنجان لعماسي. وقال
- لم ترك في العيد
- كيف تروني وأنت في الحج؟
- أنا لم أخرج.
انسمعت عيناوي وابتسمت. لا بد أنه يعزج. قل:

- عدت من منتصف الطريق. من قلتي الطريق حقيقي. من
الإنبياء التي ضلقتني في العيد أنني لا أعرف بيتك. لو كنت أعرفه
كنت ترك وأصبحت الوقت معك من الوقت كثيراً عليّ وحدي هذا.
زالت إلى الجك أكثر من مرة. ورجعت أمشي في شوارعها علّني
أصطدم بك في طريقي. فأنسي الخط لم أجد إلا كلباً شارباً.
- قل صحيح أنك لم تخرج.

ضحك والنسم أنه لم يخرج فعلاً لم عذول أن يكتم ضحكاته
قال:

- شُف يا سيدي. وصلنا آل حبيار عي. أنا وعابدي. بيار علي قرب
كة. ومنها يبدأ الإحرام إنها ليست مدينة ولا قرية. ثلثة على
طريق بها ماء وجلس صغير هناك التقينا بجماعة من المصريين
انوا مستقلون أوتوبيساً كبيراً. كان علينا جميعاً أن نبيت الليلة

هناك. وكان بينهم شاب مجنون لا تعرف. عاقل لا تعرف. مصوبة
والسلام. كان هو الإمام الذي يصني بهم ويطلب فيهم ويحدثهم
عن الناسك طبعاً انضمت أنا وعابدة اليهم نستمع إلى صاحبنا
الذي راح يحدثنا عن الواجبات بعد الاحرام لا نقطع شجرة ولا
زرعاً ولا تحلق ذنك ولا تلص اغاروك. وطبعاً لا نسق ولا رفث ولا
قتل لأي حيوان ولو قطة. حتى لو خرج عليك لبد لا تقتله إلا إذا
هاجمك. هكذا قال طبعاً معه الحق لأنه لو خرج عليّ اسد لزم قتله.
سيفتلني. وضحكنا بشدة وعاد نبيل يتحدث - بالليل رأيت ذنباً -
ذنباً حقيقياً يلف قريباً منا. كانت النساء تائمات في الأوتوبيس
والرجال تائمون على الأرض. أنا وهدى كنت سهران. ليتني كنت
نائماً. خفت واستظرت أن ينصرف الذنب فلم ينصرف

- طبعاً هاجمت الذنب؟

قاطعته ساخراً وضاحكاً. سكنت قليلاً وقال

- انت لم تصل لكن عابداً يمكن أن يؤكد كلامي. نبوك كلها
تعرف القصة. كيف لم تصل اليك؟
سكنت. الحقيقة لم يتحدث أحد أمامي بشيء كهذا تحدث
سعيد وهدى عن أشياء كثيرة لطيفة وشائقة حدثت في الرحلة إلا
حكاية الذنب هذه واستظرت نبيل

- أمسكت بحجر وفعلت به الذنب أنا في زراعي «جَزْأُ الصَّاء».
كنت في سمر الذنب الحجر من «الكبت كانت» بعبر القيل ويصل
للزمالك. ما علينا أصداب الحجر رأس الذنب لغري وجري. لو لم
يعبر لما تنبه أحد. استيقظ الرجال واستيقظت بعض النساء
واستيقظ صاحبنا وسألني هل سمعت صوت الذنب فحكيت له

اللعنة. غبي! أنا لآتي ففعلت ذلك. تقدم صاحبنا إلى قطعة الحجر التي أثرت له على مكانها فوجد فيها آثار دم فقال لي إن إحرامي فسد وعلى أن أحرم من جديد. كيف؟ تلك الأحرام يتنوي وتحرم من جديد. هل هناك أعجب من ذلك؟ أنا مُحَرَّم وعلى أن تلك الأحرام من جديد. قل لي إنها مسألة سهلة. كل الناس قالوا ذلك أيضاً وأنا وجدتني غير معقولة في الصباح للباكر أخذوا طريقهم إلى مكة، وأنا وجدت تريقلاً قادمة من جدة تحمل سيارات إلى شوك فركبتها. هل تصدق أنني وأنا أضاع قدمي فيها أحسست بخطئي وكنت أعوذ وأنفد ما قيل لي. لكنني قلت إن هذه التريقلا جاءت في الوقت الذي أراد الله لي. ربما أراد الله أن ينجي من شيء خطير أكثر سيحدث لي في الحج. من بدري؟

أطقت النظر إلى عينيه. لم يكف طوال الكلام عن الانسجام. قال - أنا أعرف أنك لن تصدقني أبداً تماماً كما لم يصدقني صاحبنا حين قلت له إن الذئب كان سيهاجمني. قل كان علي أن أنتشر حتر بفعل ذلك. قبل ذلك ربما كان يمضي مائماً لا يشعر بوجودي كأنه كان من الممكن أن القوم الذئب إذا انتظرت رهاجمني.

قلت

- إذن أنت لم نحج لأمد؟

وقف وقال.

- هي نَزَدَ لا تستحق.

وانصرف وتركني أضحك بقوة لم ينهها غير دخول سيارة عم

عبد الله سرقة في الباحة تنير ربيعة من الثراب.



دخل عابد الى غرفتي مضطرباً وقلق

- خذ ملف آرون بونكوند وانعصب به الى عم عبد الله

وجلس خلف المكتب المجاور للخزنة. كنت انا وبنات ملف
آرون من الدواب.

سأقته

- ما الحكاية؟

- عم عبد الله سيخبرك ..

دخلت غرفة عم عبد الله، فوجدته قد استلقى على الحائط
الطويل وقد خلع الحذاء والفتحة وبدأ يلقبه النعاس. لا بد انه لم
يتم القيلة انفسية. روایت صلحته لا اذن مرة. لم يكن في راسه الا
قليل من الشعر فوق اذنيه. نظر الى سون أن يلعب من وضعه وقال
- سون ترمينشون لأرون. فبدأ يلكر يكون في تيلاند

ارتبكك لماذا هذا الفصل المفاجيء لأرون؟

- لماذا لا تتحرك؟ أنه الاجراءات ثم اعطى الملف هندي.

ضاع الكلام مني، واستطرد هو:

- اعرف ان آرون مدين للشركة بثلاثة اشهر من راتبه. واعرف
انك وافقت له على القرض. رُخ من اصامي ..

كانت هذه اول مرة يتحدث فيها بغضب إليّ انا العليقة لم
ارافق لأرون على شيء. لقد توسلت فقط عند عابد. جعلها عابد إنني
وكذب. هذا اول اللعب القبيح لكن هل أستطيع ان أقول لعم عبد

الله شيئاً. إنه مدير جاد غير مستعد للتضيق وقته في معرفة الحقائق. وإن أول ما يسمعه هو الحقيقة دائماً..



دخلت لغرفتي. نظر إلي عابد مبتسماً بوجه جامد. بدأ مستعداً للرد على أي كلام القوله فلم تنكلم. خرج إلى لغرفته وجلست أنني أجراءت فصل أرون. كانت هناك استمارة يجب أن أملأها حتى إذا جاء ولغتها. وكان علي الاتصال بالجوازات لإرسال الملف. الذي سيأخذ الحواز ويضع عليه تاشيرة الخروج بلا عودة. والذي سيمهز تذكرة السفر.

جلست لفعل تلك مهجأة رأيت منصور يدخل بسيارته الكلبريس الظارفة وجواره أرون



- سويت له ترمينيشن؟ -

سألني منصور وهو يدخل إلى الغرفة وخلعه أرون. كنت أضحك من قوله ترمينيشن. عم عبد الله يعرف الانكليزية جيداً من عمله السابق في الدمام. كيف إذن يعرفها منصور؟ ربما لأنها مصطلحات تتكرر كثيراً أبله قلت وأنا مذهول من عدم وجود القرد معه.

- أمويه الآن -

كان هو قد جلس إلى المكتب التجاري للخازنة. وجلس أرون على أحد المقاعد الجلدية. فصرخ فيه منصور:

- لا تجلس-

قالها بالعربية ولهمها آرون ربما من الشارة يد منصور، فتجهز
وجهه ثم وقف ينضم لي في ارتباك شديد، وسألني منصور
- لماذا تأخرت؟

حملت فيه اللحظات ولم أزد-

- هيا، بسرعة..

هاتف وقام تركاً المكتب وخرج، فلم يعطني فرصة للانفجار فيه.
أشرت لأرون أن يجلس وسألته:

- ماذا حدث؟

- ضابطوا عذري خيراً.

هذه ثاني مرة يتحدث عنها عن الخمر

- هل كنت تصنع الخمر سبق؟

أجل مستر اسماعيل، مستر عبد الله يعرف، إنني أعطيه منها.
ارتبكت للحظة، واستمر هو يتحدث

- كان كل شيء يمني يهدوء، لي أجارة العميد كنت تقريباً وحدي
في الكلب، كنت بتعطيهم كمية كبيرة، كان مستر عبد الله في غملاًن،
لقد حضر أمس لفتح، لول أمس عاد الباكستانيون إنهم جميعاً
يعربلون ولكن واحداً منهم قال أن لا العمل ذلك مرة أخرى، قال إنه
بعد الحج أن يسمح بوجود خمر في الكلب، لم اهتم، أبلغ الشرطة،
إنه غيبي.

- للأسف يا آرون لن تعود للمملكة مرة أخرى

- اعرف مستر اسماعيل، سأذهب إلى إيران، لقد عملت هناك
عدة سنوات.

- لكن في إيران مظاهرات ضخمة الآن. انفجارات والنساء يضرب
الناس بالطائرات.

ابتسم وقال:

- أحرف مستر اسماعيل

لا جدوى من الكلام. سوف يُرحّل أرون والنساء كما سيفعلاني
قدمت له نموذج انتهاء الخدمة ليوقع عليه وقت

- سأرسل لك الجواز والتذكرة في الكتيب. سأحجز لك بعد يومين
التدبير نفسك.

- أشكرك مستر اسماعيل. هل هناك مشكلة بخصوص القرض؟
- لا.

- أشكرك مستر اسماعيل. إنني لن أنساك أبداً. أنت مصري
طيب.

ابتسمت وقالت

- المهم لن نقفري بيتاً في بلغكوك

قلت وقال

- سأشتريه مستر اسماعيل. سأشتريه. لا بد

ورفعت أصابعه فشد على يدي بيديه وفزع سريعاً بهرول بدا
لي من حضرة كعجر بندهرج.



- سأعود معك اليوم.

فاجاني منصور الذي عاد إثر مكثني بعد انصراف أرون.

- رأيته تدخل بسيارتك الكابريس.

— تَعَطَّلْتُ.

تألمتة بعدة بعد أن جلس إلى المكتب المجاور للشارقة وقالت:

— اسمع يا منصور، لقد طلبت مني شيئاً ووعدت أن أجيبك في الوقت المناسب فلا تطاردني
سكت قليلاً وقال:

أخشى أن تطأني أنه أمر بسيط جداً لا يحتاج كل هذا الانتظار.



حين حضر منصور إلى بيته ثاني أيام العيد فاجلاني بأنه يريد أن يعرف مني سبب زواج سعيد من خطيبته ودار. أرمضني أنه يعرف سعيداً وخطيبته. وكنت أنظر إليه وهو يجلس مؤدباً خجولاً في الغرفة ولري الكحل في عينيه. عرفت بعد ذلك أن الرجال هنا غالباً يتكفلون في الأعياد سنة عن الرسول. كان شكله غريباً جداً وكانت هذه أول مرة لري رجلاً يتكفل. وقال وأنا لا أستطيع إعادته عيني عن عينيه

— حتى لا ترتبك أخي اسماعيل أقول لك إنني أعرف وداه من ثلاثة أعوام. أنها مَدْرَسَة في المدرسة المتوسطة وأخشي ضميعة عندها. كانت تأتي إلى المحل ومعهما أمها لتشتري القماش إننا ملك محلاً كبيراً في الشارع العام. لقد فكرت أن أتزوجها وذهبت واني وأمي كما يفعلون في مصر أن يبنها وخطيبها لكن أمها رفضت. قالت إنها مخطوبة. ولم تكن مخطوبة أخي اسماعيل. رفضت أمها بشدة ورفضت المائة ألف ريال مهراً ورفضتني أخي

اسماعيل وأنا اعرف ان السعويين ينزلون مصر في كل وقت
يتزوجون لقد خُطبت لسعيد بعد ذلك وهدمتني صدمة كبيرة..

كان وهو يتكلم. يبدو معزوباً بحق. ولم اعرف كيف اهنئ عليه.
أعدت له شايًا ثلاث موات وفي كل مرة يطعمه وبدأ انه ان يترك
البيت. كل ذلك والفرد فوق كتفه ينظر إليّ. قلت:

- ربما كانت علاقتها بسعيد قديمة

- لا.

- كيف تعرف؟

- أنا اعرف

- إذن...

ولم يدعني اكمل قال

- لقد نُصِلت علي المصري السعويون اخي اسماعيل
يتزوجون من مصر كل يوم بسهولة.

ضايقتني هذه اثرة كيف اشرح له؟ لا زيجة مما يحدث خطيبة.
المسألة لا تزيد على غرام سعوي بللهم المصري. أو فقر بعد
المصريين الذين لا يغالون في المهر. كما هو الحال في المملكة
- وما دخلي أنا في هذه المشكلة؟

- أنت تعيش مع سعيد. أريد أن اعرف منك موعد زواجهما

تذكرت نظرتي الفاضلة إليّ يوم رأنا في البنك، ومعاملته الفخشة
غالباً معي ماذا يفيد. أن يعرف موعد زواجهما حقاً. وأودني شيء
من الخوف شخص مثل منصور ينفوس شديد التعبد. قلت
- أنا رغم عيشي مع سعيد لا اتحدث معه في أي شأن خاص

- تكلم واعرف -

قال بمسهم ووقف ينصريف - لم اتم تلك الليلة الا عند الصباح -
ساعدني ذلك حقاً ان انام نهار اليوم الثالث للعيد ان القز يوماً من
ايام الصمت - الا اني حين جاء سعيد في اليوم الرابع - لم استطيع
ان امنع نفسي عن التطلع إلى وجهه بين حين وآخر - وخشيت ان
يفطن سعيد إلى تطلعي إليه - وبسقتني عن هذه العلة المتعجبة - الا
ان سعيداً لم يفطن لشيء - ولنا استطعت بعد يومين ان اكف عن
ذلك - الا ان ياتي منصور طالباً احدة سريعة على سؤاله - إذن لا بد
ان اكذب قلت

- لو قلت لك متى يكون زواجهما هل تقول لي ماذا يفيدك؟

- لن يفيدني شيئاً - انا فقط اريد ان اعرف - سعيد معرفة لا أكثر
ولا أقل -

- بعد عامين يا منصور

وربته ينظر إلى سعيدة مفاجئة -

- اصدوقي أنت اخي 'سماحيل'؟

- صدقي جداً -

- عفاك الله يا طويل العمر -

وقام يمد يدهني فبأحداً لرحلتي كطلل وجد نعتة الضائقة وقال:

- انكابريري ليست معطلة من أعود منك -

- كيف انكبرت سيارتك؟

سكنت منزل الذي جاء لينحني في قبل ان يغادر الباحة

سيارتي

- سيارة مفعونة موديل ١٩٧١ سَلَقَتْ بها في حفرة سمعها
الوش ودميتها عند الرصد

قلل تلك وهو يصعد السيارة وبعد أن جلس استنظر :

- طول النهار تعالى يا منذر. رح يا منذر. كهرباه يا منذر
ميكانيكاً يا منذر. مياه مقطوعة عن الجيش يا منذر اسست ناقص
يا منذر. طيب يعطوني سيارة قوية. بالكر سأحصل واحدة جديدة
العمل بلا منذر يتوقف ومنذر لا يعمل بلا سيارة.

رحت لتسبك وأراقب الطريق واستمتع بالهواء البارد قليلاً
الداخل إليّ من نافذة السيارة المفتوحة. فجاءت تذكرت أنني لم أر
التيمني المعجوز اليوم. هل حقاً لم أراه أم لم أنظر ناحيته؟ لا بد أنني
لم أنظر ناحيته. أريكني منصور إرباكاً شديداً

- ما رأيك بمنصور يا منذر؟

- سأنته ولم أرتب للسؤال.

- منصور! قلت لك من قبل إنه مخيل. مجنون

- أعرف. لكن لماذا تكلم بالخبطة

- ضحك ضحكة طويلة وقل:

- تريد القصة كلها؟

- كلها.

- اسمع.. منصور من عائلة كبيرة لديها تجارة واسعة في
السلوع العام. ترك تجارة أبيه وجاء يعمل سائقاً عند عبد الله.
ليس هذا جنوناً؟

- لكن عبد الله لا يستخدمه كثيراً.

- عبد الله يعرف عائلته.

- لهذا كل شيء؟

- منصور مجنون، بمدرسة مصرية يريد أن يتزوجها. مجنون بالعريقات. ليست هذه أول مصرية ترفضه.

- هذا غريب حقاً.

عاد بضمك ضحكة طويلة وقال

- أنت تعرف كل شيء يا أخ إسماعيل. تريد فقط أن تستوثق.

قلت محولاً الموضوع:

- ألي أين وصلت مع جارتك العسقاء؟

- ألكه بسفر عليك لا تذكرني. سأرت حديقة لزوجتي زوجتي صديقة بلهاء.

ضحكت واستمر هو يتحدث:

- أراها يا أستاذ نكّاني رأيت العرب.

- لا بد أنها جميلة بحق.

- أقول لك عرب يا أستاذ كمي، منصوب لمنذر.

وفجأة كشف لي صورة:

- انظر ضاح شهي الأيمن من حريق نذيفة مَرّت من ألسني.

وانظر هذا اليهود في رجلة ساقني. وهذه نراعي بها مقر غرز.

واستمر يكشف لي أماكن كثيرة مصابة من جسده. وأنا لا

أستطيع أن أتابع إلا قليلاً لعيناي على الطريق

- أنا من عائلة فدائية يا أخ إسماعيل.

لم أدر بما أعني. صمنا قليلاً ثم قال

- أعذري إن كنت أزعجت. أنا لا أعرف بالضبط ما أفعل المرة

السابقة لم أكن طيباً معك. لكنني والله أحب المصريين جداً. أنا فقط
أكره السادات. هل تلموني؟

كان صوته يتهدج بما يشبه البكاء وهو يتكلم. وجهت نفسي
أقول:

«وأنا مثلك أكرهه يا منذر.

«الله يستر عليك يا استاذ

وأشعر سبجارة لي ولنفسه ثم قال بصوت خفيض

«لا تخبر أحداً بما رأيت من جسمي. يعرفون أنني كنت لادانياً

يزهونني يا استاذ

«مقول؟»

«حيداً.

«يعيدونك إل الأردن؟»

«هل تظن أن فلسطين؟»

١١

لا تليعنني يا واضعة. لقد تعلقني شعور الخافي من النار..



في طريقي إلى بيت واضعة فكرت بأن امضي معها اليوم أطول وقت ممكن لكنني رأيت. البيت الجميل ذا الحديقة ذات النخيل وشجر القيسون، على بابها جندي شرس، وفي شرفته جلس سيد الغريب ملتقاً بهاتفية رأى سيلرتي ورأني فوقف ولم أتكلم فسمعت نفسي رغم اتساع الدنيا حولي. لا أحد يستطيع إبلاغ الأمير بأن الشيخ، نسي محادثة الطبيب المصري، لم يسجله ولم يطلق مراحته شركة لجعل مع الوقت المترهل قلت لوجيه، لا يمكن لن نسي المحكمة قضية كهذه، الأمر مفسود... قال لكل الناس تعرف أنه نسيان. هذا ممكن جداً فكرت لذهب للإمارة وأطلب مقابلة الأمير. وذهبت فجأة إلى أنه قد مضى عام والغريب حوكراف، ولم يفكر في ذلك أحد، وأصابني شجر شديد فلم أذهب

رأيت البيت اليوم وفكرت أن أعرب من الدرس وربما أعرب أيضاً من العمر الجديد لأن صاحب البيت الذي سكنه، صلاح

سفير التتلي الذي حين قلاني به وجيه لم أصدق أنه شديد . قال
وجيه إن المدرس الصالح قد يفتح لي الباب للمدرس الغريب .
فيعينني ذلك على كسر أكثر مما يمكن في زمن قليل . ووافقت . واليوم
موعدنا لنبدأ . ولكن بعد أن أنهي من الدرس الواحدة التي أستاذك
بنفس أكثر من مرة متلبساً بانتظار موعد الذهاب إليها .

على اليوم أن أشرح لها درساً من هيلين كيلر . عن الإرادة
الإنسانية . واليوم أشعر بالضيق أكثر من كل وقت . أتذكر كيف كان
يخامرني شعور منه رأيتها فوق عربة الشرطة بنفي ساقطاً . وكيف
التي ساكنة خلقة القصة . أغلف عليها مني وأغلف منها علي . أنا
رجل أغلفت سلطان البهجة من زمان . فكيف أسافر كل هذه الأسفار
ألاقي فيها بالعصر ؟ واحد غيباً مقتول لا أريد أن أسوت ولا أن
يكون لي في كل بلد حظيرة . هل الحقول الواحدة ذلك ؟ هل تفهمه ؟ هل
يفيد ؟ لتستمر قصتنا إنز إلى غابيتها المرسومة . لكنني رأيت البيت
الجميل والدكتور الغريب فعلمتني للشمس وانكرت أن أعوه .



استقبلتني واحدة . فتحت لي الباب الخارجي وأبست
الطريق . فدخلت منكس الرأس إلى الغرفة الواسعة . وقلبي يتدحرج
إسم قدمي . خيل لي أنني لزورها بالليل ولا أحد في الدنيا غيرنا .
لكنني ظلت خائضاً راسي حتى لا أرى وجهها المسافر . ولا شعرها
الذي يدعوني لأخبيء راسي فيه

صغيرة واحدة كالصفر . وتحتل من الفضاء مساحة كبيرة .
ولكن لا بد أن أرفع وجهي إليها .

- أين الواجب؟

قلت حاسماً لقد كنتُ لي الكرامة بيد مرتعشة. لا بد أن رجعي
تجهيم. ولم أثنَ النظر إلى وجهها الذي لا بد عُلّلت خيبة الرجاء. لم
تعرف أنني غصصت البصر حتى لا أنظر إلى أمام دعوة شفقتها
الموتعشتين

- استأذن. هل من الضروري أن يُكتب الاسم قبل العنوان؟

- لا أنظر أن ساعي البريد يعيد رسالة كتب فيها العنوان قبل
الاسم. لكن هكذا تقتضي تقاليد كتابة الرسائل بلغة أجنبية.
- لا أعرف لماذا افكر لو تصل الرسائل دون كتابة الأسماء.
- يمكن طبعاً لو كتبت رقم صندوق البريد.

لم أفهم إلا مشأخراً لماذا تقصد. وأينها تتجهيم. خيبة رجاء
أخرى. البركتُ مقدار غيالي، ومقدار عنادها، ونظرت إلى الباب
المفتوح لرايته، الشبيه النهر فوق القرية المتحركة.
- جُدّي.

هتكت وقامت بسرعة إليه من الذي دفع به إلى الباب وتركه هكذا
دون كلام؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أنظر وأراه؟

وذُخِلتُ به تعلعه أمامها، وأنا أقامل كم هو ضئيل لا يزيد حجمه
على حجم ظل. ثولا أن بشرته سوداء طيبة بالفضون. ورايت يديه
مرتجبتين فوق البطانية التي تغطي سانيه، يجلد عظامهما يشف
عن عظام بيضاء. وعروق زرقاء قاتمة منتفخة.
- هذا جُدّي انصري. خلد حدثك عنه. أراو أن يراك.

قالت ذلك وهي تتركه بعيداً جوار الحائط. وأنا أجاهد أن أعرف

لون عبيد للذين يظل بهما علي وأهل بعينتي عليهما. بيضاوان أم
خضراوان اضمحل لونهما» لا أستطيع التحديد صفيتان
مختلفتان. هذا ما يبدو مؤكداً.
- هذا هو الأستاذ المصري

هتكت واضحة لجدها، ورايته بينهم أول مرة لرى شيئاً هراماً
بينهم. مبهج كطفل ولید. وغمست لي:
- تكلم لجلي أصر

لم اتكلم. قمت واتجهت اليه أمسكت بيده لرفعها لاصابعها
وتركنها فسلطت علي حجره

كيف إذن أعود الي الفرس؟ بدأت بالغباء الذي سبقه لي الطريق
ضهر من أجل ذلك الذي يسجده الجبن والنسيان، وأنهاء حضور
هذا النجد. من الذي دفع به إل الباب حقاً، لماذا لا أرى في هذا
البيت أحداً غير خالد ووضحة؟
- هل ضايقك اليوم؟

- لا.

- إذن لماذا تريد الانصراف؟

- سأعود الي لك امسرح المحنة القادمة

وأبداً تكلم نيكلي. وفككت مدفعاً في قمموتي لا تعلم اني ردت
لي أنود حول المكتب وأخذها في هدري.

- هل خطيبك ليست مخبر؟

للمرة الثانية تذكر خطيبي ما حاجتنا إل كل هذه الغبارة
عليوم؟

- كما ترون أنا لا غلظ ولا متزوج

لأنت يدعي أمامها وانصرفت مسرعاً. كنت أعرف أنها تبكي في
صمت خلقي. لكن ماذا أفعل؟ تملكتني شعور الفلحي من الخار لا
بد أيضاً أن أجد طريقاً آخر لا يمر بالميت الذي يعوقه التخليل
والتيعون والنسيان.



- يا هلا يا استاذ.

هناك صالح وهو يستقبلني بحفاوة بيت صالح لا يختلف عن
بيت واضحة بناء من دورين حوله ردهة تدور مع بلا أشجان

قارني الى قاعة طويلة مملوثة بالموكيت الأخضر. وتتورع عن
جوانبها للحشايا بذهاب لا مكتب هنا ولا مقاعد. جهاز تليفزيون
كبير يتصدر القاعة. ونحت على الحامل الزجاجي جهاز فيديو.
وجوانبها مغطاة سفينة فوقها مجموعة من شرائط الفيديو.
بالقابل. في الفاحية الأخرى من القاعة. يجلس أربعة شبان لم
يتجاوزوا العشرين مثل صالح. ولعرا بمجرد دخولي. وصاحموني
متسعين. وجلسوا من جديد ينظرون إلي بعضهم. ويضحكون بلا
صوت.

- اصحابي. لا داعي لعرفتهم.

قال صالح مبتسماً وأنا بعد لم أجلس. ابتسمت لهم لضحكوا
وصفقوا في ولت واحد كأنطال.

- لا تندحس يا استاذ. باتون هنا باكليون وبتربون وبشامبون
الأنفلام

أدركت أن الجو لا يوحى بملكانية التدريس فجلست صامتاً.
فوجدت به يسألني

- تبلي ترى قبلماً يا استاذ؟
- أجل.

سئلوا من حميد . وأنا لا أعرف كيف وألقت هكذا . لكنني ردت
لو شريت حمراً أيضاً

قام واحد منهم وأحضر هذاً من الأفلام . وخرج صليح ليعد لنا
الشاي بنفسه . هكذا قال .

- فسر لنا عناوين الأفلام يا استاذ
قال الذي يحملها وهو يقدمها لي . وقدل آخر
- الاستاذ يشرح لنا .

ضحكوا وصفقوا طرباً . وضعت الأفلام أمامي فوق الأرض .
والتلوا هم حولي . وتناولوها واحداً فواحداً .

- هذا مراعي بقر منتصف الليل .
- هذا نعرفه

- هذا ، كلاب من تش .

- هذا ممتاز لكن رأيناك كثيراً

- هذا ' موت في فينسيا .

- ها هذا ليه العصبي الصغير

- وهذا ، الخارب .

ضحكوا .

- هذا ليه الرجل الذي يتبول .

سَكُنْتُ للحظات. راولا معظم الافلام فلماذا يريدون ان اترجمها لهم؟ رأيت أيضاً هذه الافلام في سينمات الاسكندرية. ورأيت «الخدم» منذ حوالي عشر سنوات ولا اذكر ما إذا كان فيه شخص يتبول ام لا. كنت احب ديريك بوجارد. ارى في وجهه دائماً مسحة حزناً عميقاً. وكنت قرأت عن هارولد بينتر كأحد كتّاب المسرح الطليعيين في انكلترا. ورأيت اسمه في الاميش ككتّاب للفيلم يا الهي! كل هذا أيام كنت الفراء مضى وقت طويل عن ذلك جداً. قام واحد آخر وأحضر بقية الافلام ووضعها أمامي فوق الأرض.

- هذا «مومي ديك»..

- هذا عن الموت. لا تيفاه..

وادوا لرحمتي بالفيلم الذي لم أراه هذه وكنت احب لو رأيت له الفراء «مومي ديك» أبدأ وإن كنت قرأت عن تداسة هرمان ميلفيل. أحببت دائماً أن أقرأها ولم أتألفها في مكتبة. ليكن. ما معنى أن «نبح في ناسي» «كولمن الشجن».. ما القراءة التي سلطت بين قدمي وخلفتيها ورأيت في زحمة الأعباء التي فسرنا في أبي أحسن تفسير؟ وما الكتابة لو كنت كتبت؟ لا معنى لأي شيء نسيت لا يسمح منك حقاً إلا ما ليس لك رغبة فيه.

- هذا «طبعة حب»..

- هذا «غاشل»؟

- طيب هذا «العودة إلى الوطن».

أسسك أحدكم من يدي. رفعت عينيه بالقياس اتساع. وقال.

- ببغي هذا^١. هذا فيه رجل مشلول بالعمى.

ضحكوا وزجره أحدكم:

- ايض ينبغي هذا ! انتظر حتى يفسر لنا الاستاذ بقية الاملام.

موجئت بالاول بتكمش ويسكت. يعقد ذراعيه امام صدره. ويرجع قدميه كتلميذ صغى في كتاب. لاحظت ان جلدابه متسخ. وقدميه كيتبتان بهما بشور صغيرة دقيقة لها رؤوس بيضاء. وريته يصلق في بعضين واسعين يزيد من اتساعهما شعوبه وصالة وجهه. احسست بسفالة الامر كله. لو دخل صالح وانتظني. ودخل صالح يحمل ليلمين ويقول:

- هذا ، الرسالة. يا استاذ. ينبغي تراء* إنه ممنوع في البلاد العربية

وفي اللحظة التي كنت فيها توافل رغب الجهادة التي بدت على وجوههم استنظرو صالح.

لا تؤاخذني يا استاذ نرى الرسالة، فيما بعد. غائب يريد ان يرى هذا الفيلم لا أستطيع ان ارد طلباً لطلب.

كان يشير الى الشاب ذي انشور في قدميه. فمضوا كلهم وضحكوا. ولعل غلب واسلك بالفيلم من صالح. ووضعه في جهاز الفيديو، وضبط التليفزيون ثم جلس، وبالرؤوس كونيرون أدار الفيديو.

خرج صالح من جديد. ولم يعطني فرصة الانصراف، وأنا لم اطلب ذلك. لم يعد بالشاي الا في منتصف الفيلم. وضع الحسنية الكبيرة الفضية وعليها ابريق الشاي والكاسات لعلنا من الارض لم نشرب ولا فكر واحد فيها ان يملأ الكاسات الصغيرة

تفد بدأ الفيلم بموسيقى ناعمة. ثم ظهرت بقع من الألوان
خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء. وصارت تتشكل في خطوط طائفة.
وتتقاطع وتتقابل في زوايا شاعرية. موعية بأجسام معنية تتقابل
بعد خول عناء. ثم خفت الموسيقى شيئاً فشيئاً. وتلاشت الألوان.
وظهرت ساقا رجل مضمومتان تدخلان الكادر على مهل من جهة
البسار وفهت الأمر كله لا بأس. فسيت إحساسي بمسود المعاملة
وغبار الاستقيل. وظهر عمود الرجل منتصباً خضعاً ثابتاً لا يهتز.
ومن بعيد التبت المرأة عارية تتضح ملابسها كلما ازدادت قرباً.
وولعت آدم عمود الرجل. ونظرت إلينا وضعت ضحكة فاجرة.
وانحنت تضع فيها حون العمود.

هل الكذب فاقول إنني لم أكن بحاجة إلى رؤية ذلك اليوم على
الأفد؟ أنا لم أشعر بأي خطأ أخلاقي. في النهاية أنا تارك هذه
البلاء. ولا يهمني ما يقوله صانع عن اندرس الذي لم يطلب تهية
البحر للتبرير. وراح يتكلم على أفلام مسخرة. الذي حبرني طول
الفيلم. كان غائب اللاتج د ثماً فعه في دهشة. والذي لا ينبغي يوقف
حركة الفيلم بهر وموت الذي رفض أن يتنازل عنه لأحد. كلز يوقف
الفيلم كلما ظهر عضو امرأة. لا الكذب أيضاً إذا قلت إنه سبب في
كثيراً من التقزير. لكنني انتظرت إلى النهاية. لثلاث ساعات كاملة لم
يغه أحدنا بكلمة. ثم أترجم لهم شيئاً ولا هم طبروا



لا أعرف في أي لحظة من الفيلم اتصلتُ وراثت وادي النيل من
الشلال إلى البحر الأبيض. ديوك نوترن وشمس تسطح على الشريط
الأخضر الخشق في الجنوب فتتضح زهور الفول البيضاء بطول

الليل، وشمس تسفع على الجبال فيصعد رجال ناموا جوار البنادق
ويقفون كأنهم رايات وشمس تسقط على المعابد القديمة فيضج
وجه رمسيس في القى الجنوب وتطلق الكباش من معابد الأقصر
تقدم ونجدي تتناطح بعد قيد طويل وشمس تسطح فوق القلعة
لتشور الأبنار ويصعد الأطفال يسحبونها حفاة إلى المزارع
الغضراء ورجال ناموا يفتسلون في رشا ويصلون ثم يمضون
والغروب على اكتافهم أو يركبون الحمير وشمس تسطح فوق
القاهرة فيخرج الرجال والطلاب على رؤوسهم طرايش حمراء
يصبحون في الشوارع ويعطون المصالح ويطلق البوليس عليهم
الرماسس والى شرفة عالية يقف المدرب السياسي البريطاني يتفرج
والباب لا يطارق شففيه ثم شمس تسطح فوق الاسكندرية حانية
ويصعد هواء البحر إلى البر سملاً برائحة اليد وذات غلي يبعث
عن ضلوع تنتهي فلا يجد إلا سمور الأجانب الذين احتلوا شملها
وتركوا جنوبها الضيق انكثوم لأهلها وللغرباء جاؤا من الويف
خلف مراب النزل، ثم رأيت وادي النيل يكمش فيقرب جنوبه من
شماله ويمينه من يساره ويصبح كله غوفة لوردة بيت صفوة
ملينة بلتاذ قديم وناس متعبين من رجال ونساء وأطفال قليلين
يصعدون من بينهم واحد عند الفجر في العقد الرابع يرتدي جلباباً
قديماً يأخذ معلقة بها عيش قليل ويضع قدميه في حذاء
متهلئ ويثقل خارجاً في هدوء وضباب فوق الدنيا وكل شيء مبلل
بالندى ويمشي لا يرى أحداً ولا أحد يراه ويعدد يشق الضباب
الكثيف عارفاً طريقه فيجرب القطار وينزل بعدد قناة ويقف ذاهلاً أمام
انصاع الصحراء ويتساؤل هل ستمشي فوق كل الرمال؟ وبجيب
سامشي ويمشي فوق أرض مريئة ينام الليل ويتابع المسح بالنهار

وكلما اهدق به الموت عطشاً تفجرت له الأرض بالماء وكلما اهدق به الموت جوعاً أنزل الله عليه ملئدة من السماء حتى دخل أرض فلسطين فرأى أهلها مُفْلَقِينَ في الشائق يفرّبهـم الاتكـلـيـز من الأمام واليهـود من الخلف ولا زال عليه أن يـبـي النداء الغـلـمـض لأرض الحجاز فيعبر النهر ويمشي في وادي الأردن فلزلاً حتى يدخل بيـداء نـبـوك متوكلاً على الله فلا زاد من ماء لو طعام فيرى «ضينا» الخالية «وتيساء» الخربة «نوشوك» المنعونة ويواصل فيرى قلـيـبة المنعزة ويواصل حتى يصل إلى المدينة فيجلس على باب مسجد الرسول بهيج الحبوب للداخلين فتصير له بعد ذلك تجذرة ويصير نه طواف بالبلاد حتى رأى نبوك مرة أخرى فدخلها وفيها باع لامرأة حتى وراحا حتى شيمة أهلها فاطعموه فقال ما أطيب طعامكم وأهنا عيشكم كيف أسلوبكم ولنا غريب يمضي في البلاد أجيروني فأنجروه وصارت المرأة زوجته أنجبت بنتاً أنجبت وأنجبت بنت سليمان بن سبيل فصار جدها وصارت حفيدة.

يا الهي " ما القرب المدن رغم اتساع البلاد وما القرب البلاد رغم اتساع الأرض "



١٢

دخل منصور الى مكتبي في الصباح والقرود فوق كتفه وقال:
- استعد للذهاب الى المدينة

ابتسمت. كلما كلمني منصور اهلون ان التكلف الابتسام قلت
- خيراً؟
- لعل

- ستذهب الى مؤسسة الضمان الاجتماعي. ستحضر نماذج
للتأمين على العمال. نظام جديد اظن ان لديكم مثله في مصر.

اندبشت من تدخله الدقيق في عملي. ونسيت ان عم عبد الله
كثيراً ما يعطيه هذه الفرصة. قلت مبشراً.

- هل أنت مديرنا الجديد يا منصور؟
جلس الى المكتب القريب من اخارزة وقال:
- اريد ان اعطيك هذا القرود..

انطلقت ضاحكاً. لم احد اخشى جانبه. بدأ وقد هدأت نفسه منذ
اخبرته بالوعد الكاذب لزواج سعيد من وداو.

- لكنني لا احب القرود

- ليس لك شئعة إلى ابن عمي بالمدينة يريد واحداً من عمان
وأنا لن أسافر إلى عمان الآن

نظرت إلى القرد لهجده بنظر إلى كيف يمكن أن أحمل القرد
معي هذا، هل يسمح للقرد به يكون الطائرة
- هل صدقتي يا أخي سماعيل، أنا فقط أمزج معك
تنطست بارتياح. فنت
- لكنني والله كنت مستعداً
- نسلم يا أخي سماعيل.

قال فلان والطرق بنظر في صمت إلى المكتب، وأن لا أدري ما أتفي
حدث في أحسنت برغبة شديدة في المكاء. تأثراً من سذاجة
ووداعة هذا الإنسان الطيب الذي لا أعرف ماذا يريد بالضبط.



ساعة ونصف الساعة ووصلنا الطائرة صليحة لعبت بها
المطبات الهوائية كثيراً. في مطار صغير يشبه مطار قبولي نزلنا لا
مشاكل في الاستقبال فنحن قادمين من الداخل. رأيت عدداً كبيراً
من الرجال يجلسون على الأرض في أحد أركان صالة الوصول
زحاجية الجدران، ومولهم يفت عدد من رجال الشرطة. حطبت من
المصريين والأسبوريين كان الجالسون متراحمين لا يستطيع أن
تحصيتهم، مثيري القباب والوجوه فيهم حفاة، وخرمت.

لصاء واسع وساء عالية رياحة عريضة مسطحة تلقت فيها
السيارات، الأجرة والعاصمة نصف ساعة من الحار إلى المدينة
هكذا علمت. توقعنت أن يتقدم مني سائق لكن لا أحد تقدم.

الخروج من انظار يتجهون الى السيارات في صمت. وهذا
الرجل الجالس على المقعد المجاور للمعد السائق يشعر تاحيتي.
انظر حولي فلا أجد أحداً يقصدي انا اذن. ماذا يريد؟ هل
- اركب بسرعة قليل ان ياتي السائق.

لم تفهم لكني دخلت العربى في المقعد الخلفي. وظهر السائق
وفتح بابه ودخل وهو يقول.

- جاء اخوك؟

- اجل.

تلفت الرجل ثم وابتمسم. ولم ينتفت السائق الذي قال
- يا سلا.

واندر محرك السيارة وأما في غاية الدرية

- اخوك يمس في الشككة؟

- أخي وان عسي ايضاً. تركنا عرابنا هدى في مصر

ضحك السائق الصغير

- والله زين ما سويت.

واستمر يضحك والسيارة تحركت. دعة الله عز النور.

قال السائق والتفت الي. لا تؤاخذني يا أخي. ورايت وجهه
عجوزاً لير انن شاباً صغيراً كما تصورت وفكرت ان تقطر شيء
في هو الصمت. الرجل الذي -عاني مصري ولا احب انه يؤذيني.

ان طريق طريق ضيق يقطع حبالاً سمراء وخمراء عالية متدرجة
الارتفاعات جبلاً صخرية لامعة. على سطوحها اخاديد جللة من
آثار اسطر بعيدة الزمان. وعلى الأرض المسطحة بينها «حزات»
ضخمة تنفذ دخاناً شديداً خفيفاً كأنها قوّهات براكين صغيرة خامدة

منذ زمن طويل. ولا رمال حولي ولا كتباني. لا أعرف لماذا تذكرت
الكلاب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد الذي رأيته في طريق
ثبوك واشتمعت. هنا لا بد أنهم يقتلون الكلاب في المدن والمصري
معاً. والتفت إلي الرجل وقال

- هذه جبال بركانية تشبه جبال الصحراء الشرقية عندما

تم إن. (في حاجة أنا لمعرفة اسمه حتى أخطئه، لكنني رأيت وجهه
جيداً بدا لي شخصاً عارياً لا يمكن التميز بشيء وراءه. وبدأ لي
مسكيناً أيضاً. فتميمه منسخ البلقاء، والزرار الأعلى فيه مطروح
والطويز الذي يرتديه قديم لكن وجهه أبيض مشرب بحمرة خفيفة
ورشمه أبيض كله وعينيه صفيرتان ذائمتان من التعب. واستمر
يتحدث مفاهيم السائق

- جبال مكة وجدة كانت متصلة بالجبال عندما في مصر في
الصحراء الشرقية وهي حزة منها

- سامحني يا استاد والله أنا ما شفت مصر. شفت تركيا..

قلل السائق ذلك بخجل حقيقي والتفت الرجل إلي مبتسماً وقال:

- المنطقة الغربية كلها من المملكة كانت متصلة بالصحراء
الشرقية المصرية لقد فصل بين المملكة ومصر الأحدهم الأفريقي
العظيم في المصور السحيقة كما تعلم.

يفاضيني بأعشاري شخصاً متعلماً. يريد أن يضرعني بأنه
شخص مثقف ولا يجب أن أخشى جانبه. بدأت الطمن اليه

أخذت المدينة تظهر ببروتها الواطئة بينها عمارات كثيرة عالية

ورأيت مائة المسجد النبوي والقبعة الخضراء تنبع في الفضاء، وقال
الرجل

- المدينة جميلة. هوازها عليل وأفلها طيبون. إنهم الآنصلي.
انضم السائق وقال:
- الله يرضي عليك يا مستأجر.

ولم يختلف ما رأته في الشوارع عما رأته في شوك. اختارح
هنا أنظف قليلاً ولرسم والأسويين أكثر المدينة اكبر

توقف السائق أمام الحرم النبوي. زحام من الداخلين
والخارجين في سرعة رحمت، وزحام حول الباعة العجائز الجالسين
على الأرض أمام الحرم يبيعون الفصح للداخلين يلقون به للحمام
هذا حمام سباح فوق الحرم رتحت السماء لا يصطاده أحد ولا
يأكله أحد. ونزلنا وسبقني الرجل ودفع للسائق عشرين ريالاً. وقال
بعد أن مضت السيارة

- تستطيع أن تدفع لي عشرة ريالات. أعطيت السائق الأجرة
المقررة.

- أستطيع أن أعطيك العشرين ريالاً

- أريد فقط الريالات العشرة. الآنسفن هناك يحتاج لكل هتلة.

هذه هي النسكة التي دعاني للركوب من أجلها، ولم أضا الإحالة
في الكلام. أعطيته الريالات العشرة لكنه سألني
- هل تعرف أحداً هنا؟

- لا

- الآن نزل معي في الفندق. أعرف الفنادق الرخيصة.

كانت الشمس فوقنا قوية. نحن هنا في الجنوب قريبون من
 تسوك. النهار هنا خريفى. والخريف هنا كالخريف في مصر
 وأريكتني حركة النساء أمام باب الحرم كما تحركنا قنبلاً وحسنا
 أمام باب آخر النساء كنترات يدخلن ويخرجن ككشفات الوجوه.
 عيون خضراء وعيون ررقاء وعيون سوداء. وكما تعرف حسيات
 الرجل في الملكة من سمائتهم وأزيائهم تستطيع أن تعرف البلاد
 نفسها من عيون النساء وإن بدت الوجوه كلها واحدة هكذا فكرت
 فجأة وأنا أنظر إلى الوجوه المتألجة كورود سابعة في مياه من
 الضوء. عذابات سوداء حفاً أمامي لكن تظهر من فتحات صدرها
 ملابس خضراء وحمراء وبهضاء راحية لامعة. عذابات سوداء حفاً
 لكنها مع الضوء الأبيض للنهار تعطي انفرصة للوجوه البائعة أن
 تعلن عن سرورها هنا أمام باب الحرم النبوي الشريف لم أستطع
 رفع بصري إلى السماء ولا أن أخفضه إلى الأرض. صارت عيناى
 عن مستوى وجوه النساء وعيون النساء وقضاء النساء ونظارة
 وجفائهن لم يكن عمرى أبى ربيعة مجنوناً وهو يحد للنزل ما
 يأتي لورحت مكة. استغفر الله العظيم. ماذا الفعل في غطف العيون
 والراحة التي تبعثها الوجوه في الأرواح.. أنا الآن محمول على سرير
 من الرقيق.

— النساء هنا يكشفن وجوههن لا تدهشن. المسائل كلها مقلوبة .
 قل الرجل. فأنزلني إلى الأرض. ومضى فمشت جواره كقطر
 يتبع نباء.



إلى رفاق غصبي الحذني رحام شديد ولكن الحركة تنساب في

هديره ولا صوت لشخص ولا لراشيو أو مسجل. ورائحة البخور
والعطور تفسح المكان كله. صمت وخشوع كأننا الزنابق والبيوت
كلها داخل مسجد كبير.

- من حسن حظك أنه لا توجد نُقُرة هذه الأيام إلا ما وجدت
مكناً لقدم. التمس أيام العمرة تنام في الشوارع.

لم أزر. كأننا تركته سقى برشدي دخلنا عنداً صغيراً اسمه
-حراء- وقابلنا في بهر ضيق مظلم شلأً مصرياً يتشم. وصحبنا
إلى غرفة في الدور العلوي. وقال بلا مناسبة إنه لا يعمل بالفندق
غيره ويؤمن آخر. وبحث أنظر إلى الغرفة الصغيرة التي لا تزيد
مساحتها على تسعة أمتار بها سريران صغيران منفصلان. ودولاب
معدني من ضلطين لا يعمل عرضه إلى المتر ولا يرتفع إلى المترين.
وحوض مياه مثبت في الحائط فوقه رف زجاجي عليه كوب بلاستيك
واحد. ولونه مرآة صغيرة صدئة الحواف. مبيضة المزجاج. ولي
الصنف مروحة. وأحسست بالاختناق كأننا كلن الحر محبوساً في
الغرفة وانطلق يحاصرنا مشبعاً بالرطوبة. لا نافذة للحجرة على
الشوارع لها نافذة صغيرة على منور ضيق. قلت لمشاة المصري:

- افتح النافذة

انشم وفتحها. ولم يتغير الحال.

- أدر أنروحة.

أرأها وانصرف. وجلست فوق حافلة لهد المريزين. رأيت
صاحبي قد جلس على حافلة السيرير الذاتي بفتح حقلية صغيرة
كانت معه. ويخرج منها جلياً دخل فيه بسرعة بعد أن خلق بسرعة
أيضاً ثيابه. فطنت مثله لكنني ارتديت ببجلة. لا أحب الجلابيب

منذ صغري كانت ترتفع دائماً وأنا نائم عن ساقى وأشعر بالهواء
البارد في فخذي وظهري كلما اقترح عزى أحد أن ارتدى الجلباب
شعرت على الفور بالهواء البارد. لقد أرفضني كثيراً انتشار
الجلابيب في مصر الناس صارت ترتديها في الشوارع وأحياناً في
العمل. تكثيد جديد أرساء وهذه العائدون من بلاد النفط ولا
أعرف كيف لا يشعر هؤلاء الناس جميعاً بالهواء البارد في
الغازهم، ولعل صاعبي

- فرتاح ساعة ثم نتفدى خارج الفندق.

- لا أشعر بجوع.

- إذن نتفدى بعد أن تصلي العصر. لقد هلك الظير. سنصلبه
مع العصر في الحرم.

أحسست فجأة أنه ثوبار ينكم أكثر مما ينبغي لكنني نجعت
الامر وحاولت أن أنام. لم أستطع ولا هو استطاع. رأيتهم ينفض
معدوء فوق السرير. ورأيتهم ينهض بفرج من الحقيبة التي معه
كتلياً ويعود يستلقي بفرأ فيه.

- اسمي اسماعيل خضر موسى.

قلت. فابتسم وقال:

- كان عزى أن امرك بنلسي. كامل البلتاحي. لا تؤاخذني لا بد

أنني أربكك.

- لا تشغل بالك لقد فهمت أشاراتك

- لي نظرة لا تخيب في الناس

وسكت قليلاً ثم سألتني

- ألا تحب القراءة؟

- أنا قارىء قديم.

نهضت مخففة، وأخرج كتاباً آخر قدمه لي:

- هذه رواية رائعة، وصغيرة كما ترى

أسكت بها وقت عيشي

- ليس لي رصيف الأتصال من بعيد، أعرفها، لا بأس أن

أقرأها مرة ثانية، لقد مضى وقت طويل على قرأتي لها.

لم أكن بحاجة حقاً إلى قراءة ما يعطيني، كنت بحاجة إلى معرفة

ما يقرأ استطلعت أن المح عنوان الكتاب «التلصيح» كتاب أسود

على غلافه وجه غوردا ماتين سمعت عنه من قبل ولم أقرأه، وشرحت

أقرأ رواية مالك حداد، انتهيت منها في ساعتين، سرفنتي الرواية

الصغيرة المصيبة كما سرفنتي أول مرة قرائها، رأيت يلف ويطلع

أجلباب ويقول

- لا بد لك الآن في حاجة إلى المشي

وكانه ناداني من عالم مسحور، حتى أنني دعكت عيني وقت

الحسل وجهي من العيش، وأشعر أنني شخص آخر نزعوا جلده

وأعطوه جلد أكثر بهاء، وعدت أجلس على حافة السرير أنظر إليه

في صمت، ثم قلت

- حين قرات هذه الرواية أول مرة أحسست أنني أنا الذي يلفز

تحت عجالات القطار، الآن لم أشعر بذلك، فقط خلق قلبي.

تأملني قليلاً وقال

- أنا أقرأها كثيراً ربما لا أقرأها إلا من أجل ذلك.. سأنتظرك

في الدهو السفلي.

وخرج مسرعاً. فإذا بان على وجهه ضيق مفاجيء. وقلت أنكر.



دخنا مسجد الرسول، فحُمل الظهور والعصر معاً أول ما فكرت فيه ونحن نترك الفندق فن لا ننظر إلى وجوه النساء. الدخول إلى مسجد الرسول ليس بالشيء العادي في عيد الأضحي لم استوعب فكرة أن تأخذ سيارة وتذهب لتحتج وتعود في أيام القبلة. الآن لا أصدق أنه يمكن أن ننزل من فندق وتدخل المسجد فتبوي في دقائق ثوانٍ. فقلت إن اهتز وأبكي. ربما لهذا السبب لم يحدث شيء. دخلت المسجد وتطلعت إلى الحمام الساج في الفضاء فوق الجزء المكشوف. قلت انتبهني اتساع المسجد الهائل، وأعداد الناس الغفيرة، وانقسام المسجد إلى نصفين. اليمين للرجال والأيسر للنساء لا أرى وجوه النساء الآن. وجوهنا جميعاً إلى القبلة لو التفتت لي كن هاتئ النسوة نأت في الحال. لا يحتاج أي إنسان لدخول الجحيم غير أن يرى هذا العدد الهائل من وجوه النساء دفعة واحدة. بالشيطان الجهنمي الذي يحلمرني 'قال البلتاجي - إن نستطيع الوصول إلى قبر الرسول إلا بعد الانتهاء من الصلاة.

- وجلسنا في الجهة المكشوفة من المسجد. ثم أتى اتصالاً وصليتاً خشوع غامر تكلمت الدنيا مع صوت الشيخ الذي الذي يزم المصلين الكذب. إذا قلت إنني شعرت بتحول في شعوري ناحية الأيسر. فانا غير ملحد. والكذب إذا قلت إنني لم أشعر بشيء. وانتبهنا وتكلمني البلتاجي:

- انتظر قليلاً حتى يغف الزحام.

وكنيت أنا أحدث نفسي . أبهذه السهولة يمضي الوقت في حضرة الرسول، منذ تقنحت غولنا نسمع الكبار يطمون بالزيارة، ولم نخل قط قصة الهجرة في المدرسة والبيت. اخشى الرسول في الفار وصاحبه أبو بكر فبأض الجندم على الباب. ومنكب العنكيوت ونزع أبو بكر وهو يجمع اصوات الدام خيل الكفار. والرسول يطمته لا تنزع إن الله معنا. قال آبي ذلك كنيماً قال حين رأني أبكي مع الناس. يوم تنحى جمال عبد الناصر ودخلت امراةيل قملاد. لا تحزن إن الله معنا. ولعت انقدم إلى قبر الرسول.

- بي منبري وقيري روي من ريلص انجدة. هذا حديث سيوي وهذه هي الروضة الشريفة يا اسماعين.

قال البتاجي وهو يراني اتقدم بصعوبة بين الجالسين من الاسيويين المستقرين في قراة القرآن من مصاحف صغيرة في ايديهم. يقرأون بسرعة ويهترون مع القراءة ولا يكونون يحسون بمن يتقدمون وسطهم.

- كان قبرا الرسول وأبو بكر في بيت عائشة تكن عمر أرمي أن يدفن معها منذ دفن عمر ثم تمتطع عائشة أن تتدخل في ثيابها خرجاً من عمر هكذا قالت هي. بعد ذلك ألحق البيت بالمسجد.

البتاجي يتحدث وأنا لا أهتم بالرد عليه. سنقرأ الغائقة وأطلب الرحمة لآبي والصحة لآمي والتوفيق لإخوتي وفقت أمام قبر الرسول وصاحبيه والرسكت على التراجع. كيف حقاً لا أبكي؟ من يتقنني من حالة الخلاء الروحي التي تلبسني منذ زمن طويل منذ أسكت أبي بأبدي نخوتي وسطهم إي منذ قالت وهي تبكي

تركنتي في اليوم الخامس من يونيو الا يذكر هذا التاريخ بليء
يوم لا يمر كل عام كبقية الايام. يوم سيظل معنا. حتى لو حاربنا
وانصرنا ونسبه الناس. ساكون اما الوحيدة التي لا تصاب. لانك
تركنتي فيه. لذا يا اسماعيل لا تعرف كيف تخفقوا بل اذا تكون
طعنك مقلية طول العمر لا يشفي جرحي انتصارنا يوماً هن
اسرائيل يا طول جرحي وينس عذابي
وخرجنا. ما كنا نخرج حتى ساكني
- هل انت نصلي حقاً؟

- لا

اجبت دون ان انظر اليه. وددت ان اكذب. وددت لو قلت نعم
- انا ايضاً لا اصلي لكني كنت خلقتك منك هي انا المدينة



عريف منك احمر فان قائم منطفيء هاديء مستكين غامض
بمعصره الضوء. فبنام داخله ولا ينعكس كأنما هنا نهاية الرحلة
وموئل الراحة انه جبل احمر الهواء يملأ الفضاء امامه بازداً
منعشاً. والجبل الذي يحيط المدينة من الشمال كانه حارس صامت
يقف في ثبات يقيها شرور الزمان. جبل في لونه حزن وخشوع.
والوافيون قليلون لا يزيدون على باعة التمر الجاف والحناء والفطر
في الزجاجات العسوية والنسواك. ونحن. كأنه لم يزل المدينة غريبة
لغريب اليوم. لا احد يتكلم من التباعة ولا صوت يرتفع.

- انتم والحناء والفطر والنسواك سنة عن الرسول. والكحل
ايضاً

- قال الفتاحي ولم يتكلم احد بعد ذلك الاصيل وعاد يقول

- كان الرسول تطيقاً مقيلاً على الحياة كان يحب كل شيء ولا يرضى بالقليل إلا في المال والطعام. أنظر. من هنا جاء خاتمة من الوليد

أشار إلى المكان الشهير للواقعة

- وهنا كان يقف المسلمون

ورأيت حيث أشار مستطيل من الطوب الصغير على الأرض

- هذا الطوب يحدد لبري حمرة ومُصصف بن عمر أعظم شهداء

الواقعة. هل تعرفهما؟

- اعرف حمرة ذلك الذي أكلت كبده أم مغاربة.

قلت. وتهدج صوت البنتاجي فجدة ماتيكاء.

- كان مُصصف فتر الفتيان في فريش اجعلهم واعتاهم. وإذا

أس بالدعوة ترك كل شيء. وتحمل الجروح والفري وهو محاصر مع

المسلمين في شعب أبي طالب. وأبدا لم يستسلم كان هو حامل

الراية ذلك اليوم. ولم يتركها حتى تمزقت أعضائه ومات.

وسكت ومن فرق الجبل هفت علينا شمة طيبة خرية. وكنا

نوشك على الدخول في المغرب حيث ينسلل النين على جبل. والنسر

على يسارنا معبدة حمراء تتراجع عن الدنيا في حزن. وأنا أرى

المسلمين يتركون مواقعهم فوق الجبل وينزلون حتى لا تلوثهم

الغنائم والمركة نوشك أن تنتهي بالانتصار. فإذ بقاله بن الوليد

يظهر علينا كجبل فرق الجبل ومعه جنوده ويغيرون على ظهر

المسلمين. وبشت الرسوم. ونكسر سفن. ويهزم المسلمون.

وسؤال الاستعاز الدائم عن العبارة من الهزيمة. والإحالة طاعة

الفنن. لكن لما كان السؤال يتكرر كثيراً؟

ونحرك البلتاجي يعني منسحب



في الحجرة التي كان مورها ضعيفاً أحسست بالاختناق . فطقت مصباحاً آخر أكبر . وانقضت من عدم ادراك البلتاجي لضبط الضوء هو الذي يبدو صحيح النظر استطعت عن سريري أفكر ما الذي أشعر أنه يفصلني الحياة . التيفازيين ؟ استطيع أن أنزل إلى بهو الفندق . لقد لعبت جهازاً . ومن تدخل عتدي . بعد أن تناولنا طعامنا في مطعم صغير خلف الفندق لكن 'ي نزلاء هنا استطيع أن اجلس بينهم ' باكستانيين ' أو الفدان أو اقراة . مسلمون ومن كل البلاد . فالديشة لا يدخلها غير المسلمين . لكن ما يدريني أن 'السيويين سيجهسون صامتة قد ينگمرون ويتكادفون بكلماتهم المريبة ويسلمون جنستي امام الجهاز . لأبقى إذن في الحجرة . وسألني البلتاجي

- كم صار لك في المملكة ؟

- ثلاثة أشهر تقريباً

- هل تعمل عملاً ثابتاً ؟

- لا اللهم ماذا تقصد .

كان مشغولاً بأعداد كوبين من الشاي بجهاز كهربوي صغير أخرج من حقيبته لم يره إلا بعد أن انتهت روحها بشرب الشاي

- اقصد هل تعمل بعقد رسمي أم مني ؟

- تعاقدت قبل حضورتي . لكن كيف تعمل هنا بلا تعاقد ؟

ابتسم واجاب :

- كان عليك أن تدرك ذلك وحده. ألا ترى معي عدة الضاي؟

وأشار إلى الحليّة الثلاثة جوار العائط. وقال:

- فيها كل ما يلزمني صغية كما ترى ولكن تعوي الكثير.

وقام وفتحها. وأخرج منها مربية تعتل. باللهواء فتصلح للنوم.
ولحاصاً يعتل. باللهواء أيضاً ويدخل الإنسان فيه ويفلظ حوله
سُست في الجنبين. وأشياء أخرى كثيرة. وقال:

- جئت في حُجرة منذ عام ونم أحد إذ مصر لقد وجهوا إنذاراً لكل
من يحمل هنا بلا عقد رسمي. أن يصحح موقفه قبل شهر رجب
اتلعي.

- لماذا إن لم تتعاند قبل الموعد؟

- لأنني قد أسلف في أي وقت.

وسكت ولا بد أنه أدرك ارتياكي. فقال

- كان من السهل أن اتعاند قبل القرار الأخير. الكفلاء يحبون
هذا النوع من العمالة الذي لا يوجب عليهم أي حقوق للمصال. بعد
القرار صار خطراً على الاثنين معاً العمل دون تعاند. لكنني لم
اتعاند. ما زالت أجد الكفلاء الذين يغامرون بنسختي. أنا أستطيع
أن أقوم بأعمال كثيرة أقلها الكتابة على الآلة الكتبة. لكن هذا ما
حدث. لذلك أنا لا أسلم من المطاردة. عند وصولك إل المطار كنت
أنا ضمن المقبوض عليهم لتحويلهم لأنهم يعملون بلا تعاند رسمي.
لكنني استطعت الهرب كل مرة يتم القبض عليّ أستطيع الهرب.
تأملته في غاية الدهشة قلت:

- كل هؤلاء أنذين كانوا محاصرين برجال الشرطة مقبوض
عليهم؟

- وأكثر منهم كل يوم يتم طرحهم

وسكننا قليلاً ثم قال:

- لا بد لك ستعلمني كيف استطعت الهرب
قلت في نفسي

- ما يدعشني كيف وأنت الشخص الذي يبدو مثقلاً متعلماً،
تقبل لنفسك هذا الرصع الصغير



وكأنما كُتِبَتْ لي هذه التوبة في لوح القدر لقد أحسست حين
وضعت قدمي على سلم الطائرة في حربي للمدينة، أنني سوف أرتاح
قليلاً من خوفي الباطن من تطور الأمور مع واضحة، تركتني لسك
بدها بين يدي في اندرس التالي ليوم رؤيتي لجدها، قالت صجدة ماذا
تعلمتني بهذه القصة؟ وكنت أنا أرفع صوتي بلا سبب في الحديث
كأنني أود تنظيرها من الأمر كله، رُئيت عري ظهر يدها فتركتها لما خذتها
لثام بين راحتي يدي، وأحسست كاز بينهما عصفوراً صغيراً يود
لوي يتلفس فلا يستطيع عصفور دانه، ينبض الدم مستارعاً في
عروقه، حائضي الحظ وتركت يدها في اللحظة التي سبقت دخول
خالد إلينا، لم يدبلي حين ذهبت، كان عند أ لموره من رحلة قصيرة
للرياض لم يدخل إلينا قط في أثناء الدرس، فعلها اليوم ودخل
بصباحي فارتعشت كما لو كان رأيي بالفعل، احتجبت إلى وقت
حتى أستجمع انفاصي بعد أن خرج وكأنتها كانت تعرف، كانت
تكتب وتبسم من خوفي وأرتباكتي

لذا حقاً لا أستطيع الابتعاد، ولا أخلق الانحراف من واضحة

بنت سليمان بن سبيل - إنها أصغر من كل هذا العناء - واضحة
 بنت سليمان بن سبيل عادت سرتها الأول. اليوم ضُبطت متلبسة
 مع المصري اسماعيل خضر موسى وسُزِجه وسُجِجه. لن يُزَعل من
 التلبس. سيُلقى به من طائفة إلى صحراء الربع الخالي مصري
 متعون مقر رئيسه الذي يدعو عليه المسلمون ليل نهار أن يموت لأنه
 وطء القديس بقدمه المقدسة. وجلس مع اليهود الذين آمنوا الله
 أن تقتلهم حيث سلفهم. يا رُجم الزاحمين. يا صالح سنيسور
 التليفي الخفي بفيلم آخر وذهبت إلى صالح. وكان لقلب وحده
 الخرج. وكان يكي. وصالح بسسه. يا صالح إنه ولد مسكين فراق
 فقير مريض الشيب يا أستاذ أنت لا تتدخل. هذا الفقير لا مسكين
 ولا فقير. هذا مصاب بزهري يا أستاذ. انظر إلى قدميه.. ملاجسه
 كنه ولا يقرن الكلب لقد مررت كل الشرائط وما هي الكوام أمامك
 وولعت اللبديو والتليفزيون من العرفة هؤلاء الأوساخ يريدون
 قتلي. اخرج يا أستاذ القعبة. وغالب بيكي بحرفة. وصالح يدفعه
 أمامه بعضا صغيرة حتى لا يلحسه ولا يلمس ثيابه ويعود يكلمني.
 هذا طرده أبوه من المنزل حين عرفت القصة عظم التليفزيونات
 السبعة التي في بيتهم وعظم أجهزة الفيديو. أبوه مهنون اشترى
 لكل ولد من أبنائه تليفزيون وفيديو حتى لا يتناصوا ولا يتهاوشوا.
 المشكلة يا أستاذ أن هذا الكلب لا يكتفي بالانفلام الجنسية.
 والزهرى يا أستاذ مريض خطير هل لا تعرف ذلك؟ اعرف يا صالح
 وهيا بنا نبدأ الدرس. لا درس اليوم يا أستاذ. لا تغفل. راتيك
 محفوظ من قال يا صالح إنني أستطيع أن أأخذ راتيك بلا عمل؟ ومن
 لك يا أستاذ إنني احتاج الدرس أنا لنجح. يأتي الدرسون قبل
 الامتحانات إلى مخزننا. يأخذون المطالبات والثواب الحرير

والصيف واتجه. لا تنظر إلى عمري أنا أرمع مرارتي. يارادتي لا أذهب للامتحان. أعطي المدرسين ما يريدون وأخذ ما أريد ولا أذهب للامتحان أبي رجل حمار يأتي لي كل شهر بمدرس لأطعمه. أنت أحييتك وسأطلب من أبي أن يعطيك واثياً أكبر بشرط أن لا تدرس لي يا أستاذ. اجلس نتحدث في أي شيء إلا التمرس. ومشيت والظلام فوق الدنيا أكثر من كل وقت. وركبت سيارتي ولم انتبه للطريق الذي اخترته. ورايت المنزل الموقوف به سيد الغريب مظلاً كله خارجه وداخله. ومطلق الأبواب والنوافذ. ولا صوت إلا صوت نوايات الخيل العالي بحركتها الهواء برتابة. ومشيت فوجدت نفسي في شارع ضيق لكنه مضاء بمصابيح صغيرة أعلى أبواب البيوت. ورايت غلب في أحد الأركان ممدداً. وقد أسند ظهره إلى جدار بيت قديم. ومد ساقيه على الأرض. وحوله وطوق ساقيه تتلخز القطط. فاحسست بالقرف من كل شيء. وفي البيت لموافق سعيداً ووجيهاً واستمر في المهولة. قلت لوجيه ما كان عليه أن توشعني للدرس مثل هذا الولد. وقلت في المسببة أنس فقللاني البطاجي. قل: هنا يا حسيني اسماعيل تلفت المطارات بالأعلام والمضى تندرج أمام أرجل الطامعين فريبة جداً من أيديهم لو انحنوا. كل شيء في الدنيا نجده هنا. لعب أطفال هوج كونج جوار بيض رومانيا الشيوعية وملابس نايفون النظرة جوار دجاج بلغاريا الشيوعية أيضاً ومطور باريس جوار ساعات كوروا المزينة والياباز القوية. هنا تباع كل العملات وتشتريها كما الشهيق والزفير هنا شرطة أيضاً للبرامت الصليحة أما الجرائم الكبرى فغالباً يعزونها للظلام. هنا نهر متدفق سير لا يعترضه جندل ولا شلال. نهر من المكاسب فقط عليك أن تغفل من عمرك بعض أعوام تنسى فيها أن يكون لك

عسقي. ان تحب احداً وان يحبك احد ان تكون مثلي راضياً بكل شيء ولا تفكر حتى بما تأكل جينة شيدر من اسناليا أم جينة حلوم من قبرص. لحم ضأن من الألبان أم ضأن محلي بلا طعم. أنا رجل وثق عند فكرة فوقت الدنيا أمامي. كان ذلك منذ زمن بعيد جداً. قبل ثورة يوشيو. حركة الجيش. وكنت نم انتبه بعد من دراسة لقانون الجامعة. قامت الثورة وأنا في السجن فأخرجوني كما أخرجوا كل الوطنيين. لكنهم علموا وأخذوني عام ١٩٥٤. وكنت انتهيت من دراستي وتزوجت. وقالوا إني من الإخوان. وأخرجوني بسرعة حين علموا ان ملفي عندهم. ملف الملكية الذي تسلمته الجمهورية الفشية. وعلموا وأخذوني عام ١٩٥٦ لأسهر ليلة وقلوا شيوعي. وأخرجوني قبل العدوان بأيام. فذهبت المختل في القتال. وعنت بعد الحرب وسئمت سلاحني "تعرف" قليلون هم من سلموا سلاحهم. الكثيرون باعوه أو هربوه. وعلموا وأخذوني عام ١٩٥٧ ونم أخرج بعد ذلك إلا عام ١٩٦٤. وأبت اسني الذي صار عمره تسع سنوات. وأبنتي التي صار عمره سبعة وأخذوني عام ١٩٦٦ وأخرجوني بعد النكسة بشهور وأخذوني عام ١٩٧٠ وانتهى دور جمال عبد الناصر معي وتسلمني السادات الذي أفرج عني وعن غيري وتركني في الشوارع أربعة أعوام ثم أخذني عام ٧٥ في أول أيام السنة وأخرجني بعد ثلاثة أشهر ليأخذني عام ١٩٧٧ ليخرجني وأخرج أنا من مصر كلها.. هل كنت احتاج حقاً الى كل هذا الوقت لأكره الوطن؟ أم لقطعت لأن زوجتي حرّكت انشقة الى روضة أطفال استعاضت بهم عني. وعن ولدنا الذي يعيش في السويد الآن. وبناتنا التي تزوجت مدرعاً معارفاً الى الجزائر؟ أنا لا احرف لماذا كتبت الى هذه البلاد دون غيرها. كنت أدخل وأخرج من

السجون لكثرة قوة رغم كل ما، لكك سمعت عنه، من مأساة
بالسجون، زوجتي فقط هي التي انكمرت، تدهورت وشابت بسرعة
وشاخحت المرأة كالارض بلا ري تتشقق. لا تسألني لماذا لم أسافر
الى لوروى كما فعل الكثيرون، ولا لماذا لم أذهب الى بلاد عربية
اخرى وأخذ صحيفة وإذاعة واستم.

وبكى ولم يتوقف منا زوشي غبي يستمرى العذاب. رفضت أن
أتعاف مع أحد لأظل مدرساً للترجيح مريض أنا، متفوق في مرضي،
يستحيل علاجي، لم تزانى اود فعلاً أن يعينني الى بلدي أحد، أن
يجبرني أحد على حب البلاد* لم أكن شجاعاً أبداً يا اخ اسماعيل
ولا طبعاً كنت من الاخوان بالقوة أدموني السجون فقط لأنني
بدلت حيلتي بحب الوطن.

واجهش في الهكاء بصوت عال. فقلت من فوق سريري مرتبكاً
وجلست جواره فوق سريره.
- هون عيني يا استاذ كامل.

- هل تعرف لو عرفوا عني شيئاً هنا كم سيفاً سيجري فوق
عيني* هنا النملة لو شربت من طريقتها ستجد لولها ألف قدم هنا
لو أذن الديك قبل الفجر ما رأى فجراً بعد ذلك ولا صباح. هنا لائحة
(انت مرق الجحيم) لقد فعلها السادات وضيعةا جميعاً معه
رجل واحد الضاع لمة، أي قطع؟



لم أسمع المتاجري بعد ذلك إلا لوب الفجر. نعماً وأهسست قبل
النوم بشعب لم أعهده. اختلط أذان الفجر الذي أيقظني بشعب

مكتوب لم تثبت من صدره إلا بعد الحقائق. ولم استطع التنبؤ
للحديث معه مرة أخرى. خشيت أن أخجله. وظلت على وضعي
دائماً وعمر النظام انقضى. تذكرت ما فكرت فيه قبل أن أقام القصة
لها جوانب خفية لم يلم بها. ثم ما الذي حققاً يجعله يشعر كما لو
كان هو الذي يفلح من القطار تحت العجلات كلما قرأ رواية مائة
حدارة؟ لقد تمنيت لو حدثني في الرواية مرة أخرى. وددت لو قلت له
اني كنت مشروماً صغيراً لكاتب للقصة أيضاً إلا اني نسيت
طفتي رسالة أبي في الدنيا بين السماء والأرض. وأبطل الفضاء
كل الكتب والأوراق والأقلام. تكن داهمني بمكايته. ياله من عاجز
مستكين! ان أعظم ما أودعني الله هو النسيان. لولا نعمة النسيان
لحرت منه فلكر منا سجن ضيق فيه شيئاً عزيزاً حتى ولو لم يطل
سحني.

ونمت من جديد ورايت. أديك الضخم رأسه هناك في الاعالي
ومرته في السماء السابعة وجسمه ممتد الى الأرض وجناحه بملآن
فضاء اندنبا بالألوان الزاهية. ثم راح يضرب بجناحيه الهواء فتهب
رياح راعل صرير ويصير برد ثم يسكت فيصير حر ويعود يخلق
بجناحيه فيندفع الهواء البارد يكثر يجمدني أنا الذي انظر اليه من
اسفل في مزج ثم يسكت لحاكم غرق في بحر العرق واموت وأحس
كما لو أن أحداً يمسك براسي يضعه في برميل ماء فليقتل واضرب
بذراعي الهواء وفي اللحظة التي تكلم فيها الروح ففر مني يرفعني
فتواتر انقاسي ويصيح الديك كوك كوك كوك سبعان تلك القديس
كوك كوك كوك سبعان تلك القديس وإذا براس الديك يسقط فوق
صدره ويندلع الدم بعلال الفضاء بلون أحمر وتغرق الأرض في

الاحمرار واسمع ضجة في الخارج . فلأصحو فزعماً فلا أجد الباتلحي
ولا حقيقته ترك لي فقط رواية (ليس في رصيف الأتجار من يجيب)
وصوت عجلات القطار

هنا يمكن للإنسان أن يفنى كل شيء. أدرك ذلك جيداً. الوقت
المرهق مثل الوقت المرحوم. الإخنان يعرفانك.

كان عليّ صباح وصولي إلى نيويورك أن أبدأ في تحرير استمعارات
الضمان الاجتماعي التي أحضرتها من المؤسسة الرئيسية في
السينة. لم أبق في المدينة غير نهار اليوم الثاني. ذهبت في صباحه
إلى المؤسسة وأخذت الاستمارات، وفي مساءه أخذت الطفرة
هائداً.

كثيراً ما فكرت أنني سأعطيهم بلبلتاجي مرة أخرى في الطريق،
وربما في المطار. لكن هيبت. كأنما كان حتماً. والآن وأنا جالس في
غرفة مكثي أملاً خائفاً الاستمعارات ببيانات العمال لا يملقني
وجهه. وجدت نفسي أتوقف عن العمل. ألف وأتعد عن المكتب،
والسهر في الحجرة أعصر ذهني، لا أتذكر أين رأيت وجه البلبلتاجي من
قبل. في الصحف. أجل في الصحف المصرية. كل ذلك منذ سنة..
سنتين. ربما ثلاث. لا أنكر بالضبط. رأيت أكثر من مرة. في أي
صحيفة ولاي سبب؟ لا أتذكر.

وجدت أجلس إلى مكثي غير قادر على مواصلة العمل. مكثي

إنّ أنسى هذا الرجل مرتين متبوعاً بنفسك أمك وأبيك. مثل حليقي هنا لا يحتاج المرأة إل أكثر من يوم واحد من السيان ثم ينسى إل الأبد. لا أحتاج إل أكثر من دقائق مع منصور حتى أنسى كل شيء. إلا منصوراً دقائق مع نبيل هأنسى كل شيء. إلا نبيلاً، أو أريد كذلك وسأذكر نظرة إل اليمنى الذي سيقيني إل موعد. يحرك السموك في فمه، أو مولف سخيّف من عابد. لكن تبوك كانت أكثر. اضاء باب الغرفة برجه متعلق وشعر أشقر حرير وعينين زرقاوين باهوتين. امرأة سيطرة الوجه. ثقف الحجاب. تنظر إل باهتسلة وانفحة. امرأة حنيفة ترتدي بنطلون الجينز الضيق ولوحه بلرزة حمراء البياض ويلوغر أزرق. وعلى كتفها ظهرها شلال أبهر. ووجدت نفسي ألف.

- غود مورننغ.

قالت ودخلت وجلست أمامي وسألتني ما إذا كنت أعرف الانكليزية كل ذلك في وقت واحد تقريباً. ولم تكلم من الغفر إل باتساع باهر في عينيها بدا أنها تكاد تضحك من ارتباكها وقالت إنه يمكنني أن أجلس، واكتشفت أمي ما زلت والفاً اجلس، وسألتني أن أطلب لها غنجاناً من القهوة من مستر نيل. تعرف نبيلاً إذن

وتسأطت هي

- أين مستر عابد؟

- في مكتبه

- ليس هناك.

- لا بد أنه خرج لأمر سريع وسيعود. هل من خدمة أؤتيها لك؟

ويظهر نبيل عند الباب يتشمم، ويقول بدهشة، مصطنعة،
ويصوت تمثيلي عال
- أوه مسر روز:

ضحكت هي، وابتمتُ أما، ودخل هو بها معها. أعطت يدها
دون أن تتحرك، مابقاها قليلاً في يده وهو يخلطيني:
- روز ماري زوجة مسر لاري. أحمل اجنية في البلاد.

ترك يدها، فعمزت في بعينها، وعزّت كتفها وسألني عما يقول.
ترحمتُ لها الكلام فضحكت وقالت
- لاني المرأة الأجنبية الوحيدة هنا.

ابتمتُ وبدا لي الأمر سهلاً. هذه سيدة بسيطة تعطيك
الإحساس بالآلفة. وسكنت نبيلاً أن بعد لنا فنجائين من القاهرة، ما
كاد يفرج حتى فكرت كيف تعرف نبيل حقاً. مضى علي ثلاثة أشهر
هنا ولم أرها. هل تأتي في موعد آخر بعد مواعيد العمل؟
- هل أنت حديد هنا مسر...

- اسماعيل. لي ثلاثة أشهر هنا
- أسفة لم أرك. لقد سافرت إلى أمريكا الأشهر الثلاثة الماضية.
- هل تعني هنا؟

- مسر لاري زوجي هو الذي يعمل. العمل ممنوع بالنسبة لي
أعمل بشكل خفي وشري في حضانة مسر عبد الله.
- لا أعرف أن لمسر عبد الله حضانة

- له حضانة مشهورة بالبلدة تديرها زوجته. كيف لا تعرف ذلك؟
وضحكنا فاجبتُ

- ربما لأنني أعزب.

واستمرت تصيحك. وقالت إن زوجة مستر عبد الله ضئعة جداً رغم أنه ضئيل للغاية. وهي لا تكلم عن أكل اللوز طول النهار. مع أن هذا خطر جداً على الصحة. يدخل نبييل بالقهوة وقبل أن يخرج سالها

- أميكا إذ غود روز؟

- غود نبييل فيري عود.

وضحكنا ثلاثتنا ثم خرج نبييل الذي أحمر وجهه بشكل لافت للنظر. مضى رابت طويل ونحن نتحدث. حاولت هي أكثر من مرة الانصراف، وأنا أشجعها على انتظار عابد، فتستمر جالسة. وأتمنى أن لا يعود عابد. ولا يدخل مكتبي أحد. وإذا بالساعة صارت الواحدة. ولم أحسن حتى لإبتسام التيمني الذي رأيته فجأة فتذكرت أننا لم نتبادل الابتسام اليوم. وتبادلناه على الفور. وإذا بعابد يقف بالباب.

- هالو روز.

هتف وهو يدخل يصلحها. انصاحته وهي جالسة. ولحت الضيق على وجهه. وقال
هلاً تيت إلى مكتبي؟
وقفت وقالت:

- لا بد أن أذهب الآن إلى الكافيه ليس لدي وقت أكثر من ذلك. أحببت فقط أن أراكم.

وانطلقت خارجة بعد أن صافحتني. ولوحت ذهبت بكلمتها. وسألني عابد فجأة

- قم يسأل عني أجد -

- روز -

لا أعرف كيف قلت ذلك نظرًا لشؤراً. وخرج إلى غرفته. وأنا
أشعر بالأسف الحقيقي على أجابني بهذا الشكل الذي لم أخطئ
له.



على المكتب الاستعارات السخيفة التي كنت أملكها وأريد أن
أقضي بها كلها في الباحة..

روز لم يسمع اسم جميل بحق. لا يزال في الغرفة شذا عطرها يا
الهي! كم هي خفيفة كريهة منتشية. كمصنوعاً مجنوناً صريحة
دهشت لكل أجابني خويج فلسفة. ويعمل مدرساً للغة الانكليزية
في مصر. وهذا مسؤول عن شؤون الأفراد أي خلط لكن هذه
حاشي بالقبض وأنا فيها غير مثقفة بين المصريين. ستجدين هنا
عمل محلة وقبشاني من حملة المظاهرات العليا. هذه حالة مؤسسة
لكن هذا ما يحدث عن كل حال. ولم أشأ الاستغناء. هذا وقت
الانكسارية فيه طُرِدت من الدرجة الثالثة والرابعة العليا وسألتها
أمامها بسياط السفرية ميزان العقل مفضل في بلادنا. ولعله كذلك
في بلادكم والأهلاً! جئتم لنا عذراً وليس لكم العذر البتة سيد
هذا الزمان يلف عند باب حدودنا الشرقية والغربية ويقول أرض
مصر أرض حرام. مؤامرة جعفرانية هل يصدق ذلك أحد - أنا
أصدق. فاللؤامرات تعدي - أشأ ببلادنا. وإن لم يفعلها العدو
فعلها نحن. لدينا والله وقت كثير لذلك. وندينا صمغ ومجلات

أجمل، والشمس كانت بيضاء تغطي الدنيا بذهب جميل. لقد بدأ
البرد يشتد بالليل هذه الأيام، وصارت الشمس تصحو معنا مَرَهقة
تسعد إلى السماء في مهل، ولا يبدو أنها امتلكت الغطاء إلا عند
الظهيرة. تكن البرد بالمهمل ليس فارساً من أي حال تركت مكتبي
والبهجة التي تركتها رويد في الحجرة لا تزال تضحك في وجهي،
ودخلت البوغيه فوقف نبيل فرحاً.

- لقد خرج عابد إلى البلدة. كيف ستجلس هنا؟

- ما الذي يمكن أن يحدث فليطون غيبي الطلب أكثر غباء، هل
لديك مقعد آخر؟

كان حين دخلت مجلس من المقعد الوحيد، يقرأ في مجلة الوطن
العربي، ويوشك أن يبتكي، على الصفحة، أدركت أنه ضعيف
النظر كثيراً. قال

- اجلس أنت على هذا المقعد وسأجلس أنا على الأرض

تكلم واقعي في الحال، والمجلة لا تزال في يده، جلست وقال

- بوغيه على قد الحال، لا تلنني.

كان البوغيه صغيراً للغاية ولذراً، يذكره ببوطيهات المصالح
الحكومية في عصر دولا ب معدني صدء صانع مطلق على الحائط
بلا أبواب، وصل أرففه الثلاثة على وبطرماتات للشاي والسكر
والقهوة، رتعت الدولا ب بوتغاز مسطح فوق منضدة خشبية، يبدو
أن نبيل هو الذي صنعها من خشب قديم غير مهذب، وعلى المنضدة
أكواب وفنجانان. وفي الزكن الآخر من البوغيه ثلاثة «رستغ
هاوس» كبيرة بيضاء.

- شيء غريب يا اخي' يشعرون الصداقات شديدة لطيفة. كل
المجلات هنا تشتم السادات
- هل تحب السياسة؟
- ابدأ عامد بشعري انجلت ولا يقرنها فاقراها اذا.
فسكننا وعار بنكلم:

- بلونون إنه يجب حرب لينزل. وضياح فلسطين. وصل
للأميركان. اما اعرف ان عيل للاميركان. كل شيء في مصر أصبح
أميركانياً تلاجلت وفسالات وملايس. أنا مثلاً ان تشتري شيئاً من
هنا لأن كل شيء هناك - وسكت لحظة ثم ضحك وضرب جبهته بيده
- إنهم لا يقصدون ذلك. عيل يعني جالسوا
وضرب الأرض بالمسطة وتركها ووقفه بساكني
- تحري شاي؟
- نهرة.

أجبت وأنا اضحك. وتنازلت المجلة ألق صفتاتها بينما
انشغل هو بإعداد القهوة التي قدمها لي ولعل.

- الغريب انه حين توى السادات في التليفزيون يصعب عليك
يذكرك أحياناً بفؤاد الهندس - أي وأله. لكن - فلسطين خاضت
من زمان. وحرب لينزل فائقة من زمان أيضاً. أمقول ان السادات
هو السبب؟ بلا سياسة - بلا نيلة.

وتناول المجلة التي كنت وضعتها على الأرض. وراقها ووضعها
في سلة المهملات. وأنا اضحك حتى دمعت عيني. وسكتنا طويلاً
حتى نال.

- والذي الله يرحمه كان له في السياسة.

- أبوك؟

- أظن المسألة واضحة يا إسماعيل.

ضحكنا وأنا لم تكن أقصد شيئاً. أدهشني حضور بديهة
وطريقتي في الكلام اليوم.

- زعماء. زعمان جداً كان أبي من الإخوان الذين اشتركوا في
حرب فلسطين. هاد مططوع الذراع والطاق أبي وأخته. السائق
اليمنى والذراع اليسرى. شيء، لن يصدقه أحد. لكن هذا ما حدث
- وبدأ جلدأ مجاعة - كلن سعيأ في تعلية الاسرة. لا يحزن ولا قسرة
ولا أحد يسأل قامت الثورة ولم يبن للأخوان قبيحة. هكذا كان يقول
أبي. وهكذا حدثني أبي فيما بعد. أنا ولدت يوم قامت الثورة.
اليوم نفسه لا تسألني كيف استطاع أبي تلك لما أشبهه تماماً
وأكثر أخوتي شبيهاً له. صورته لدينا معلقة للآن. كان لي خليل
مجنون يسامعنا ويأخذني إلى الإذاعة في عيد الثورة. بعد أن
أصبحت قادراً على المني والكلام. كان هناك أطفال كثيرون يذهبون
في اليوم نفسه. أطفال كثيرون جداً ولما يوم الثورة كلنا يذهبون
إسمائنا ويعطون كل طفل باكوشيكولاته ونصف جنيه. أبي قالت
جنيه كان خالي يأخذ الفلوس ويعطيني الشيكولاته. ما علينا. لا
تخسك من نفسك. هذه حقائق وليست قصصاً. صدقني جاء يوم
كان أبي كعادته ممدداً في حوش البيت الواسع يتشمس كلن
الشمس يطلع فيخرج اخوتي الأكبر مني للعمل. ونخرج أبي إلى
السوق. وينزل أبي إلى حوش البيت. وأنا لعب حول. بيتنا لديهم
جداً من أيام المملوك حجراته واسعة تسكن في كل حجرة أسرة

كاملة، والبيت بوابة ضخمة لها سلفتان من جنوع الأشجار المحلطة بالحديد. بوابة مفتوحة لا يمكن لأحد أن يعبرها لأن التراب علا حولها من أسفل تصور أنه فوق البوابة توجد سورة الفاتحة منحوتة في الصائط بلون أزرق باهت رشحها خان المنجدان . ولا يوجد اسمه. يوجد فقط اسم الذي بنى البيت العالم محمد إبراهيم وولده إسحق ويحيى. هذا مكتوب على البوابة . لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك وسكنا في شقة مستقلة في الحي نفسه حي المذبح بامبابه. كنزنا وصرتنا رجالاً. ثلاثة أخوة وأربع أخوات واحد من أخوتي في السجن الآن كان مولوداً بغيره واختلس ثوبه التوفيق أي والله لا تضحك. (نعوذ إلى أبي). في ذلك اليوم القريب جداً دخل حوش البيت جملٌ هائج جملٌ كان كونه طائر. داس فوق أبي الذي لم يستطع الحركة ولا للصرخ ربما صرخ ولم يخرج صوته. أنا كنت في طرف الحوش لصرخ. وأنجل يدوس فوق أبي مرة ومرة ومرة يتراجع ويهجم على أبي رافعاً سلقه الاماميتين. وأرى خلفه عربضين أسودين يدوس بهما على أبي الذي يرفع ذراعاً واحدة لا تصل إلى عنق الجمل وساقاً واحدة لا تصل إلى بطنه. لقد خُزجت النساء من الحجرات، والأطفال، ووقف الجميع يصرخون. ثم يكن هناك رجل واحد. كل الرجال كانوا قد خرجوا يعملون في المذبح القريب. ورجاءً ففز إلى الحوش خمسة من الرجال مغربين منكوبي الشعر كأنهم الجنون الضمر بمسكون حبلاً وسواطير رسكاكين، لكنهم وقفوا مذهولين. كانوا هم اصحاب الجمن، وكان الجمل ينهد من أبي على خطفه ريدٌ كثير، وأبي شخر ولم يعد يرمع ساقاً ولا ذراعاً. وقف الجمل يتنفس متعباً. ثم اتابع بهيمه على الأرض والزغاء على خطمه ينثال على التراب ثم مدَّ عنقه

كمن يتام وانقلب على جانبهِ . والرجال الجنون الحمر تقدموا منه
بحذرٍ وعقوره من وقته . وجرّوا الى الخلف . لكن الجمل لم ينهض
ولم يهتج . فقط وفس رفستين وسكت مثل أبي

وسكت نبيل طويلاً . أطرق بنظر الى الارض بخفي دعاءً يحلّول
الانسيار . ثم رفع الي وجهه وهو يمسحه بكفيه . واجتسم وقال :

- عملت بنصيحتك . لم ارسل لخطيبتى شيئاً هذا الشهر لم
يصنني منها خطاب بعد . ايضاً لم ارسل لامي ولم يصنني منها
خطاب .



عدت الى حجرتي اشعر ان شيئاً ثقيلاً فوق كتفي بكاء يحني
ظهري . وكان التيمني الجالس في الشمس ينتظر نظرتي اجتسم . لم
اجتسم وكنت اقرب منه . لو لو صرخت فيه هاتفاً : لماذا تخطيني
كل يوم بانضمامك البلهاء من الذي اعطاك حق الجلوس بلا عمل ؟
ماذا تعرف هنا عني حتى تجتسم لي ؟ لكنني دخلت الغرفة وسمعت
صوت سيارة تدخل الباحة مسرعة . لكن من يكون فيها . لدي اجابة
جاءة على السؤال المسطيف . لم يتصن احد بعالم عن شيء في
غيابك يا عابد ربا عم عبد الله . لكن الذي منغل الغرفة كان مهابداً
ومعه شاب مصري يرتدي بذلة أنيقة . وله وجه حسن . ونظارة
بيضاء . وشعر اسود مهذب . ويعمل حفيوة سمسونيت لامعة .

لم يصنني عابد عن شيء . جلس خلف المكتب المجاور للخازنة .
وجلس الشاب الأنيق امامه . وجلست انا الى مكتبي
- الاستاذ اسماعيل . زعمنا .

قال عابد للشلب الذي قام بحالطني بدعائه ثم جلس.
وخطبني عابد

- الأستاذ عبد الحميد مندوب بنك الملنا جاء إلى هنا لترويج
سندات بنكية، هل تحب الاشتراك فيها؟
- ليس الآن.

- أنا كنت أعرف - وخطب المندوب - أنا سأقترع بعشرين ألف
دولار.

قال ذلك ونظر إليّ، وفتح المندوب الحقيبة يخرج الأوراق فقلت
وتركت المكان كله. كان عابد بالقدرة ويستطيع إنهاء الشراء هناك،
لكنه أثار بالمندوب لجد لي ما تصور أنه إهانة من روث هاري التي
جاءت تسأل عنه فجلست معي، ووجهت لي الدعوة أمامه، ولم
تذهب معه إلى حجرته.



أخذتني قدمي إلى الجراج. ورأني أرشد ونحن نطرب الشاي
أعملق في طبعة جريدة (الشرق الأوسط) الانكليزية الموضوعة على
المضدة بيننا.

- لا عليك مستر اسماعيل. هذه مشاكلنا في باكستان.

قال ولم يأخذ الجريدة ولم يعتذر عن وجودها في العمل. لم يعد
يخشي جانبي. في الجريدة مقال يشغل مساحة كبيرة عنوانه «الراي
العام يضغط من أجل انقلاذ بيثوه». وكنت أعرف من المصطف

والإذاعات أن بوتو ينتظر محاكمة ثانية بعد أن قدم التماساً بإعادة النظر في حكم الإعدام. قال

- ضياء الحق يطبق الشريعة الإسلامية الآن. إنه يستجدي المملكة السعودية منسراً اسماعيل.

سألت

- هل تعتقد أنه سيعدم بوتو فعلاً؟

أجاب

- سيفلته. ولو استطاع أن يفلته مرتين للفعل منسراً اسماعيل..

ودأبت نبيلاً يدخل مضطرباً إلى الورشة يخلطني.

- تعال بسرعة. عم عبد الله يسأل عنك

سجلني في العيادة ومشيت خلفه مسرعاً. أصابني بدوي الهلع

الذي كان في عينيه، لكنني فكرت هل يتصور أني مهمم
بالسياسة إلى هذا الحد. وفكرت أيضاً كيف فسد اليوم كله.

١٤

اشتد البرد. المزمع هو الثاني والعشرون من ديسمبر. في الصباح نجد المياه في الحنفية مجمدة. هذه حالة لا تحدث إلا في البيوت العربية المكشوفة التي يخل الطلّ بنام في ردهتها طول الليل. المشي في الزدعة الصغرى من الغرفة إلى بورة المياه كأنه سباحة في بحر من الثلج. التليفزيون الآن له طعم مختلف، لا يذكرني بأن الدنيا أكبر مما حولي. يشعرني بالدفء. نشاهد برامجه في غرفة فاروق الخليفة.

- أسأنا في حاجة إلى شريك رابع.

قال ورجيه.

- نجعل غرفته غرفة معيشة.

أريف سعيد. انقطعت أخبار فاروق تلعلاً. ثم يرسل إلينا ولم يأتي له نكرو في خطابات اسرتي. ومضت ثلاثة أشهر هي مدة الفيرا التي خرج بها. لن يعود.

نقلنا إلى غرفته منضدة جعناها سفره وبعض مطاوع وشركنا مريره كما هو. أخبرني أن يكون صوت التليفزيون علماً وبدء سعيد ورجيه. أقول إن موجات الصوت تزعج موجات البرد

وتطردنا من الغرفة. يقولون أنني داخل من مرحلة من الجنون، ونفسك. في الساعة والنصف صباحاً أغادر البيت أجد سيارتي امام الباب مفسولة بالندى. وكل يوم نملأ الفضاء ضارباً كتيفة لا تنلج قبل التاسعة. بعد أن أدخل إلى سيارتي مرتجفاً وألق بلبها وأديرها أنتت بغار الماء من فمي. وأتذكر مبارياتي مع الأطفال في طريقنا إلى المدرسة من الذي ينفث بغاراً أكثر لوت أحول. كل يوم الآن العمل ذلك واضحك. اليوم اختلف. سمحت أشعر بفثيان. ذهبت إلى الحمام وبقيت فيه بعض الوقت استجيب للرغبة في القيء ولا يحدث. عدت إلى الغرفة غير قادر على الوقوف. تعددت فوق السرير وسحبت الغطاء فوقي فكرت ألا انجب إلى العمل لكنني ذهبت. مضت نصف ساعة وأنا متروك بين الذهاب والبقاء فوصلت متأخراً.



- أين أنا؟

روايت الأشياء رمادية وأتساءل ببيضاء. وميزت من بينها وجه عابدة قريباً مني.

- لا تضع يدي فوق الجرح. لقد مزّت بسلام.

سمعت صوتها أذكر ذلك وأنا استيقظ للمرة الثانية هذا هو الدكتور وجيه يجلس على مقعد جوار رأسي يبذل شفقتي بقطعة فطن مفسوسة بلداء وأنا معد فوق السرير. في الغرفة ثلاثة أسرة أخرى عليها ثلاثة رجال نائمون لا أرى وجوههم. أنا في المستشفى والوقت ليل فنور الغرفة مضاء.

- ماذا جرى يا دكتور؟

- لا شيء، دأمتك الزائدة الدودية فلستأصلناها.

- معقولة؟

- ذلك يحدث للناس كل يوم.

- أنت الذي أجريت العملية؟

- كنت نخب أهدأ فبري؟

- لا، المكركج جداً

وأحسست بأسفلي، لم أقصد من سؤالي شيئاً، وقال

- لا أتحدث كثيراً، الأفضل أن ننام نحن الآن في منتصف

الليل في الصباح أحرص على أن تمشي قليلاً.

ثم ولف وقال

- يوجد طبيب نوبتجي بمدرسة إذا احتجت شيئاً، جوارك زر

جرس أحفظ طبعه، هل تطلب شيئاً قبل أن أمضي؟

- أمين عابدة؟

- تعمل بالنهار ألا زلت تذكرها؟

أجاب وأنصرف هل أتفود ولم ينس إطفاء النور.

ظلمت بظناً في غلام الغرفة، اذكر الآن كل شيء، لقد وصلت الى

العمل متأخراً، فأخبرني عابد بفضب عم عبد الله وكيف اضطر هو

الى فتح مكتبتي لاخراج زهر الحصور للعمال، ولما سألته كيف فتح

المكتب قال علي أن لا أنسى أن المكتب والغرفة كلها كانت له من قبل

حاصرني الضيق وأحسست بمنفس مغلق، والراحبة في الحفي.

ملودتي، والغثيان كله يفقدني توازني. تسرعت الى دوتة انياه ووقفت امام الحوض الفرج ما في جوي، ونم اكن تناولت إلطاري بعد. خُيِّلَ الي أن معدتي ستقفز من فمي، وتنفُصُ عرق شديد على جسمي. واشتعلت الحرارة في وجهي، ولم تعد قدماي تستطيعان حملي. فلمسكت بحفنة الحوض بيديّ الانتنتين. ولم أبر بعد ذلك إلا وأنا استيقظ في المساء في المستشفى. لا بد اني سقطت على الأرض رائدة ملعونة بحز تلك التي أخدنتني بفتة بلا إنذار هل يكون انوث مستغلاً عن الوقت الذي مضى وأنا مُخنَّرة فيه لا اشعر بشيء؟ لا أظن. الموت سهل إذن. لا ادري لماذا فكرت في ذلك الآن. ربما لأنه المستشفى الذي مات فيه فيليب منذ أيام لقد ظلمت لسرع خلف نبيل حين ناداني وأنا عند أرشد، وعند بوابة الشركة توقف وقال

- مات فيليب. عم عبد الله حزين جداً.

والم يقل شيئاً آخر. انصرف إلى الجوهي وتركني اتقدم ببطء إلى غرفة عم عبد الله ذاهلاً رايت على وجهه غيظاً مكتوماً. قال:

- منو لفيليب مكلفاة نهاية الخدمة شهر ونصف عن كل سنة وأخبرني كم بصير له.

كنت أعرف ان فيليب أو غيره يستحق مكلفاة نهاية الخدمة شهراً فقط عن كل سنة. ولاني أعرف ان فيليب يعمل منذ خمسة أعوام قلت:

- سبعة وثلاثون ألف ريال ونصف.

- امشاكه؟

- أجل، كان ملفه على المكتب في الصباح أمامي أنقل منه بيانات لاستمارة الضمان.

- اجعلها خمسين ألفاً. قل على مسؤولية المدير - ثم خاطب عبد الذي كان يقف جوارني - رانند تذهب في الصباح بالمكثفة لزوجته. تنصرف الآن لتجهيز الصندوق الذي ستشحن فيه تجة إلى سيلان. تبيع ثمن الشحن وثمن للذاكرة لزوجته وأولاده واحجر لهم على أقرب طائرة.

- الآن يدفن هنا في المملكة.

تسأل عابد، فصرخ فيه عم عبد الله

- ايض يعني يُدفن بالمملكة؟ لأنه أسلم؟ يدفن في بلده بين أهله.

وسكت فاصرفنا وأنا أشعر بالرتاء لعابد الذي يبدو ملكياً أكثر من الملك.

دخلت غرفة مكتبي وجلست صامتاً. وإذا بمنصور الذي يخفي كثيراً بشهر داخلًا والقرد فوق كتفه، ويقول بعد الجلوس

- هه: كان يريد الحصول على الجنسية كان يريد البقاء في المملكة تنك نفسه. ذهب اليوم للشيخ بالحكمة ليشرح إسلامه. انتهى كل شيء. وحولوه إلى المستشفى للفتان فمات.

- ختان؟

- طبعاً ما في ختان في مصر.

نظرت إليه غير قادر على التخلص من معشيتي واستطرد:

- ختان رجل مثل فيليب ليس سهلاً عملية جراحية.

ثم اكتف بما سمعت. ولم يكن أحد يعرف شيئاً آخر. في البيت

سألت وجهها فلم يقل أكثر من ذلك أيضاً ولنا لا اصدق . وجيه اندي
لا يريد أن يوضح لي كيف مات فيليب يخفي عني أمراً . وجيه هو
الجراح الأول بالمستشفى . ما يدري أنه لم يخطئ . وتسبب لي
موت فيليب . لكن هل يخطئ ، طبيب مثله في الختان ؟ لا لأن أن روح
الفازي المتعالي صاحب التميز نجد لها وسيلة للتصحر في غرفة
العمليات . غرفة العمليات مثل غرفة العبادة . يعمل فيها الطبيب
باخلاص في المريض الذي أسلم له روحه . أيكوز وجيه سيئاً الى
هذا الحد ؟

صرت انظر إليه ويتعاضد هو نظراتي . لعله فهم ما أفكر فيه .
ولعل ذلك هو الذي جعله يسلطني اليوم ما اذا كنت أحب لو أجزى
لي العملية أحد غيره

لم استطع أن أتقبل موت فيليب بسهولة . صرت عازباً في العمل
عن الكلام . وفي مساء ذهبت الى واضحة . فقالت

- ملأنا تهبوكتي على غير ما يراد يا استاذ . هن ثيابك بلأدنا
الى هذا الحد ؟

سكتُ تأملت عينيها . فأرخت أهدابها لولها . لكن كلن لا بد
أن ترفع الأهداب اذا لا أني إليك إلا بدوحي منجدة لنحضور . لا
وقلي فرح جذلان . لكن دائماً ما يحدث شيء يلقي بالاختناق .
وحكيت لها قصة الطبيب المصري الموقوف الذي رايت بيته في
الطريق مرة فعاشر الدم من وجهها . وحكيت لها قصة فيليب .
فأبسمعت لي غعل قالت ذلك بعدت لي كل الدنيا ومعتساء . ثم
قالت بغضب إنها لا تفهم معنى دخول هؤلاء الناس في الاسلام .

ولا تصدق أنهم حين يعبرون إلى بلادهم يحتفظون بالإسلام. تفهم هي بنت البلاد بحسبها الطوي كذب الأمر كله. بالضبط كما يلهمه منصور. لكنني أرى في حالة لينيب بعض الصدق ولا أستطيع الدفاع رجل تجلور الخمسين ولديه من الأبناء عشرة لا يكتب رجل ضعيف يحصله الخوف من العودة إلى بلاده سوى أن يكون قد حلق ما أراد لأولاده فاختار أصعب الطرق. ينطلق من جنوره.

قلت لها سأحاول أن أتيك بعد ذلك خالي الجبال، فاهنست وراق في وجهها، وحدثت أنظر إلى غزارة شعرها، فتتمرك في جسدي طاقة حفية، وأشم عنفها الغامض للنعكش ويحصلني الخوف، وقالت إنها تصب مصر كثيراً وتتمنى لو زارتها، وإن جذها يقول إن أهله في مصر كثيرون ولو سافر واحد منا إليهم لاحتفوا به وسكنت وقالت المشكلة أن جذها لا يذكر أين يعيش أهله ولا أين كان يعيش ثم اتسمعت وقالت مسكين شاخ وفسد وسألتني هل أعرف مصر جيداً قلت أعرف الاسكندرية لكن لن يكون الأمر صعباً لو جاءت لن أعرف القاهرة وأسوان وأي مكان، وقالت نظرائنا ثم قالت إنها تحب الأفلام المصرية، وكثيراً ما لا تصبها لكنها تدهش من جمال «النسوان» وقالت نظرائنا وقالت مباحثا أنت أجمل، وأطوقت فجلاً وقالت «الحرم المسما يا استاذ»، وقالت قاصداً «أراك أجمل، وحدثت اقرأ وجهها فإذا بها تشرط طويلاً وتطمر على الوجه ألوان شتى من الأسى والضيق وقالت هل تعرف لماذا تعطيني الدرس يا استاذ؟ هل تعرف لماذا لم تلجأ لأحد للمرسين؟ يا غففتي وقامت وجهها وقالت أعرف يا والخسعة هل إنني رايتك فوق العرة وتعت الشمس ورايت عينيها تثبتان وينسكب منهما الدمع كما لو كان ينتظر خلف الباب

شَهِقَتْ وَقَالَتْ «تَطْلُونِي يَا أَسْتَاذ» وَأَطْرَقَتْ طَرِيقَ الْمَكْتَبِ فَصَدَّتْ يَدِي
وَمَشَيْتُ بِهَا فَوْقَ شَعْرَمَا الْغَزِيرِ النَّاعِمِ ثُمَّ نَزَلْتُ بِهَدْيِي إِلَى خُدَّهَا
الْأَسِيلِ الَّذِي كَانَ مَسْجُوراً وَرَفَعْتُ وَجْهَهَا مِنْ تَحْتِ ذَلَّتْهَا لَا عَذَابَ
فِي الدُّنْيَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْتَسِمَ عَلَى وَجْهِ كَلْبَازِي رَأَيْتُهُ عَلَى وَجْهِهَا الصَّغِيرِ
وَأَخْرَجْتُ مِنْ جَيْبِ سَفْرَتِي مَنَدِيلًا وَرَقًا وَدَحْتُ لِمَسْحِ الدَّمْعِ وَمَا
صَالَ عَلَى وَجْهِتَيْهَا مِنْ كَدَلٍ مَعَهُ. لَمْ أَتَكَلَّمْ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ وَلَمْ يَكُنْ مَسْكُناً
اِسْتِكْمَالُ الدَّرْسِ الْيَوْمِ أَيْضاً. وَقَعْنَا وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا فَمَازَ بِهَا تَفْتِاحُ
عَيْنَيْهَا فِي انْبِهَارٍ وَارْتَعَشَتْ شَفَتَاهَا وَانْعَمِيَتْ وَاسْتَعْلَاقَتْ هِيَ إِذَا لَا
بَدَّ شَبَّتْ عَلَى أَطْرَافِ قَدَمَيْهَا لَكِنِّي لَمَعْتُ الْبَابَ مَفْتُوحاً كَالْعَادَةِ
نَهَيْتُ إِلَى الْبَابِ لَا غَلْقَهُ فَخَافْتُ طَرِيقِي وَخَرَجْتُ سَرْعاً.

وَصَدَّتْ إِلَى وَاحِضَةٍ لَمْسٍ أَيْضاً فَلَمْ أَجِدْهَا. قَالَ خَالِدُ إِنَّهَا
سَافَرَتْ لِلرِّيَاضِ وَسَتَعُودُ بَعْدَ اسْبُوعٍ فَصَبَّحْتُ وَقَالَ إِنَّ لَهَا خَلْفَةً فِي
الرِّيَاضِ كَثِيراً مَا تَسْتَلِيقُ إِلَيْهَا وَلَا تَسْتَطِيعُ رَاضِخَةً أَنْ تَتَأَخَّرَ عَلَيْهَا.
وَطَلَبَ إِلَيَّ الْجُلُوسَ فَاغْتَرَبْتُ. وَمَشَيْتُ الْفَكْرَ هَلْ هُوَ صَائِلٌ لِيَمَّا يَقُولُ
أَمْ أَنْ وَاحِشَةً أَثَرْتُ الْإِبْتِعَادَ. هَا أَنَا بِالْمُسْتَقْصَى وَلَا بَدَّ أَنِّي
سَامِعِي اسْبُوعاً أَيْضاً النَّوْمُ يَنْغَلِبُ عَلَيَّ الْآنَ وَأَسْمَعُ صَوْتَ أَزْوَاجِ
الْفَجْرِ بَعِيداً فِي الْبَيْتَةِ الثَّلَاثَةِ.

استقبلت في حوالى التاسعة ما زالت أسمع أصواتهم
 يصاعج خارج النافذة. رأيتُ ولما افتح عينيّ الثلاثة الذين فوق
 الأسرّة. كوريسون يتكلمون واليهجة في عيونهم وضجيج غريب في
 أصواتهم. ورايت النواهم تتحرك بسرعة بحرية أثناء الكلام.
 ابتسمتُ لهم، فقالوا معاً في مرج «غود مورننغ. غود داى إن شاء
 الله». ابتسمتُ مرة أخرى، ورايت عابدة تدخل الحجرة على وجهها
 ابتسامة رائعة، وتتلقى عنها السرداوان التراسعتان في وجهها
 الضمري، وتزهر ملابسها البيضاء

رأيتُ جوار السرير وقالت:

- يجب أن تنهض فوراً وتشي في الطريقة بلدى ما تستطيع
 ثم أريد وبقيت اتأمل وجهها، قلت.

- أنت عابدة؟

الفتيت أكثر وقالت:

- هيا ابهى سأساعدك.

وامسكت ذراعى تنهضنى. قلت

- سأسى وحدى.

- إن لا تتأخر.

وتركتني وخرجت



لمت ومشيت قليلاً مستنداً إلى جدار الغرف. وهدت إلى السرير.
فصعدت فيله متعباً، ورأيت الكوريين يلقون في جلابيب بيضاء
بحزمون حقائق صغيرة جداً دخلت عابدة ومعها حقنة، فكشفت
لها ذراعي

- السلام عليكم

هتف الكوريون وهم يخرجون. لم تثقت عابدة إليهم ولوحت
لهم بيدي. رأيتهم يمشون متباعدي السيقان قليلاً. ولا بد أن عابدة
أدركت ما الكرفيه. وراحت الدهشة لي عيني إذ قالت:

- كوريون أشبهوا أسلمهم أمس.

ابتسمت وخرجت وعند الباب قلت:

- لا تحاول أن تشرب شيئاً اليوم. وطبعاً لا تأكل.

لم تعد بعد ذلك إلا عند الظهر. دخلت وخطعت عربة المريض
يدفعها نعمان ومعه امرأة خضعة مصرية نادتها عابدة «هام زينب»
وهي تطلب منها أن تضع المريض يرافق عز أحد الأسرى خرج
نعمان وأم زينب يدفعان العربة الفارغة، وقالت عابدة

- زائدة دودية أيضاً. داهمت في السيارة. شاب سعودي كان
اللقباً من مكة في طريقه إلى تركيا، قال ذلك قبل العملية. وشعر هنا
بالأم حادة في بطنه فجاء إل المستشفى

ويغل الدكتور رجليه يرتدي الثياطور الأبيض. بان لي طويلاً جداً
كثني ثم أمرقه من قبل. قال:
- هيه. كيف حالك مشيت اليوم؟
- هززت رأسي مبتسماً

أنا مشغول جداً ربما أراكم في النساء هيا يا مسختر إثر العملية
الثانية

وخرج وظلته خرجت عابذة مسرعة رغم ما بدا لي أول مرة. من
تأخر بينهما. لوجهه لا يعتمد إلا عليها كما عرفت بعد ذلك.

زارني سعيد في الثالثة وأحضر معه جليلاً يساعدني في خلق
جلباب المستشفى القذر. وضجكت وأخبرته بشعوري حين أرى
الجلباب تضطرب وقال عليّ أن اتحمل الهواء في نخذي هذا الأسبوع
وأحضر معي أيضاً علبة كعكة من عصر التيرتال الجاف وثلاثة
أطباق صيني وكسباً وملعقة وشوكة وسكيناً وبعضاً من ثيابي
الداخلية وبطانية لأضعها فوقني ومراقها بطاطين المستشفى
الشمسية وبعد سعيد جاءني نبيل أكل عليّ لوجهه ضحك من
البلب أحضر لي علبة من الشيكولاته وقال إن كاد يموت حين رأي
ملقى علي الأرض في بورة مياه الشركة. قال إنه سمع صوت سقوطي
وهو في التورفيه. خرج ليرى مصدر الصوت فلم يجد شيئاً أمامه ولا
يعرف ما الذي هداه للذهاب إلى بورة المياه فوجدني ممدداً علي
الأرض. وضجك وقال «أنت قليل جداً». هو الذي حملني بعد أن
صرخ. وجاء عابد يجري فقللاني إلى المستشفى وقال إن أرشد
حزين جداً لأجلي. وسند صرح وقال مياه الآبار ملعونة. وضجك
نبيل وقال إن روز ماري اتصلت تسأل عني. وأنه كان موجوداً

بالمكتب فرد عليها قالت له وأبرز اسماعيل، فقال واسماعيل هو سبيثال، اندمشت وقالت «هو سبيثال» فقال هو جيبس. أو بريشن». رسلتني هل أخفا في الإنكليزية وضعتك وأحسست بالم في الجرح من شدة اهتزازي، فتماسكت، وقلت له أن يسكت، فمن استطيع الضحك أكثر خسك وقال «أين أفتك، والكلمك عن منصور»، لكنني شعكت بصوت مكتوم فقال «ميرورك هو والفرد».

وقبلني على جيبني وانصرف.

أحسست بالبحر عن مقاومة العطش، ويجفاف شديد في حلقني وشفتني. ودخل معان إلى الحجرة، فقلت له أن يبيّن لي قطعة فخر، وودعت أسس بها شفتني، ورأيت يلف فوق رأس الشاب السموي النائم في حجرة، ثم التفت وسألني

.. هل ألتاق من البنج؟

.. ألتاق، كل ينكلم كلج وألم أنهم من شيئا.

خسك وقال

.. كل الناس هنا نكلم، كنت قادما لأهيف

وانصرف بعد أن استزع الوسادة من تحت رأس الشاب ووضعها عند قدميه وهو يفرل «صيانة أم زينب» ورأيت الشاب يفتح عينيه ينظر إلى ثم يعود يستلق في النوم



في صباح اليوم التالي بدت لي الدنيا أكثر بهاء حولي. أحسست بهزالي وشحومي، وأن جسمي بات وكأنه من أثير. شيء بين السماء والأرض. وأحسست كأنني استريح من رحلة صعبة لو صعدت على

جبل عمار وجلس فوق قمته المنعشة ولذعت سهام جندي الهواء
الناري. فكرت في الأمر كيف مضي جميلًا زارني عابد أيضاً لذلك
وزارني بعده أرشد وجلس صامتاً يتأملني غير مصدق. ولذت لي
الممرضة التي تعد بالليل أن شخصاً اسمه منذر جاء يسأل عني
فوجدني نائماً وأصغف بعد أن ترك لي هذه اللقطة. فتحتها فوجدت
فيها جلباباً جديداً وفوطاً جديدة كثيرة وزجاجة كولونيا ترك
سياس. يا الهي كل هؤلاء أسرعوا يرونني ويطمئنون علي. لا بد
أن الأمور على غير ما يبدو لي.

وأهلت عابدة من تطلب بالبنسامة أكثر القاء من الأسس. لعلي أنا
الذي صرت أكثر عافية وأفضل استقبالاً لما لراء
- تستطيع اليوم أن تشرب

وكانت جوار الممرير تعد لي كوباً من عصير البرتقال قدمته لي
وقالت
- ليس كله.

أشرت وهي تنظر الي لا تكف عن الابتسام وضعت الكوب فوق
الكوميدينو وأبسمت. سأشها:

- فلماذا لم ترك أمس آخر النهار؟
- أجريتا عنيت كنتية وعدت الي «السكن» في غاية التعب.
- طيب. يبدو أنك تضحكين لشيء تريدان أن تقوليه..
- اجلالاً

وعادت تبسم ثم سألني:

- من هي الشخص التي رددت اسمها كثيراً وأنت في البنج. هل

هي مصرية! هذا اسم سعودي
إنّ القشيع كثيرأ من الاسرار. تجاهلتُ الأمر، وسألتها:

- أي أسماء أخرى لانتها؟

ابتسمت وقالت

- الينالجي كامل. أريدن. أول مرة اسمع كلمة أريدن هل هو
اسم؟

- هزئت رأسي بإسماً واستغربت هي - فيليب لقد كنت ترد
فيليب كثيراً جداً. أكثر من كل الأسماء. مرأ واحدة. ايضاً سيد
الغريب. هل تعرفه؟

أشرت لها بيدي أن تجلس على المقعد الجاور للكمبيوتر
فجلست بدت كتلميذة طيبة. تَنهَّدَتْ وقالت
- أنا أريد أن أسالك عن فيليب.
- أنا لا أعرفه.

- فيليب سوحاي بيلبا رجل أسود طويل له وجه قوي سيلاني
أشهر إسلامه وجاء هنا للختان ومات منذ أيام.

أغمضت عينيها ووقفت سحابة مكنة خفيفة على وجهها ثم
ابتسمت وقالت

- يحدث هذا كثيراً

- أريد الحقيقة.

- ليس الدكتور وجيه عزلي حال لم تكن نوبتنا، جراح
سعودي مبتدي، لكنه ايضاً ليس خطأ الجراح. خطأ معمل
التحاليل الذي اختلطت عنده عينة الدم. حال عينة مريض آخر

باعتبارها عينة فيليب . جاءت العينة سلبية في كل شيء . لكن فيليب مصاب بضغط دم مرتفع جداً . اندفع الدم بقوة ولم يكن هناك سبيل لإيقافه قدام .

هذه هي المسألة الآن . خطأ تافه . لكن هل يحتاج الامر أن يخفيه وجهه عني ربما لأن الطبيب سعودي . وقالت عابدة إن إخصائي التحليل بالمعمل سعودي أيضاً . ثم سألتني .

- لماذا تهتم به ؟

- كان صديقي

قلت وسمعنا نحيباً شديداً فجاء من الشباب الصغير الذي معي في الغرفة . قامت واتجهت إليه .

- لماذا تبكي يا ياسر ؟ بؤلك الجرح ؟

قال ياسر الذي سمعت اسمه لأول مرة .

- الجرح حين يا ست عابدة .

جلست على طهه مجاور لسريره وقالت باسمه

- تريد أن تعود الى مكة ؟

- اريد أن أرى أمي .

نظرت إليّ في دهشة . يبدو ياسر صغيراً جداً في حوالي العشرين لكن لا يقن احد ان شاباً في سنه يبكي لجرى أمه قالت :

- ستراها بالتأكيد . أيام قليلة وتراها

- أمي هنا في تبوك

وعادت تنظر إليّ في دهشة . وقال ياسر :

- أنا من مكة . لكن أمي من تبوك . لم أرها منذ مولدي . طلقها

أبي وذهب، يعيش في مكة وأخذنا معه لنا وأختي. لم يسمح لنا أبداً
برؤيتها أو السؤال عنها وهي لم تلت يوماً إلينا، أنا أعرف أنها من
تيك واسمها صالحة، وهي ختمية، أريد أن أراها.

قال ذلك وعاد بجيش بلبيكاه. وجدت عبيدة غارقة الذهن ثم
قالت

- سأحضر لك أمك بشرط أن تكف عن البكاء.

تطلع إليها بعينين واسمعتين متوسلتين وقال

- سأفعل. احضريها لي الله يرضي عليك.

وتوقف عن البكاء ونام على الفور. نام نوماً حقيقياً. وقامت عبيدة
واقتربت مني وقالت:

- هنا يتزوج الواحد أكثر من واحد، وتعيش الضرائر بلا
ضفائين، لكن لم اسمع أبداً برجل يحرم زوجته من ابناتها. هنا
تفرح الزوجة أحياناً بزواج زوجها من امرأة جديدة لأنه يضطر أن
يقدم إليها كل ما يملكه الجديدة من ذهب
- هل ستجدين أمه فعلاً؟

- سأجدها. لدينا هنا خادمة سعودية اسمها عوينة تعرف كل
شيء في تيك، وإن تعجز عن الوصول إلى أمه صالحة الختمية كما
يقول.

وخرجت ورحت أنا انطلق إلى الشب الذي نام برداعة الطفل
الصغير

لقد ام سرعة ندب في العزقة خارج العجرة، وضحكات نسائية

نأتي من بعيد، فقمنا على مهل، وغادرت السرور، ودفعت الباب
انطلق إلى الزحام، في آخر الطرقة رايت عدداً من المرضى الرجال،
وبعض المرضيات، ورايت هايدة تلف على باب مكتبها، وتُسهر إلى
أن أدخل إلى غرفتي، تكلمت منها

- لماذا يجري؟

- شيء سيئ.

ودخلت مكتبها غاضبة لا تدري لماذا، دمعني هب الاستطلاع
أن أتقدم في الطرقة حتى وصلت إلى الزحام، وإن بالدكتور وجيه
يظهر فجأة غلصياً صرخاً في المزدحمين بالانصراف، ولم يبق والفاً
غير خبيبة باكستانية وأنا، وأنا وجيه ولم يكلمني يحدث الطبيبة
الباكستانية بالإنجليزية

- ماذا تفعلين يا دكتورة؟

- ليس هناك طريقة أخرى.

- لكن هذا لا يجوز في المستشفى!

- بما طلبنا ذلك ثم إن هذا محلي.

نظر إليها بغيظ شديد، وانصرف دون أن ينظر إلي، ثم توقف
فجأة والتفت يقول للدكتورة الباكستانية

- هذا مستشفى يا دكتورة وليس قسم بوليس.

ويبدأ أنها غير أهية له، وعاد الزحام من المرضى والمرضات،
والدكتورة الباكستانية تنظر إليهم ببلاهة غريبة، ومنعفت خسجة
داخل الحجرة المغلقة، لصوات مختلفة، مواء وعواء وشخير وصراخ
وشناتم وانفاس مزاحمة ووقع أقدام سريعة وأشياء تلعب ثم صمت

خوبيل وانفلس متعبية ثم فُتِحَ الباب فظهر رجل سعودي متوسط
العمر مصزق الثياب، في عيبيه غضب نارٍ، ولَحَّتْ خلفه امرأة
جالسة فوق السرير تطلي نفسها بالملاحة البيضاء وشعرها منكوش
وصناتها وامتتان
- هذه مجنونة -

هتف الرجل، وتَرَمَزَ بين الزحام كما نشطر للسكين قطعة الزبد
وسقطت غتوته التي كانت متزلفة على كتفه الى الأرض فلم يهتم بلز
بأخذها. ودخلت الدكتورة الباكستانية العجوة واغلقت الباب
وسمعتا نحيباً خوبلاً هائلاً وانفلس الزحام.

شابت الحكاية في المستشفى بسرعة، وعرف الجميع ان
الدكتورة سرداره الباكستانية سمحت لرجل ان يعاشر زوجته في
إحدى غرف المستشفى جاء بشكو زوجته وكيف انها تكره ان
يعاشرها، وكانت زوجته معه. فقلت إنه هو الذي لا يستطيع ولقد
جاءت معه لتساعده على ان يفرغ نفسه على ضبيب، لكنه خذعها
ودخل بها الى طيبة النساء. وقد آن سرداره من رومهما وجلست
معهما طويلاً تتحدث بلغة عربية متعثرة عن الهدوء النفسي الواجب
قبل لقاء الزوجين. رفاهة القسم الرجل ان يعاشر زوجته هنا في
الغرفة نفسها لتعلم الدكتورة أنه سليم، وتعتنه زوجته ووافقت
فاقلت عليهما سرداره العلب.



- كيف يحدث ذلك؟

سألت عاتكة التي كانت تظلم في ذلك اليوم، الامم لمحمد بن خالد.

مرون أن تنظر إليّ:

- علم مجانين.

وظهرت امرأة سوداء جداً وقصيرة وسعينة عند الباب. فقالت عايدة

- آيه يا «رغبة» وجدتها؟

- ها هي معي.

ولفستُ طريقاً، فدخلت امرأة أخرى قصيرة وبديهة أيضاً،

حول راسيها ذهب كثير، ولي أصابعها رطل صدرها، وتلطي وجبها بطبقات من الحرير الأسود. سألتها عايدة:

- أنت صالحة؟

- نعم.

- هذا ابتك ياسر.

لم ترد المرأة. تقدّمتُ وكانت «رغبة» قد تركت الباب وتراجعت، ونظرتُ إلى عايدة التي بدا دمع يتراقق في عينيها. ثولتُ مشهداً عاصفاً بالدموع. وجلستُ المرأة على كرسي جوار سرير ابنها عند رأسه، وتقدمت عايدة وولعت اعلمها توقفه. فتح ياسر عينيه ونظر إلى المرأة الجالسة. وقالت عايدة بصوت مختنق:

- هذه أمك يا ياسر

اعتدل ياسر بسرعة. واستند بظهره إلى ظهر السرير. وهتف

بصوت هائل

- أمي

قالت المرأة بصوت عالٍ:

مر- كفاً يا ياسر. كفاً يا أمك حصة!

ولم ترفع الخمار منعند الطبقات عن رجبها تأملها ياسر وقال
هاساً

- بضي.

- كيف الشيبة؟

- بضي.

- تعيشون في مكة؟

- لا زلنا.

- الله معكم.

بقامت وانصرفت وعابدة تنظر الي رانا تنظر إليها، ونظرت إلى
ياسر، فهز كتفه، وقال:

- لسي هارت مجنونة.

- وسكنت ولم ينظر إل أحد.



لم يكن من الصعب قتل الوقت. جاءت سيارة في اليوم التالي،
واخذت ياسراً إلى مكة. وكان دائماً معي في الغرفة واحد أو اثنان،
لكن لا علاقة بيننا ولا حديث لقد حول وجهه غرلتي إلى غرفة
ملاحظة يمضي هيها الموبخر قليلاً من الوقت قبل أن يفلتر
المستشفى أو ينتقل إلى حجرات الموضر، وحول غرفة الملاحظة
الأصلية إلى غرفة استقبال طويل لعل تلك حرصاً على راحتي كما
قال.

تفكرتُ لقتل الوقت باستطلاع ما يجري في اليوم التالي لعدلة
الدكتورة .مردار. أنت الشرطة تتحقق في شكوى رجل من البادية
يدعي انه أحضر ابنته الصغيرة المريضة إلى قسم الأطفال

فخطفتها الممرضة المصرية رايت الممرضة تكلف في اتمالة بين ثلاثة من رجال الشرطة بينهم ضابط وعلى وجهها زعر شديد . كانت عابدة وعدد من الممرضات ينتمرن ويضعكن قالت الممرضة الشبهة إن ابنة الرجل موجودة وإنما هذه التي تمسك بيدها . وقال الرجل إنها ليست ابنته طفلة في الثالثة سمراء شعرها مخزير وعيناهما واسعتان عسلتان ترتدي فستاناً بعبي مدغش الذيل بدائر أخضر من الدانتيل وفي جانبي رأسها «نيونكتان» من شرائط الحرير الأحمر . كانت بحو سمية جميلة . يزيد من ذلك أنها صامتة لا تثرع على كلام أحد . قالت الممرضة إن كل ما فعلته هو أنها رايت البنت جميلة في ثياب فخرة فأخذتها إلى «الصكن» وألبستها هذا اللبس الجميل بعد أن أدخلتها الحمام وقصت أظفارها ودرجت شعرها وعطرتها ولكن الرجل كان لا يزال يقسم أن هذه البنت ليست ابنته وأنه لن يتنازل عن ابنته ولن يتنازل عن سجن الممرضة المصرية التي فجأة رآغت عينها إلى بعيد وبدا أنها لم تعد تدرك ما حولها ثم صرخت بانفجاع طويل . ففرغ الضابط والشرطيان . وتراجعت الممرضة وهي تكرر الصراخ . وأسرعت عابدة وزميلاتها يلقبها قبل أن تسقط فوق الأرض . واستنظرن إسخالها إلى غرفة الممرضات القريبة . وأغلقت الباب خلفهن . سمعنا ضجة صراخاً مستمرراً وفجأة غناء في صوت شديد الحرارة والسفرية محببته وباحك وحاحك على طول . . . وبان الارتباك عر وجه الضابط الذي لمس الرجل اليدوي أن يأخذ البنت ويمضي . من يقول أنها ابنتي أنا ألون صرخ فيه الصديقت . سألهم لنملك انذهب للشيطان .

وحصل الرجل البنت عز ذراعها . وانصرف في عجلة ونميط

وانصرف الضابط والشرطة إلى امرج منه



استلقيت على سريري غير قادر على أن أكتب طسكانتي طسكت
وهدي بالشرطة وحصار صرني مسموماً. أظنت عابدة بوجهها
تصعد. ثم قالت:

«طبعاً أنت تستغرب؟»

وقلت أضحك ثم وجدت أنه لم يعد لأتلاً ذلك فسكت وتاملت
وحيها المبهج. لابد أنها أدركت أن احساساً بالراحة صار يشعل
جسمي وروحي فأنا أشعر بتألق عيني وانسجام وجهي. أرخت
رؤسها الطويلة وتكلمت:

اسمها «وردة» الممرضة التي صرخت. لم يضر. هل عطلها هنا
سنة أشهر. بدأت عطلها في مستشفى «طباء» وفي ضبا لا يوجد
سكن للممرضات غير المزوجات. عادة لا تذهب هناك غير المزوجة.
لكن هكذا جاء تعيين وردة. كان الأطباء والممرضات يتركون
المستوصف في الساعة الثانية ظهراً إلى بيوتهم. الأطباء جميعاً
منزويجون والممرضات كذلك. إلا وردة التي كان عليها أن تبقى
بالمستوصف نفسه في إحدى الغرف فوق السطح تنام
المستوصف كبير به أكثر من عشر حجرات بالنور الأسفل

كان على وردة أن تضي الوقت بعد الثانية ظهراً وحس الصباح
بعدها. لك أن تتخيل حجم الابتكار التي يمكن أن تشرق العقل في
بلد بعيد مظلم وفي مكان خالٍ أصاب وردة انهيار عصبي شديد
وتكلمت إلى هنا. وضحك عابدة وقالت إن وردة تعيش الآن في سكن

المعرضات. تضطجك كثيراً بلا ضابط وتتذكر كيف كانت تلتطم الوقت
بالغناء فوق السطح. كانت تغني للسماء والفضاء وتجري وتلفز ثم
قجاء تلطم خديها وبالليل تنكش في لبد ركن من غرفتها وتتحب.
الآن، بعد أن ينتصف النهار، كثيراً ما تشرد ورودة يدهنها ثم تعود
وتخرج في الغناء الذي سبقت. تتلبسها «حفلة ضياء كما صرنا
نسميها

.. كنت أحسبها خاتمة من الضابط.

قلت ولم أمتطع أن أمنع نفسي عن الضحك. وضحكك هي
أبشاً وأرتفع صوتها، صرنا تضطجك كلما تقابلت عيوننا لكن لم
يكن ممكن أن الضحك في كل وقت.



صوتٌ على صراخ جنوني. وترككُ سريدي فرعاً أنا الذي
أصحو كل يوم على صوت المسافرين التي لا أراها ووجه عابرة
البهيج خرجت وقلتُ انطلق إلى مصدر الصوت القادم من الطرقة
المتعامدة مع غرفتي. وانتهجه الى غير النساء.

شرطيان بمسكان بامرأة صغيرة تحلول الإلالت منهما وما
يجزانها بغلظة وبعظ شقراء. شعرها طريل ينطفي وجهها يصورها
وكتليها. ويحمل الى نصف ظهرها. اقتربا بها أكثر. رليت عينيها
خضراوين لكن وجهها شديد الاحمرار من أكل لطعات سائلة.

كانت تلص على الأرض. ويرفعانها بقوة وتتقيت بسيقانها.
والنساء المروضات ييكن أمام الأبواب. والمعرضات من كل قسم
والن يتتحين. والشربت ورودة مسرعة نحش ظلاً صغيراً لرد.

دخلت به الى غرفة عايده التي كانت نفث جوارى ولا أدرك. كان هناك طبيب مصري شاب يلق خلف المرأة والشرطيين يرفع نظارته البيضاء ويمسح عينيه ويمشي خطوة كلما تقدم الجسميان بالمرأة خطوة. استطاع الشرطيان أن يمسحا المرأة الصغيرة بقوة، ولم تعد تسقط على الأرض. تركت نفسها تسرع بينهما، وكان منهما أمسك بأحد نراعيها فافتتح الروب الفني عن جلباب أخضر به وردة بيضاء، وبرتقالية، واتسع صدرها مبان طولها وجيدها مبهرين، ونزلا بها السلم والطبيب خلفهما

دخلت عايده الى غرفتها وجدت نفسي أدخل رواعها رأيت وردة جالسة والطفل على صدرها تربت على ظهره وتبكي، وعايده خلف المكتب وضعت رأسها بين كفيها وتبكي أيضاً. قل أن اتكلم دخلت المرأة التي كان يجرها الشرطيان الى الحجرة في علي، وجعلت على وردة تأخذ الطفل منها فتركته وردة دون مقلوبة، وجلست المرأة على الأرض. وبسرعة شددت حرق جلبابها وأخرجت ثديها وألقت به إلى الطفل شميد السواد، وراحت تنظر اليها بعينين لامعتين مرحوبتين. ويظهر الشرطيان كأنهما جيتان. ولكن الطبيب المصري الشاب لحق بهما وصرخ:

- اتوكاهما وشأنها

كاداً يهجمان على المرأة لكنهما توقفوا ونظرا إياه شراً فقال:

- اتزلا وسالحو بكما معها أنا المسؤول

غلا ينظران إليه بعدة ثم انطلقا يمشيان ويدبان على الأرض. ونظر هو الي ثم اتهاز جالساً عز مقعد قريب. لحظة ورفع رأسه إلى المرأة التي كانت تشد على الطفل في صدرها كأنها تريد أن تضربه

فيه ، وتغطيه بأطراف الريب فلا تراه . رفعت المرأة وجهها إلينا
دموعها غزيرة لكنها فجأة أخذت تنسكب انسكاباً وهي تنظر إل
الطبيب الشاب .

- أعطيتها شيئاً تشربه يا وردة .

قال الطبيب . ولشمتُ وردة ثلاثة صغيرة أخرجت منها دموعاً به
عصر بريقال . قدمت كوباً للمرأة التي أخذته وخبرته بعبء واحدة .
بدا لي أنها ليست هي التي تشرب فقد تركت الكوب جوارها على
الأرض بحمرة وانكفأت على الطفل ترضعه . شبع الطفل فدخلت
نديها الصغير إل صدرها . وتراجعت بظهرها تستند إل الحائط
كأنما تستريح إل الأبد .

- يا أخت لا فائدة من ذلك كله لقد تركتك تعويدن لثري ابتك
خمس مرات الآن .

مالت المرأة الصغيرة الجميلة براسها إل الخلف رافعة عينها
إلنا وتكلمت بالكية

- صدري يخذلني يا دكتور انظر إل الجلباب .

ونظرت أنا أيضاً ، فوجدته فوق صدرها وازداد تعيب وردة التي
ولفت لي ركن وجهها إل الحائط بينما راحت عابدة تلمس عينيها
بعضيل صغير . وتكلمت المرأة الصغيرة الجميلة بصوت مليء
بالعذاب

- صدري يا دكتور كلما ابتسمت يحن وينزل منه اللبن .

وسكتت وشركت دموعها تتكلم . ورفع الطبيب الشاب نظاره .

وداح يمسح دموعه بمنديل من الورق، ثم نظر إلى ساعته وبدأ أنه
بتماسكه وقال لها

- لقد أخذت عثرائك وهو مع سمستر ووردة وسمستر عابدة أيضاً.
ووردة انتني سأرسل اليك باسم الأمانة التي سأأخذها. ظني أنه
سيأتي يوم تستطيعين فيه العودة إلى الملكة وتتعرفين إلى ابنك.
إنما لن نترك أي أسرة تأخذها دون أن نعرف عنوانها.

وقام بهدوه. ومد له يده. فقامت والطفل على صدرها ثم قدمته
ذاهلة إلى ووردة التي مدت ذراعيها وحملته. وطال نظر المرأة إلى
وردة. إلى ووردة وأيسر أثر الطفل. هل كانت تريد أن تستوقل بأن
التي أخذته معها بشراً حقيقي؟



ثم ألسنا اعرف القصة. حين أنزلوا جثة عبد الله بن الزبير
ووضعوها على حجر أنه أسماء العجوز الهرة التي شارفت على
الفاة اتحت عليه قبله وقيل إنها هاجست ونزل من شديدها اللبن.

لم تترك غرغرتي ولا تكلت إلا آخر النهار حين دخلت عابدة وظلها
الخادمة المصرية «أم زينب» تحمل الطعام.

- نسيت أن أحضره لك في الغداء. لا يمكن أن تمضي اليوم بلا
أكل

- لم أر أبداً بهذا الطبع من قبل.

- لم تمر أبداً تُفصل عن ابنها إلى آخر الزمن.

- إن تعود مرة أخرى؟

- مستحيل. منطلقا بوضع على اللانحة السوداء.

- لكن الطفل ليس صغيراً ليس مولوداً حديثاً

- أمضت عاماً في السجن ترضعه. في مثل هذه الحالة لا تتولد
الأم طفلها إلا بعد عام مسكين الدكتور أحمد. رجل هنا منذ
اسبوع فقط وكلفه بمراقبة الأم حتى المطار رحمة يرافق الأم
طبيب حتى لا تقدم على شيء خطر. حتى لا تموت أو تقتصر الموت
أنهم. تصور لقد رفضت طول العام أن تدن الشرطة على أبيه أبو
الولد.

انضمت الصورة فتاة غرر بها أحد رجال البدة لماذا لم
تعترف باسمه؟ اتواها كانت تأمل أن تأخذ ابنها تركوها عاماً في
السجن ترضعه. لا بد أن تتسلمه الدولة أكثر عالية وهي الأم.
لم تستطع أن تولد مرور العام. كم من سُنن خرافية تعلقت
المسكينة بعمالها الوهمية. ربما فكرت أن الله قد ينهي الدنيا لحاة
فتلقن إلى الآخرة وأبدا في صدرها.

قالت عديدة إن المرأة اللبنانية وأهلها يعيشون هنا لكنهم شربوا
حنها لا يريدون العودة إلى لبنان. إلى أين يذهبون والحرب قلعة
في كل مكان، لقد تركت لنا غرائها ولكن

رسكننا طويلاً والطعام بيننا لم أكل منه شيئاً أنت «إنه طفل
جميل»

- عبد الله

الست

- لا أعرف اسمه.

قالت انهم اعطوه هذا الاسم، وإن اللطام يوضعون هنا في قسم
الاحتفال حتى تتبناهم إحدى الأسر أو الأمراء لو يتقلونهم إلى ملجأ
بالرياض، لكنها وزميلاتها يحبن أن يأخذنهم إلى السكن. إن
أسوة يوم هو اليوم الذي يقضى فيه الطفل أحد لا يحدث ذلك إلا
بعد أن يعتن على الطفل ويعتاد عليهن، يصبح له أكثر من أم تبكي
لفراقه، ويبكي هو من أجل كل هذه الأسهات



١٦

وكشفتني دخلت من باب أفنى إلى جميع لا خروج منه . لا
استطيع البقاء أكثر من ذلك وإن شجبت نفسي متلبساً بانتظار
دخول عائدة المبهج لغرفتي في الصباح . لقد تسبت الدنيا بالخارج
لم يكرر أحد زيارتي ولا أنا عدت أنكر أنني أعرف هنا لحدأ

لا أعرف الآن إلا خطوات مسرعة تحمل الكيلس قدم لا تفلت
جريح . وإلا بكاء الممرضات على الموتى الذين كان يمكن إنقاذهم
لولا ولولا ولولا . وزعيم الأطباء في المرضى لن لا يتركوا أسرهم أو لن
يتركوها ويمشوا حتى لا تتجلط الدماء في سيقانهم .. لا أعرف إلا
صوت زغاريد تنطلق من قسَم النساء هذه فتاة بكر وضعت
مولودها بعد ثلاثة أيام من الطلق والآن والآن تنظر من أعليها وبها هي
الفرحة تمل من عيني الزوج للشباب الغريب الوحيد الذي تُحضر
الممرضات لإيـنه كساء على ثقلتهن وهدايا لأمه الصغيرة وطعاماً
ساخناً . لا أعرف الآن إلا صراخاً كأنه قدم من عصور سحيقة من
رجل محبوب في غرفة سلفية سينقل إلى مستشفى الأمراض
العقلية بالطائف بعد أيام . وأسمع دائماً صوت عربة نقل المرضى
تسرع في الطريقة ونعمان الخادم يشغط في لم زينب المتغبة . الخادم

من أصل البلدة له خادم من بلاد بعيدة وقريب من عرفتي غرة
 للسدا ريق والليل أشباح من صراخهم هم المظيعين في أسرهم
 المظومين بالقطن والشمس المثلثين إلى نقطة ماء لا أعرف إلا
 سيارات تشتردها الحوادث تنهار عليها جُرُثُ فجأة من فوق
 الجبال، لو تسقط هي فجأة من فوق الجبل، أو يلدعها القدر إلى
 ظليمة فتقلب. بلدة قديمة ذات اسم قديم ولا أرى كيف كانت
 تقلب الجبال. من أي البلاد أنا ومن أي مكان قريب أثبت. نمل
 قبل راح يغطي الذاكرة ولم أضع هنا إلا بضعة أيام لا يكفي
 وجه عابدة الزائق المبهج وسط هذا الجحيم من الممرضات
 والضحكات والموت تطفلاً في الحياة. كيف حقاً لا يموت الأطباء
 ويقتحر الممرضات؟ أي قوة شيطانية وضعها الله في بني الإنسان
 فيبدون في النهاية لنوى من الأحجار

زارني خالد. غداً وكانني عرفته من قبل في بحر مظلمة ولا أذكر
 أنعرف على ملامح وجهه ولا أذكر حتى اسمه. واضحة تهديت
 السلام قال وفكرت أسأل من هي واضحة. وكان دمثاً. قال إنه علم
 من سعيد بعرضي، وإنه أخبر واضحة في الرياض. فأنزعجت كثيراً
 وتهديني السلام. ما السلام؟ كنت أقول قال واضحة ستعود بعد
 يومين. ولم أقل أنني سأخرج بعد يومين. هكذا حدد لي وجهه موعد
 الخروج مع أنني وجهته الخروج اليوم.

وخط على لقائنا سمعت طويل، وتنبهت فجأة إلى دقة وجهه ولو لا
 شربه والطفل الأسود والفترة لعسل واضحة. بلا اختلاف. أنز
 ما زالت أذكر وجهاً ممن عرفته. ومضى وهو يدعوني بسرعة الشفاء.
 ونم أنكم. التي أنتظر الليلة الأخيرة رغم أسسكي بنفسى متلبساً

بانتظار دخول عليدة الميهج، وعليدة اليوم بدأت تعمل بالساء.



عندما انتصف الليل كنت في حاجة شديدة الى الكلام. سكنت الحركة، ولم أعد اسمع غير انطار واهنة. وغطت الأضواء وأنا في الغرفة وحدي، بعددني النوم مع أنني سأغلب المستشفى في الصباح.

تركنت الغرفة، ورفقت في انطرفة ذات الضوء الخافت أمام باب غرفة عليدة. وترددت أن أطرقه. في حاجة شديدة انا للحديث معها وما خرجت إلا لذلك وإن كنت لا أدري فيما سأتكلم. رسمت صوت نهجاة الصغيرة. طاعتاً وصمتت شيئاً كالنحيب.

في اللحظة التي فكرت فيها أن أجد فُتُح الباب وتكفُت تنظر إلي في دهول

- أسف. أسف جداً.

- لا داعي للأسف. لقد اجسست بقدميك. اخطفتني. تدخل

دخلت مرتبكاً وجلست هي خلف المكتب.

- أنا لم أصد شيئاً

- اعرف. يمكن أن تجلس

جلست وكنت أقول. لقد سمعتك تبهكن في صوت خافت وهائل

لري أثر الدمع في عينيك. لكنك رقت وقالت:

- سأعد لك كوباً من الشاي. الجو بارد ولربد أن اشرب شيئاً

أيضاً

واتجهت إلى دولا ب صغير اخرجت منه موقداً كهربائياً، ووضعت
نورته براد الشاي، وبدأت لي وهي تنحرف صغيرة للغاية وقلت ما لم
أرد قوله

- هل أسألك لماذا كنت تبكين؟

- لقد سألنتني بالفعل.

أجابني مبتهمة وسكتنا، وأنشغلنا بأعداد الشاي ثم قُومنا لي
كوباً وأخذنا آخر، وعادت تجلس خلف المكتب
- أحياناً يشعر الإنسان بحاجة للبكاء.

فكرت ربما كان صوت نجاة الذي يبه راديو صغير نزل المكتب
هو سبب بكائها. تلك أمر سهل مع أي مقرب
- أرجو أن لا أكون تطلعت على مشاعرك.
- بالعكس

- لمعت سعيدة هذا؟

- سعيدة جداً والآن ما كنت بليت تعودت على العمل ولي سكن
الممرضات، نلضي وقتنا في مرج. نعيش أسرة متوالفة إلى حد كبير
طبعاً لدينا مشاكل مثل كل الناس. فينا من ضحك عليها خطيبها
وأخذ فلوسها، ولينا من يرفض أهلها أي عريس يتقدم لها حتى
تظل بفترة حلوبة لهم، ولينا التي تزوجت وشكت زوجها، وحين عادت
من أجازتها وجدت تزوج بأخرى في الشقة نفسها التي جهزتها،
ولينا العازقات عن الزواج نعلمنا إلى الأبد

- يا الهي! إلى هذا الحد؟

فينا أيضاً الناصحات الثلاثي الشنرين معارات وإراضي، ولينا

طبعاً سعيدات الحظ في الزواج. في كل الأحوال نصنع مع بعضنا
حياة سهلة حلوة في المسكن.

وسكننا قليلاً وكانت نجاة قد انتهت من الغنيقتها ويضرب صوت
عبد الوهاب رخيماً يعطي الليل مذاقاً عذياً
- هل تحب عبد الوهاب؟
سألتني مبتسمة ابتسامة صغيرة قلت:
- لا يوجد من لا يحب عبد الوهاب.
وسكننا.

لم نعتنق والهوى يسري جوانحنا
وكم تعلق قلبانا وبرهاناء.
- انها قصيدة جميلة للشاعر عزيز أبلغة كتبها لزوجته
ابسمت وقالت:
- اخلك ان اتول لك اني احب عبد الحليم لنمضى مني
- لااذا. انا احب عبد الحليم ايضاً

وبعدنا إلى الصمت حتى وجدت نفسي أسأله:

- أين أنت يا عابدة من كل من حديثي عنهن؟

كانت هذه أول مرة أخاطبها باسمها مباشرة وكان سؤالاً
مفاجئاً لنفسي. دائماً يسبقني لا شعوري في كشف ما أريد ستره.
- أنا؟

ولم تكمل. وظللت ناظراً إلى عينيها حتى رفّت أهدابها ثم قالت:
- دعنا نترك هذا الحديث.
ولم يحدث..

الطب مهنة فظيعة تحولك الى آلة بلردة. اذا لم تتحول تنكسر ولا تصلح. هنا رأيت الناس يتحولون الى حيوانات مسكينة. يصرخون كأنهم وحوش. من الألم الذي يفوقهم توحشاً. وهنا رأيت الناس جثثاً بلهاء لا قيمة لها. لقد تحملت ذلك كله من أجل اخوتي الذين هم سعداء الآن. كل اخوتي السعداء عارضوا دخولاً مدرسة التمريض إلا واحداً. هانم الذي كان أكبر مني بمسيرة. كان خافياً في كلية الحقوق وكان مصدر بهجة دائمة في البيت. متفاني لا يكف عن الابتسام. يؤمن بأن كل شيء يتغير مع الوقت حتى الأفكار العتيبة. لكنه كان مصدر قلق دائم للأسرة. كان يشترك في المظاهرات بالجامعة ويأتي رجال المباحث كثيراً بالليل ليقبضوا عليه. ويخرج دائماً من السجن أكثر بهجة وتفاؤلاً. وكان غميل الجسم للغاية لا يعرف أحد أي قوة فيه لينعمل السجن. لقد تخرج هانم من الجامعة عام (٧٢) وفي عام (٧٤) أثناء زيارة نيكسون لصر، حين أخرجوا الناس بالفلوس لتلق على شريط المسكة الحميد تحيي نيكسون والممادات في طريقهما للأسكندرية لم يستطع البقاء في منصور. بلدنا. سافر الى الاسكندرية كان له بها اهتمام دراسة بحبهم. صدمته هناك سيارة ونقلوه الى المستشفى الأمريكي حيث كنت أعمل بعد ان تخرجت. ذلك اليوم كنت في قسم الاستقبال. وفي ذلك اليوم استقبلته.

وسقطت دمية من عينيها. ثم انشأت بعدها مخرج. فأخرجت منديلاً رقيقاً من عتبة مناديل في أحد الأراج وذاحت تجلفها.

- انا أسف جداً.

- تصور انه الوحيد الذي يرأسني

- موحى أدن.

- لكنه لما قد القدرة على الحركة، يعيش مع أمي وأبي المسنين
وخالمة

هناك أنت هنا، قلت لنفسي أي عذاب فوق طاعة البشر، لو كانت
عابدة رجلاً لاختلف الأمر أنتى حاضرة الجمال، ووجدت نفسي
أربت عن ظهر يدي بيدي قلت:
- هل خبايتك*

- أنت لم تخبايتني، ولم تؤذي.

كانت أغنية عبد الوهاب قد انتهت وسمعت الخبيخ يقول موحى
أبناء الواحدة من الطاهرة قال كلاماً عن بيلين وكارتر والساعات لم
أفهمه ولم أهتم به، أشرت مؤثر الجهاز بعيداً فالتصايب صوت عبد
الحليم حافظ وأدعاً دافئاً شجياً.

هيا نهر سائل بين شطين يا حلو يا اسمر،
طولا سمارك جوا العين ما كنت تشوز،
يا حلو يا اسمر، يا حلو يا اسمر
يا حلو يا اسمر.

وايتسمت روايتها تبسم وتتلق حينها بانتهار هائق.

١٧

وافق خروجي اليوم الأخير من شهر ديسمبر تركت وجعها في
 المستشفى. وفي البيت لم أجد سعيداً لست بحاجة الى شيء قدر
 حاجتي إلى النوم. تركت غرفة عايذة والفجر يوشك على الظهور.
 وصفت لها حالتي وقلت إنني اكتشفت متأخراً جداً أنني رحت ضحية
 مؤامرة صنمها لبي ووافقت عليها ببناء اخلاقي منقطع النظير
 غباء جعل بيني وبين النساء سداً والآن المفكر جدياً في الزواج.
 وصمتنا كثيراً وأغرق كل منا ثم رأيتها تنظر في ساعة يدها. اعادنتني
 الى الحقيقة هي أنني وأنا ذكر في بلاد يتوسد فيها الهواء
 الأهاسيس ينقلها للمص. قمت ولدي شعور بأنها لم تقل كل
 شيء. للملائكة حاجات يخلونها أيضاً. كل منا أخفى شيئاً وعجز
 عن البوح به. مع أنني كنت كلما نظرت الى وجهها استأنسته
 وتمنيت لو مضيت الى صديرتها لأنام لم أقل لها أنني أنا الذي
 تمسكت فخصص الغرام. ورغم أنني نزلت الى البلاد التي غفل عنها
 السندباد والتي ينزلها الآن ألف سندباد وألف كل صباح. البلاد
 التي تعود منها فتنتح لك كل النوافذ وكل الطرق والأبواب. فأنني
 ما زلت لا أحس بالخارج تشتمل في جليد قلبي تجذب كل ما فعلته مع
 واضحة وكل ما أحس به كلما زوتها. وكذب أنني أريد الزواج الآن.

لم يلتئم جرحي القديم بعد . لازلت أود لو أخرج من نفسي أعاليها .
 الفلها . سأنتني لذا تقرا هذه الرواية كثيراً قلت أنا أحب أحمد
 عاكف . قلت ضاحكة أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم . قلت خذنيها .
 وجاءت تصحك وتقول من هو أحمد عاكف في الرواية؟ وضحكنا
 وسكتنا . وقالت أود الذهاب إلى حديقة انطونيلوس . الدنيا ربيع
 وهناك مهرجان الزهور الآن . قالت لم أعرف عنك أنك تحب الورود .
 أنت تحب الحب وتريد أن تنجب . لأنه هناك بعضا بالحب في يومنا
 الأول . وتائق وجهها الأبيض وحشوتني عندها الصليتان ثم
 انطلقنا كان الزرع حولنا في حكمة أخضر من كل يوم والفضاء
 أبيض من كل يوم والسماء أعلى من كل يوم ولحميد الكلبة الأصفر
 المشرب بالحمرة أزهى من كل يوم . وقالت ونحن نعبير الباب كثيراً
 ما أكره كيف نقيم «المنظر» أفضل منا جميعاً قلت أنا إذاً أكثر
 عنكم . قالت كذاب وكنت كذلك وواجهتنا مستشفى الشاطبي
 للولادة بتساعه العريضة وباحتة الضخمة وبياض كل شيء فيه
 الذي يلتحم مع بياض الفضاء . ورأيتني أتطلع إليها بعمق فقالت
 وهي تلكنني في ذراعي هل تعرف أحداً ولد اليوم؟ قلت إن هذا أعظم
 موقع لمستشفى الولادة لأن أمهاتاً بحراً عريضاً قالت أنت تقول
 كلاماً غريباً وهتكت «تاكسي» وركبنا وانزلنا صامتة عند حديقة
 الحيوان فمشيناها في تراح نقرب من بعضنا ونبتعد ولا أذكر فيما
 تكلمنا حتى وجدنا باب حديقة انطونيلوس وأوله لافتة «مخرج
 سمح بالدخول للجمهور» . لماذا؟ وقال الشرطي كما ترى أخذها
 الجيش وتحولت إلى موقع عسكري . قبل ذلك أخذوا لسان السلطنة
 للجويل وصار تمثال عروس الاسكندرية وحيداً لا يمر عليه عشاق .
 انقسم للجمدي لا يدرك شيئاً وقالت هي: حديقة الحيوان أوسع

فلسانها لماذا لم تقراي الرواية جيداً، وسكتنا من جديد وقالت لماذا
 خطأ لا تعطيني ما تكتبه من قصص افراء؟ قلت لا انظر اني
 ساستمر لماذا؟ لماذا خطأ تتخطى من كل شيء جميل في نفسك؟ لماذا
 الغلال الموالذ؟ وشراخفت عن المرح وقلت بيننا الرسائل اني هي
 المرأة التي سمعت من اهل رجل؟ وقلت بيننا اللقاءات. وكان البيت
 مساء في آخر دقيقة من آخر يوم لنا في الاستعارة. ولاننا كنا نعرف
 اننا سنفجع فكان ذلك آخر وقت لنا ايضاً بالكتابة ذات الحديقة
 الجميلة ومشيئنا فوق النجيل حتى حديقة كلية التجارة والشبطين
 الاخرى يقول لي ان الصراحة افضل من الخداع. فصارحتها وقلت
 اننا لا نعرف الحب الا للزواج واننا لن نتزوج الا ولن نتزوج ابداً.
 ومشينا صامتين وفي محطة الرمل وايضا سعد زعول يعطي ظهره
 للمدينة ويشير الى البحر. الى غريق. ولغزوت وقبلتني على خدي
 واناس كلها ترونا في الميدان واشتركت بقتل. ولم نذهب يوم الاحد
 ولا اي احد بعد ذلك لم اكن احبها ابداً كنت احب الحب كما
 قالت. عرفتني التي لم تقرا القصص ولم تعرف اني انا العمي
 الكبير في هذا العالم اكمل رسالة رجل تجاوز الخامسة والستين ولم
 يتما

الحياة مأساة، والدنيا مسرح ممل. ومن عجب ان الرواية
 مفاجئة، ولكن المثليين موهجون، ومن عجب ان الشغوى معزى. لا
 لانه معزى في ذاته، ولكن لانه لريد به الجهد كل الجهد، فأحدث
 الهزل كل الهزل. ولما كنا لا نستطيع في الغالب ان نضحك من
 إخطائنا آملنا، فبينا يبكي. فتفقدنا الدموع عن الحقيقة، ونفهم
 ان الرواية مأساة. والحقيقة انها مهزلة كبرى.

قال هاسنت وقال نجيب محفوظ وقال أحمد عاكف انكبر اندي

قرأ أدب الكشاف والكامل والبيان والتبيين ولا حذر كاتباً ولا فاز بحبيب. كيف انتهى الأمر للجنون ثم الموت؟ توالى عليّ الرسائل مكتوبة بحبر أحمر وأخضر وأزرق وأسود. لماذا لم تنتبه؟ كان اليوم هو الخامس من يونيو. يوم لا ينساء في مصر أحد. لقد ينساء الناس بالانتصار وأمل أنا الوحيد في شعب كامل الذكورة. لم أعرف بموتها إلا قبل مطري إلى هنا بعام حين ذهبت إلى الكلية لاستخراج نسخة من شهادتي وقابلت سامية. التي كانت حديقة لنا وتعرف كل شيء. جاءت مبكراً تستخرج شهادة وتسافر إلى الإمارات. أخبرني سامية فأسرعت أنا بالسفر. لم يبد عليها قط أنها يمكن أن تكون لما بالك أن تموت من يُحِبُّني من موتي الآن؟ من يحرق اسراري؟ راضعة أم عابدة أم ترابي قاتلاً للجميع؟ كم أود حقاً أن أنام.



- كنت أعرف أنك هنا.

هاتف سميد وهو يدخل حاملاً كرتونة عن صدره. أسرع بها إلى غرفة المعيشة. ووضعها فوق المنضدة. ووقف يلهث. قال - مستعجل بك وبراس السنة.

كانت الساعة الثالثة ظهراً وكنت نمت نوماً عميقاً فتح الكرتونة وراح يخرج ما فيها ويضعه فوق المنضدة وينتكم.

- جين حلوم. زيتون سيوري من مصر. ها ها ها. يا أخي رؤساء الحمه وريات طبعهم حريم. واحد سمعاه زيتون العوبة والثاني زيتون العبور لول قها بيضر بلغلري. انتظر إلى حجم البيضة. في

حجم الفرسفة المصرية. في بلغاريا يقولون للجبان جبان مثل
الببسة "ها ها ها ها".

واستمر يخرج ما في الكرتونة. ولا يكف عن الكلام والنضح.
وبدا شكله خريباً في جداً. واكتشفت لأول مرة انه اقصر مما
تصور كان يتحرك مثل كرة من المطاط

- وخذ ايضاً جين رومي من ايطاليا. رومي اصلي. وجين شيدر
من استراليا انتظر الى الغبة مذكوكة. مثل البوشمان. لا بد ان
البوشمان انتهوا مثل الهنود الحمر كُلُّ منته. لن يبق الا وجه
ريك. وخذ لهم غي. هنريون زجاجة بيرة بدون كحول ملوكة مرسى
صنع أوروبا الأوروبيون النصارىون يسهكون على العرب.
سيكون اجتماعنا بفروجه وبراس السنة رانعا وفريق ما تتصور

نظرت طويلاً الى عينيه. قلت:

- ماذا جرى لعلك اليوم؟

- تريد الحظيفة؟

- أجل.

- قابلت ودا.

- هل هذه أول مرة؟

- لا طبعاً. لكني انعم قابلتها ولقيتها ايضاً. قابلتها هنا في المنطقة
التي تقع في الغرب من قلعة آسيا وتحل على البحر الاحمر والمحيط
الهندي والخليج العربي وفيها قبلة المسلمين من كل انحاء الدنيا
ومنها هربت الحن والعفاريت بسبب العز والفق.

وعلى يسطك ويصلق ويلغز في قضاء الغرمة. فلم استطع منع

نلني عن الطسك وقبلة نوقف وبذل بعد شديد
- يا اخي لم اكز اعرف ان الحرمان شيء لطيع الى هذا الحد .



بعد الغداء انفردت بنفسي في غرايتي ادعشتني اني اسمع
صوت سعيد يلف في نومه لأول مرة . انبسمت وانا تخيل سلوكه قبل
الغداء سعيد هذا لا بد يتكزني ليس تسهل من تقيل امرأة هنا
وداد خطيبته وتعين مع منها وهو يزورها ولا بد ان امها تعطيهما
هذه الفرصة واكثر . اجل واكثر ان فلة لا تحدث كل هذا الجنون .
ولكنت ان اتعب الى راحة . لا بد امها عادت من الرياض

في السادسة كان سعيد لا يزال نائماً . لقد نعت انا ايضاً مرة
اخرى واستيقظت ولا بد ان وجهه عاد ورحن تمام فاكل وناد . كل
هذا النوم حدث اليوم في بيتنا بالنهاى .

ركبت سيارتي التي لم تخلفني رغم توقفها لأسبوع كامل . ادتها
عبر الازقة دائراً حول الشارع العام مراعيّاً انطفاً والمطبات التي
قد تؤثر على النجرح الذي تزعجت خبيطة فقط في الصباح وجدت
الشريطي يلف وسط الطريق يمدح تقدمي يا الله لقد نسيت وما
انذا اجد نلني امام البيت الموقوف به سيد الغريب . للشريطي
ياמרسي ان ادور من جهة اخرى صنعوا الخرون من الشارع ان
وليت الغريب يجلس في الشرفة يرتدي عباءة صوداء وفوق راسه
مصحاح شحيح المراء الكني رايت وجهه جيداً لا اعرف اذا كان
راى وجهي ايضاً ام لا فانا اقف في الظلام .

دريت بعيداً عن البيت واخذت شريطي شتمياً فجأة لن لا اجد

واضحاً. ان لا أكمل معها الدرس اليوم ايضاً. لكنني هي التي استعطقتني. اتسعت عينها بفرح طاع ولم تتكلم. أخذت يدي بين يديها. وجذبتني لأدخل غلالة عن جرحي وثقة قدوتي على الحركة المفاجئة.. لكنني مشيت واحسست بالقوة تدب في روحي. ولما دخلت ان الغرفة لم أجدها معي.

انتظرتُ طويلاً في كل لحظة كنت اتفيل دخول شخص آخر الى الحجرة. خالد او جدها العاجز او امها التي لم أرها او ابوها الذي لم أره او أي من اخوتها الذين لم أراهم. ولم يتوقف قلبي عن التخطفان حتى رأيتهما. خيمت ثيابها وعلمت ترددي فستلناً طويلاً. كحلي للون. به وردد بيضاء. وعلى كتفها شئ لبيض. وتكررت شعرها مطوياً على كتفها وظلها. وفي يديها اسوارتان من ذهب مرصعتان بالياقوت الاحمر. وعلى صدرها كانت وردة ذهبية معلقة بسلسلة. وعلى اوزان الوردة فسوس من الياقوت الاحمر ايضاً. ويسمى كل ذلك عطرها في الطريق.. وجدت نفسي أتف ولعد يدي. فعدت لي يديها. وأخذتهما. واقتربت مني ثم عالت إلى مقعدها. فتركت اليدين وجلستُ وجلستُ فبالتها أتامل وجهها وعينيها. لصابها شحوب قليل في الرياض.

- كنت خائفة ان لا تأتي.

- استنصل الزائدة ليس امرأ صعباً

- لا اريدك ان تشرب من المياه الحكومية

- قيل لي نذك لكنني لا أحب المياه المعدنية.

- سأرسل لك منها كميات كبيرة.

- لا احبها حقاً. ثم ان الانسان لا يملك اكثر من زائدة مودية واحدة.

ابتسمت وقالت

- لم استطع الحضور لزيارتك.

- هل نبدأ المرح؟

شباباً كنتُ بلباء ومن فجر الحسد كعادتي انسيقية، نسكت
وأطرقَت ثم ولعت وجهها وقالت بهدوء والتم:

- لانا تسنحمر شائني؟

وانعجرت في بكاء غير متوقع

- واضحة.

هتفت هامساً

- انا ارسلت اليك خطاباً من الرياض. اقم تقراء؟

- انا لم اذهب الى العمل بعد.

وظلت الممروع تسمي على وجنتيها، فأخذت مقعدي والشربت
منها. وبذراعي اليسرى أحطت كتفيها، وبأيدي اليمينى ولعت وجهها
إلى إحداهما تسمي برأسها على صدري وتنتحب.

اسمع الآن انكاسها وألقنها ولثم صدرها الغامض وأغرق
بوجهي في شعرها اللين الغني

- واضحة.

فستُ عرفَت وجهها إلي. اتسعت عيناها بعقلي رايته عنيها مرة
وارتعشت شغلها برغبة رايته عنيها مرة والتفت لا شعورياً إلى
الآباء فهمست لا تخف. أجل هي التي قالت ذلك ولا لعد غيرها.

هي واضحة التي في صدري الآن. ومددت يدي اليمنى إلى أبطها الأيسر فاحسست بنهدها صغيراً تحت كفي وبأنها خفيفة كحسامة ولنا أقيمها لتقف والقف. كيف طالت واستطالت؟ أم لعلني أنا الذي انحنيت. صارت في حضني فدي على لمها واشد عليها بكل قوتي وأكل بشفتي شفتيها وتمصطدم أسناني بأسنانها وفي اللحظة التي ابتعد فيها وجهها لالتقط انفاسي رأيت الفرح يغازي يغلز من عينيها. ومن جديد ضمنتها إلى صدري ورحلت اعتمر رشاها واحسست بشفتيها تتحركان مع شفتي وبينهما وحولهما. إنها لا تترك نفسها لي بن تقبلي أيضاً. نسيت أن هناك باباً مفتوحاً وإن الموت مطلق فوق رأسينا وفي اللحظة التي بدا فيها أنها ذابت وتلاشت رأيت على وجهها طيف وجه آخر. وجه عابدة. ابتعدت برجهي وتأملتها. مغمضة العينين الآن. عدت لقبليها ونزلت بها إلى الأرض واحسست بأنهم في الجرح فكثرت في جراحتي وعولج ما فعل هنا في بلد ينقل فيه الهواء الكلام ووجدت نفسي ألف بصعوبة أنني الجرح حلقاً رغم أنني لسااعدها على الوقوف معي. فتحت عينيها وبعثت كلتها استيقظت من حلم بعيد.

- لا تخرج الآن. لا تجعلني أشعر بذنب.

- اجلسي يا واضحة.

- اجلس انت أولاً.

جلستا معاً كل إلى مفصده. اطرقْتُ واطرقْتُ هي. لا أعرف فيما كانت تفكر لكنني أعرف فيما فكرت أنا.

قطعت عابدة على الطريق وقلت أثناء الحديث إنها لن تفكر في الزواج قبل أن يشفى هشام ويشفى على الأرض ولو كلفها ذلك

عشرين سنة هنا وما هي تعود الآن ونحل بوجهها علي.

- هل تأخذني معك إلى مصر؟

- آخذك يا والصحة ولن أأخذ عيك

فأعنت وأخذت رأسي في صدرها وقبلته وقالت كأنهم مزهوية

- يمكن لك أن تتصرف. لا حاجة بي إلى درس اليوم.



جسدي حي وليس شيء أعيش فيه. حي. حي. حي. وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وفلتت نفسي إلى حدائق من التورد. لقد استيقظت كل حواسي قريد الاشباح. ليس من العدل في هذه الدنيا اخلاق الحواس. لكنني لا أستطيع دخول البيت علنياً أرتصر. لا بد أن أخفي عن سعيد ووجبه كل شيء. أدخل كما خرجت روح منعبة على جسدها تنتظر الشتاء. كذب سعيد علي ولم يقبل وداد ولا فاز منها شيء أكثر أو أقل.

آه. ما أجمل أن تجاهد أن لا تفشي سرّ الحب. تلك نذرة وتجتر سروراً وتعلو وتعلو وتعلو والناس حولك سذج بلهاء.

عدت إلى البيت فوجدت سعيداً ووجيهاً يلفغان في غرفة المعيشة ومعهما صالح ابن صاحب البيت. ملا يا استاذ. لماذا انقطعتم عنا؟ خاطبني ولكن من ذا الذي يأخذني إلى الأرض بسهولة. أرض الغرلة التي حملنا منها المنضدة ووضعوها في الردهة فصارن راسمة احاطوها بالحداديا. لقد وضعوا جوار التليفزيون فيديو لرفله افلام ايضاً

- استعمرنا الفيديو من صالح الليلة فقط

- عيب يا دكتور يبقى عندكم لحين ما تزهقون. اترككم في امان الله.

- اجلس.

خاطبني سعيد «ابدل ثيابي، قلت. والى غراني مسبت ومرت بعد ان بدئت ثيابي وصوت أخف وزناً مما كنت لوجدتهما مرشاً الأرض بزجاجات البيرة موشى.. وجلس رجليه في يده زجاجة صلبة بيضاء وفي يده الأخرى «فطارة»

- كحول من المستنصر. مانع نقطة في كل رجاجة والشلطر

بجسد

قال ورجليه. وسعيد خرج الى المطبخ وعاد يحمل صينية كبيرة فوقها ثلاث رجافات محمّرة وقطع كبيرة من الكباب. «حتى ظهرت كن ذلك». «اشترى ورجيه. اتلفنا ان نشترى كل شيء النيلة. اثيلة نيدخ. وضحك وأنا الذي لم احتفل من قبل برأس السنة. وكنت اكتفى بالبقاء في البيت والفرجة على التلفزيون. رايت سعيداً روجيها كأنهما يظنون ينزلان المدينة لأول مرة.

- [ختر لنا فيلماً نعداه

تمسكت الاقلام الاربعة دكتور جيفاكو. فرانكشتي. قبضة بروس في البعض يفضلونها ساخنة اي خلطة ليس من بينها فيلم جنسي عن أي حال. تبدأ بمارلين مونرو وجلسنا نشرب ونأكل والفيديو يعمل ولا ننظر اليه. وأفقدتنا فكرة الكحول كثيراً من توازننا. «كلّ كذاً حتى لا نسكرو». بطول رجليه «عليك اللعنة. يرد سعيد ريشند:

«لا تبتك ليل ولا تطرب إلى هند
 واشرب على الورق من حمراء كالورد»
 ونضحك ويقول وجهه لكن هذه صفراء ونزله ضحكاً، وينشد
 سعيد:

«يا خليلي من بني مغزوم
 حللاني ماء بنت الكروم»

ونضحك ويقول وجهه ولكن هذه بنت الضعف. يقول سعيد
 «بنت كلب» ونزله صراخاً، ولقت لهما أن يسمعاني، لتسمع
 عرونها ينتظران ما سأقول:

«والك ما لدري بابة علة
 يدعونها في الراح باسم الراح»
 «الرابعها ولربها تحت الحشا
 لم لا تقيح نديمها ائترج»

ولا بد أن الببت زالت أركان من صراخنا سألني سعيد كيف
 أعرف هذا الشعر. قلت أعرف الكثير يا سعيد قال لماذا تخفي عنا؟
 هما نشرع في المبارزة، لكنني اطلت النظراتيه. بكر فجأة وأغمر إلى
 الطعام وقال إن نبعث الحمار «أي حمار» لا أرى أماسي إلا أنت..
 قال وجهه. وانطلقت لصرخ ضاحكاً، لكن سعيد استمر ينيكي. بن
 نزع وقام مبتعداً ناحية الحائط وقال إن انحصار بضع رأسه في
 الأكمل ولا بد أن نأخذ بهيداً. رواج يكرر ذلك وسمعنا طرقات
 سريعة عن الباب الخارجي تكاد نحطمه فقمنا. وفي الردهة
 ضحكنا. وفتحنا فمنا لشرب الهواء النادر ما كنت أفتح الباب

حتى دفعوني جانباً واندفعوا الى الغرفة. ثلاثة جنود كانوا شياطين
تسمع أزرارهم النحاسية. وتبدو أحذيتهم ضخمة كأنها كتل من
البلازلت تسقط متتابعة فوق الأرض. ودخل برودة شديدة معهم إلى
الرفة وإلى روحي. ودخل خلفهم ضابط شاب قلل: «احملوا كل
شئ كما هو». ورايت المسبكات في أجنابهم بارزة. وسحب أحدهم
ملاءة السرير. ووضع فيها كل شئ». وحين اصطدمت قدمه بزعاجة
الكحول فانسكبت. لمحت وجهها يتنفس بارتياح.

بملاييننا الضاربة أخذونا في العربة الجيب التي مضت
وانصمت فيها وأنظلام حولها والبرد. وإلى غرفة خلفية من الأثاث
لدخلونا بقسم الشرطة. حولنا الجدران الباردة ونحتنا الأرض
الثقجة. وليس معنا غير بكاء سعيد لرفات طويل من رأس الحمار
التي ظلت تخفيه.

في الصباح أخذونا إلى غرفة الضابط المسؤول. ضابط كبير ذو
رثة كبيرة أبشمت لوجهه وقال:

«يا هلا يا دكتور كيف حذرت الليلة»

ابتسم وجهه وقال

«اسأل تلميذك الذي حبسنا يا أبا حكيم.

«هذه عندي يا دكتور

وأشار للضابط الشاب الذي قبض علينا أن ينصرف. وطلب لنا
قهوة. وراح يقلب أوراقاً أمامه. جاء شيخ مسن يعمل الإبريق
والفنجان. وطلب علينا. وشرب وجهه وسعيد مرتين. ولم أقدر. لا
قبل لي بالقهوة العربية المرة. وبقعة ذلك أبو حكيم:

«إيش هذا؟ صلاح بن سنخور الثقفي. هذا مقبل.

ونظرونا الى بعضنا، وطمعنا ان صلاح ابلغ الشرطة اننا نسكن
وتتبر خبطة وتفرغ السكان، واستمر أبو حكيم:

- هذا مخيل بين مخيل، الا تسكنون في بيوتهم يا دكتور؟
- نسكن
- لماذا العداوة الآن؟
- لا اتري يا أبا حكيم.
وضحك أبو حكيم والسك بالقطرة الصغيرة.
- لماذا هذه يا دكتور. تفسعون الكحول في البيئة؟
- هذه لعيني يا أبا حكيم.
- تضع في محبك خمرة.
وضحك ولم تفسك. بدأ يتحول بالحديث
- أنت تعرفني. وتعرف كيف اختار اصحابي يا أبا حكيم.

- اعرفك والله زينة المصريين. أنا سترككم، لكن المشكلة ان
الولد الملائم لبلغ مدير مدرسة هذا - وأشار إلى سعيد - ومدير
المدرسة هاتلنا طالباً نرحيله.
ونشدت قليلاً ثم قلل لسعيد:
- لك حق كبير محادي يا استاذ لكن هذا ما حصل.

١٨

نأخذه نفسي إلى العمل، وهنا انذا القود سيارتي بسرعة واخترع
نأخذهني السيارة لهواء الصباح البارد ونأطع الضباب.

نأطعت إجلزتي وذهبت لم بعد ممكننا البقاء في البيت وقتاً طويلاً.
لقد عدنا من قسم الشرطة أمس إلى البيت في صمت. نأرنا وجيه
وذهب إلى المستشفى بسبق انتشار الخبر. قال إن الأمر يختلف
بذهابه أولاً. ودخل سعيد البيت مستشعراً. بقى ثوبه وسأله إلى
أين؟ قال إلى المدرسة. هل تظنهم يترحلونني وأنا هنا؟

أخذت حماماً ساخناً بعد النوبة النادرة. ورايت المرحح الأحمر.
ومكان الخيط كأنما عترب مشى فوق جلدي. وترك بصمات انزاعه.
وضعت فوفه حمادة جديدة. ونمت وأيقظني سعيد في الثالثة عصراً
فرايت كأنني أراه لأول مرة. سأل سعيد إنن وسأله إلى الأبد.
قال وطعام الغداء بيننا نأكله على مهل
- كنت أعرف أن مصيبة في انتظارني
- لكنك كنت ترحل طوال الأمر.

- كنت أكتب. لم أكتب وداود. فأبعتها علىلك هناك مشكلة قلنا
بيننا منذ شهرين

ولم ارد.

- لها ابن عم يعمل محاسباً في مصر ويريدها منذ زمن . سافر إلى الكويت ونجح في أن يحصل لها على عقد عمل الفضل ويريد السفر .
- لكنها كانت ستعير معك هذا العام وتتزوجان . لقد قلت لي ذلك

- قلته . بل وكنا متفقين ، لكن ماذا تنتظر أن يحدث لشخص
التهم أهله نصف ثروته والتهم النصابون نصفها الثاني؟

ولام وحمل لطباق الطعام دون أن يدري أنني لم أنته فقلت
وحملتها معه . ما كنت ادخل غرفتي حتى بكت ليابي وخرجت
سرعاً بالمربة لا ابالي بجرحي ولا باللطبات في الآفة . أي دفع
خبيث كان وراء شكوى صالح؟ كيف القنع الشرطة أن ندهمنا؟
ووصلت إل بيته ووقفت ألق الباب بفات متعبة

- من؟

جاءني صوت امرأة عجوز واهن من خلف الباب .

- أنا اسماعيل . ابن صالح؟

- صالح من؟

- التكفي .

- لا أحد هنا بهذا الاسم .

- صالح للتبنيذ بالمتوسطة الذي لأهله تجارة بالتشارع العام .

- لا أحد بهذا الاسم هنا . إنصت .

وسمعت صوت وقع الاقدام الواهمة تعود . تلفت حوالي يميني
ويساري وورائي . هذا هو البيت وليست هذه مدينة سحرية يختفي

فيها كل ما نراه. تكبت سبارتي مرة أخرى واندفعت الى الشارع العام

- إيش تبغي يا استاذ؟

قال بهدوء بعد أن دخلت دكانته. كان يقف يبيع البطاطين والقمشة وأنا انظر اليه بغيظ شديد. ثم ينتظر يدي.

- تبغي بطانية، جلد نمر لدينا جلد نمر يحبه المصريون جداً.
مصري انت يا استاذ؟ اليس كذلك؟ تبدو جديداً في تيموك

وكان يلفت انتباه الكلام إلى ولدين رايتهما بعده من قبل.
ويتمسكان في استمناح

- ما تبغي شيئاً؟ إنز ألسبح مكاناً لمعك الله يرضى عليك. تشرب
بارد يا استاذ؟

واضربتُ حماسة ما افعل. هذا الولد الذي لم يبلغ العشرين
يسطر مني مرتين ولا سبيل للانتقام. عدت على مهل الى البيت
دخلت الغرفة وضطرت الى نتيجة الحائط، الأول من يناير عام
١٩٧٩. آه لو انتهى هذا اليوم وليلته وذهبت الى عملي في الصباح.
ورأيت سعيداً وهو يُخرج حقلته استعداداً للسفر. قال إن المَترَنة
أرسلت نطلب رأي الوزارة والرأي سيأتي بالترحيل خلال ايام هو
يعرف ذلك. وقال فجأة ما كان عليك أن ترفض التدريس لصالح.
قلت أنا لم أرفض، فقط رفضت أن أتقاضى اجراً نظير المَترَنة على
السلام جنسية. قال انت لا تعرف هذه البلاد. صالح يستخدم
الرشوة مع كل المدرسين من كل الجنسيات. لا يرفض أحد رشوته

ولا هديته. رفضت أنت أن تكون له اتيد العليا. هذا شيء لم يخطر
ببال قط يا سعيد. صالح اصغر من أن يفكر كما تقول. صليح تاجر
يا اسماعيل. معظم التلاميذ هنا تجار. صفار السن لكن لهم نفوساً
كباراً. أربكتي سعيد رقلت هذه نفوس مريضة. قال ربما هي بريئة
براعة الاطفال تنظم لأن اذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها هنا
لو اعطاك أحد شيئاً خذوه بلا تردد. ولو طلب أحد منك شيئاً اخذه
لو أعطه أملاً حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسمير الريح. طلق
سكوني تم قلت لني ذهبت إلى صالح منذ قليل ابتسم ساخراً وقال
اسمعتك بالجان.



في غرفة مكتبي بحث انظر الى الدولاب الزجاجي والمقاعد
والساعة المعلقة في الحائط والأرض الموكيت والمكيف ذي الصوت
العالي والخازنة والمكتب المجاور لها هذه غرفة أحبها ولا ادري.
الوقت بها يمر وإلا ما معنى هذه الشهور الأربعة التي مضت. لقد
استقبلني الجميع اليوم بلرح. الأسويوز ونيل ومنذر وعابد
أيضاً ابتسم وعم عبد الله الذي أعجبه أن الطمح اجازتي وأحضس
وفي التاسعة دق التليفون اسمعت صوت روز ماري يا انهي! كنت
نسييت. قالت إنها تعمل ذلك كل يوم، وإنها تنتظر أن لقبل دعوتها
للغداء. قلت أقبأها إذا كانت اليوم، لمضعت وكنتي رايتها نمتزء
بالفرح. لا تدري أنني لا أريد العودة الى البيت. قلت ستلتي في
النافذة بسيارتها وماتبعها لنا بسيارتي. وما كنت الفرغ من المكانة
حتى جاء عابد من غرفته بسائتي. هن قبأت دعوة روزء كان
يستمتع الى حديثنا فالتليفونان على خط واحد. لماذا، إذن جاء

يسكنني أجيت ،كما سمعت.. ولم يفتلج رجبها ولم يتلجج لونه.

فل

- هذا خطاب لك.

تناولت الخطاب وتاملته. ما هذا النسيان الجارف؟ هذا خط واضح لا أخطئه. وهذا خطبها الذي عدتني عنه. واضحة كشي تلجج مرها لول امس فقط ونسيت كانه تم منذ زمن سميت
- هل تعرف احداً بالرباط؟

لم تكتب اسمها على المطرروف لكنه قرأ الاختتام.

- لي قريب هناك.

أجيت دون أن انظر اليه



ولي الشابة عشرة. بعد أن رأيت اليمنى جالسا على الارض والسواك في لحيه. وبعد أن ابتسم لي ابتسامة اكبر من كل مرة سابقة. وضجكت لأنني كنت نسيت. دخل نبيل بعمل قهوة لم أطلبها. وجلس ثم ذال

- وصلني اليوم خطبان واحد من امي وآخر من خطيبي ما رأيك؟

- لسم؟

سالت مبسماً. ها هو نبيل بعيد الي شبتاً من الجهة بطريقتي التي كنت نسيها في الكلام.

- في الخطابين

- انا لا اعرف ما فيها

أخزجهما من الجيب الأهل للجلباب ووضعهما فوق المكتب
وقال:

- اسي تقول إن خطيبتني هددتها إن لم أرسل لها مبلغاً كبيراً
تعجز به شقة - ستركني. وخطيبتني تقول أنها تنتظرنني كما ينتظر
العصفور طلوع الصبح ليظني.

انطلقت اضحك وأحسست بالدم يجري في عروقي.
- لا تسخر مني هذا خطاب خطيبتني وهذا كلامها الغراء
بنفسك

- كنت مشتاقاً إليك يا نبيل.

تأعلاني باسماً وقال:

- أنا أريد وأهلك.

- قلت لك من قبل أن تسافر.

- وأنا قلت لا استطيع. انني أفكر في حل آخر. أرسل توكيلاً
لأخي الأكبر بعدد قراني عن خطيبتني. وأرسل إليها فيزة دخول.
وثاني بثوب الفرج تعيش هنا معي.

- حل سليم.

سكتت لحظات وقال

- انشككة أن أخي الأكبر منقل العقل قليلاً والثاني في السجن
كما قلت لك. أنا لا أعرف كيف أخلص من هذه المورطة.

وقام وتركني والدمعة معي في الغرفة. لكنني أحسست وكأنني
صريت أكثر صحة وعافية.



في الثالثة والرابع جاءت روز. كان منزل آخر الذين انصرفوا من العصال. القرب مني وهمس في أذني. «عندي حكايات يا استاذ، ثم تحدث بصوت عال «تكسر سيارتك لو أكرس سيارتي لنفوس كل يوم معاً». وانصرف كلعادة متعجلاً.

رايتها تكف بالسيارة خارج هياحة ووجهها وشعرها يلعبان في ضوء النهار الذي امتلأته الشمس بعد صباح مليء بالضباب. لقد نزلت تصاممني. وكنت أعرف أن عابداً يقف بباب مكتبه ينظر إلينا فقد تَوَقَّعت له بالتحية وَكَبَّتْ سيارتها وتبعته بسيارتي. قطعنا مسافة ليست بالقصيرة على الطريق الاسفلتي. ودخلنا إلى طريق جانبي مهبط بالحجر الأبيض الصغير المذكور، وخالي من شيء بعيد في الزمان. كلب البهمن غسطن بمنى على سهل.

طال الطريق وشراعت الصغراء، وظهرت فجأة منحنى وملاحة. وتوارت أشعة الشمس، وهجأة بانث بيوت منغلضة من الخشب الدهون باللون الأخضر ذات أسطح مائلة. هذا هو الكاسب الذي يعيش فيه الأميكنن عبرنا بوابته بعد أن اشارت للشرطي أنني معها. ورأيت ثلاثة صفوف من البيوت تشكل ثلاثة أضلاع لمربع. وكل بيت يتصل عن الآخر بمدينة صليحة دائرية يحيطها سياج من شجر الصبر. بين جدران البيت وسياج الشجر زهور شتوية مختلفة الألوان.

— هذا منزلنا.

قالت بعد أن تَوَقَّعت وتزكَّتْ سيارتها. فَتَزَكَّتْ سيارتي وصعدت ثلاث درجات بيضاء. ادركت المفتاح بالباب وذالت لي أن ادخل.

لماذا لم ترق الجرح؟ ماذا سيحدث معي انجوم، ايكون اليوم
ايضاً لخطأ جديد، تقدمت املمي وخطوت خطوة مرتبكاً، لكنني
سمعت صوتاً اجش يتحدث الانكليزية ويسألها هل أنتِ معها.
هذا مستر لاري بالشاكيد، فنفسُ بارقياج وجدتني املمي
يستقلبني في الطريقة القصيرة فابتسمت. لا ادري لماذا فكرت انني
رايت قرية الحديقة سوداء. طويل مستر لاري وطوي البنجان،
يرتدي اولورو اخضر كالكتف بنويد ايتفا في المكتب كثيراً وهو يوشيه.
يوحي انني انه رجل حسن ولا ينبغي للزيارة ان تطول ليكن لكز من
اين حقاً جاءوا بالقرب السوداء؟

- هاللو مستر اسماعيل. هالو مريودو؟

- هالو مستر لاري.

وتدني من يدي الى الداخل ورأيت روز تشتم لما ثم تمسكتنا
وتختمني

جلسنا في صالة واسعة في ركن منها مكتبة بها كتب واسطوانات
وشرائط كاسيت وتليفزيون وفيسيو ريك آب وستريو. في ركن آخر
دولاب زجاجي اتفق مريض وطبيب به رفوفه تحف صغيرة، وفي
الركن الثالث منضدة سوداء لامعة بسيطة حولها اربعة مقاعد
يقابلها في الركن الأخير الاثريه الذي نجلس فوق مقاعده اثريه
بسيط من الخشب السويدي فوقه حشايها منفصلة. لاحظت ان
المنضدة شبه مجهزة. عليها ملغز ابشر به ورود خضراء. رفوفه
ثلاثة الطابق كبيرة وثلاثة اطباق صغيرة لارغة كلها موزعة امام ثلاثة
مقاعد. وجوار كل طبلين سكين وشوكة وملعقة. واذا اتجانب دورق
مياه وثلاث طبل من السفن آب وثلاثة اكواب.

- بيرة مستر اسماعيل أم عصير؟ لدينا بيرة محلية - وفمرز
بعينه - وبيرة .
- عصير .

قلت بسرعة حتى لا يعود إلى ذكر البيرة مرة أخرى. لا أريد أن
يذكرني أحد بالليلة قبل الماضية.

قام واتجه إلى ثلاثة صغيرة لم أظن إلى وجودها، وأخرج منها
زجاجة من عصير الليمون، وعلاً كبيراً قدمه لي، وراح يتحدث بصوت
عزيم بانكليزية غريبة معجونة بلكنة امريكية تأكل نهليات الحريف،
وسمعت ريز ترد عليه من مكان لا أعرفه ولا أراها منه، ولم أهتم
سما بفولان شيئاً.

لحظت وأبليت ريز بأسمة في ثوب أخضر زاهٍ قصير يكشف عن
ساقها حتى الركبتين، ومفتوح طويلاً يكشف عن جسد عال مؤنس
على كتفين مستنكبين وصدر ناهد . أحاطت ريز منها بعدد من اللزائز
الأبيض اللامع وتطيرت عطرأ غامضاً يجذب مني انطاسي ليست
هذه ريز الجميلة التي رايتها ترقد في الجيفن، هذه امرأة تعمل دعوة
على صدرها وفي عينيها، ولعلها أدركت معني نظراتي فابتسمت .
- ما لك مستر اسماعيل؟ أراك شردت بذهنك

سألتني بعد أن جلست أمامي جوار زوجها، ماذا تريد مني ريز
بهذا السؤال؟ أجبت
- لا شيء .
- هل تخاف طعاننا؟

ضحك لاري بصوت كاذب يهز جدران البيت، فنظرتُ إليه في

دهشة ممزوجة بالامتناء، لبدا خجلان وهو يقول:
- لا تخف مستر اسماعيل، نحن جميعاً غرباء، طعام الغرباء لا
يختلف.

ومسحتني روث:

- كنت سعيداً في العمل مع مستر عبد الله.
- مستر عبد الله شخص ممتاز، لا بد أنكما تعرفانه أكثر مني،
مستر لاري يعمل في المؤسسة وأنت في حصانته.

ونقلنا الصمت، بدأ أنتي تجاربت حديد اللبابة، قالت روث بعد
قليل:

- فعلاً، مستر عبد الله شخص ممتاز.

وبعنا إلى الصمت، هل يروح النقاء؟ هل ينتهي الكلام بهذه
السرعة؟

لكن مستر لاري سألني:

- هل أنت من القاهرة مستر اسماعيل؟

- أنا من الاسكندرية.

- أوه مدينة جميلة.

- هل زرتها مستر لاري؟

- لا فوات عنها رباعية داريل لا بد أنك قرأتها، روث تقول أنك
مقتل جداً.

أدهشني إطلالة الكازب وقلت:

- اختلفت الاسكندرية الآن، لم يعد بها لجانب ولا يهود بالذات.

- لكن اليهود يعمدون الآن مستر اسماعيل.

- لا أظن مستر لاري

قلت ذلك ونظرت إلى ظهر روبر الذي استأثرت ولما كنت ألتصع
الطعام. ظهر بديع التقسيم، كنت أنهض وأحنضه، وربنا ساقبها
تلعمان بلقي غريب لكني تنبهت لنظرات مستر لاري، فالتفت

قام هو ووضع في السبريو شريطاً انسابت منه موسيقى خفيفة
منعشة، وعاد يجلس صامتاً وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من
أن أختس النظر إلى روبر وهي تأتي لتضع شيئاً فوق السفرة، أو
تعود إلى المطبخ، وعاد يمسكني:

- هل تظن حقاً أن اليهود لا يذهبون إلى مصر الآن؟

- يذهبون ولكن لا يهتم بهم أحد.

- لكن الصداقات يتحدث عن السلام كل يوم.

- الصداقات ليس الشعب المصري مستر لاري. بيننا وبين

إسرائيل دم كثير.

وسكّنت وسكّنت وحدث لشعر يائي أفسد كل شيء. قلت ليكن لكن
روبر ولفت الفاردة ذراعها تقول بصوت مبهج

- كل شيء جاف الآن

تصنا للمائدة ولم يكن الغذاء مختلفاً. كلن بالخبيط كما قل
لاري. طعام الغداء، شرائح من اللحم البارد، وشرائح من اللحم
الساخن، وأرز قليل، وخيز أذن، وحضار سوتيه. وطبق كبير من
السلاطة. وزجاجة نبيذ أحمر يرتقالي عليها علامة العرسان الثلاثة.

قال لاري:

- يجب أن نعتذر لأننا نقدم إليك نبيذاً انتقل بالطائرة.

لم أهتم ماذا يتعبد. فقال

- التنبؤ يفقد الكثير من مزاياه حين ينتقل. أفضل تبييض تنبريه في مكانه.

- هذه مسائل دقيقة مستر لاري وأنا لا أشرب الخمر

غيت روز الموسيقى. ولداوت اسطوانة تعمل بالسات
لشترافوس. وسأفني لاري ما إذا كنت أحب الموسيقى. انحنيت عن
سترافانسكي وطقوس الربيع وتشايكوفسكي ومارش السلاف وبدأ
لاري معجبا بتقائمي الموسيقية التي أعرف أنا مقدار بساطتها.
وحين قال انه يحب كثيراً موسيقى هايدن، قلت هذا الرجل الكندي
لا يصمد بدقة أمام حاجز مثلاً. وبدأ أن الجو تكتوب بحق هذه
المرّة. لكن روز ابتسمت وقالت بتفوق نحمد عليه. لماذا حقاً لا
تأكلون في صمت. وتستمعون إلى فراشات شترافوس وهي تحلق
حولنا



بعد الغداء قلت روز إن الكعاب سينما ستعرض اليوم
«التاجر الأخير في باريس». ولعل لاري
- أعلن أن مثل هذه الأفلام تمنع في مصر

كنت أعرف انه يريد أن يذل مني بأي طريقة. وأنا الحقيقة لا
أدري حتى الآن لماذا يذوقه بالعداء. قلت:
- نعم. هي مضروبة في مصر

ابتسم كمن ظفر بفريجه، ولم يضايقني انه وجد فرصة للنيل
مني. لكنه سقط في الفخ، وقال لي أن ادخل لأنني في غرفة نومها إذا
كنت مريضاً. أدركت انه يعرف أنني كنزقي سارلوس وانصرفت

ولمست لكني لم اتصرف. قلت سابقى جالساً حتى أرى الفيلم

كان لأرى ضعيفاً هشاً بحق. تكلم فجأة عن أميركا وقال إنها ليست كما نراها في الأفلام. في أميركا فقر وجوع. وأنه شخصياً بطل جداً كبيراً حتى يأتي إلى المملكة السعودية. بدا لي وكأنه يتحدث مع مسؤول سعودي يملك قدرته. لكن ردّي أنني جلست جولري بعد الغداء طوال الوقت. كانت تبدو دائماً أكثر ثقة في نفسها.

حين خرجنا إلى السينما كان الجو أكثر برودة. ربما لأننا هنا وسط صحراء واسعة. شاهدت أكثر من رجل وامرأة يخرجون من البيوت، ويمشون على سهل يفسحون ويتحدثون بصوت عالٍ، ويتجهون جميعاً إلى السينما خلفي وجديتها صغيرة أثيلة ذات مقاعد جلدية وثجة ومكيف الهواء.

جلستنا. ودار الفيلم الممنوع في مصر، وخرجت مسعوراً بأداء مارلون براندو، ولكني رايت عم عبد الله ينظر إلي في دهشة. كان بالسينما أيضاً. وكان في صعيته أميركي قصير وضخم. بدا أنه استمع لرؤيتي، لكنه تجاهلني وبنى في طريقه مع الأميركي. ارتبكت قليلاً ثم وجدت نفسي أفكر في الرخصة الأخوة الجميلة في الفيلم. ومارلون براندو يخلع سرواله لتفكر أمامه النساء العجائز. ثم اندمشت للغاية وأنا أذكر مارلون براندو وهو يطلب من الفتاة الصليحة أن تضع إصبعها في مؤخرته. وكيف راح يتلذذ بقلم وهي تفعل ذلك.

صرنا نتنفس الصمت وناكله سعيد بلعل كل شيء بهنوء. يقوم
ويجلس كأنه خيال. يأكل كأن أسنانه تعمل وحدها وعلى مهل. لا
يتكلم ولا يفتح للتليفزيون بصري كثيراً ويلقى في القرآن بلا صوت.
وأنا عرفت إن عابدة رحلت عن نيويورك فلجلجت بضمتي.

في طريق عودتي بعد دعوة روز ماري أحسست بألم في الجرح.
كان الوقت ليلاً والبرد شديداً والظلام حولي يُضيقُ الخلاء الواسع.
وضغط البول شديد في مثانتي. فتأولفت السيارة ونزلت. وجوارها
ولفت ورايت الدم ينفذ من الضمادة فوق الجرح. سببت الحركة
شطاً في مكان للقيظة إثر. كلن من الممكن أن أخذ طريقي إلى
البيت وشعير وجبه الأمل لكنني توجهت إلى المستشفى. وتأملت
عورده أنا الذي رغبت أن أرى عابدة أخذتني وردة إلى طبيب
باكستاني، رفيع العنق، صلب الرأس بشكل مثيرة لفتال لها أن تعالج
هي الجرح. وتركنا صرماً حين سمع سيارة الإسعاف.

— أين عابدة؟ أظن أنها لا تزال تعمل بالنيل

سألت وردة وخرجت بسؤالي، فتورق وجهها، وتزددت في الكلام
ثم قالت.

- في غيبا

- غيبا-

- أجل

- لئلا

- احتاجوا واحدة منا فأصابنا الرعب وتقدمت عابدة بنفسها
تطلب العمل هناك.

- لكنني كنت هنا منذ يومين. لم تقل لي شيئاً

- حدث تلك كله أمس وأنتهم سافرت.

- إن هذا الحد

قلت بصوت هاسر ووردة تنظر الي. انتهت من وضع الضمادة
وجرت تلحق بالحادثة. كيف لم يخبرني وجيه وما الذي يجعلها
تأخذ مثل هذا القرار؟ أصابني الصمت فأصاب وجيه أيضاً الذي
لم يجد أحداً يتحدث إليه. فصرنا نتنفس الصمت ونأكله

كان عليّ في اليوم التالي أن أذهب إلى واضحة. وكنت أعرف أنني
إن أذابتها أيضاً. تلقائي خالداً عاشقاً كعادتي وأخذني إلى الحجرة
الواسعة فلم أر المكتف. وطفت نفسي إلا أنزعج.

- تفضل بالجنوس يا استاذ.

وأشار إلى الأرض لم أجلس ولم أزد.

- والله يا استاذ واضحة عريضة جداً منعها الضيق من
استقبال أحد عدة اسبوعين قد تمتد إلى شهر وبفهم الله ما يحدث
بعد ذلك.

مذات يدي أصابعه فصالحني. طمّح صالح مشهور التقني

خير السُّكَّر في كل نَبوك. عند الباب الخارجي قال خُلقه.

« اعرف بيتك يا استاف. وهي تشفى واخضعة سأحضر إليك.

ولم ارد تَلْغيف طاروت الرسول بلحجارة حين ذهب اليها. من
تَلْغيف خرج ابن جلا وطلاع الثلثا ودخل الكوفة فطلع العمامة
وأصدر أول مرسوم يهدد بقطع الرؤوس لكنني لا اظن ان صالح
ينسحب لتَلْغيف ليس إلا طائشاً موقوراً من يتوك الجنوب العري إلى
الشمال الغرب الجاف الأول، وصار الصمت أعمق. وجاءت لي
عودتي أن لا أخطيء لأمر بيت سيد الغريب. فلك الموقف المنسي
بالنول والفذلان لا يجب أن يصيبنني الصمت الابد.

سافر سعيد ولم اذهب اليوم الى العمل نعتت الى انظار ورايت
وجوه المصريين حولنا مبتهجة متاعهم كثير ومركتهم داثية
والشمس سلطنة اكثر من كل يوم وضحتهم عالية. إنهم عز
أواب القضاء الراسية. لكن سعيد صامت وأنا يزداد صمتي.

عدت الى البيت وقرأت الصحف التي اشتراها وحيه ولم يقرأها.
بينهن بعض عن استئناف المفاوضات مع مصر خلال اسبوع او
اسبوعين في امريكا. والانباء تتضارب حول سفر الشاه. وشهور
باختيار رئيس وزراء ايران الجديد يعلن أن إيران قد تولفت تصدير
البترول الى اسرائيل. وعشرات من الاطباء الطائرة تظهر فوق
استراليا اجسام زرقاء لامعة تطير على غير هدى فوق الساحل
الشرقي للبحر. ثم يتحول لونها إلى الأحمر وتُرسل اشارات
غامضة. والطعام يتكون من هذه المشغولات هي كوكب الزهرة
الذي يبدو الآن في أقصى درجات لمعانه بحيث يمكن رؤيته اتنتي

عشرة ساعة كل يوم بطريقة تنفذ كل من يراء فينتصرون أنه جسم متحرك.

عاد وجب في الثالثة ودهش لأنني لم أتناول الغداء حتى عودته وقال إنه من اليوم سنتحدى دائماً معاً. قبل أن أدرك معنى كلامه تكررت في ارتفاع صوته المفاجيء.. قال
- سأعمل بالليل شهراً أو شهرين.

إذن سامحي الليل وحدي. قلت في نفسي وعاد هو يقول

- اظن أنه لا حاجة بنا لأحد يسكن معنا ألم لا تتحمل ميزانيتك نصف الإيجار؟

قلت في جسم.

- اسفنا في حاجة إلى شريك ذلك ولا إل هذا البيت نفسه

- كيف؟

- هل تستطيع العيش الآن في بيت يملكه صالح منبوري النكفي؟



كنت نائم بعد الغداء أنا الذي أعلنتُ الحرب على النوم الذي أعلنُ الحرب علي.. في يومين متتاليين ضاعمت عابدة وواضحة ولم يبل إلا يوم ثاني التي اعرف انها لن تزيد علي جملة عابضة..
والآن أيضاً ضاع سعيد عازدادت للنوم الاسلحة

لخمسة أيام وأنا استخدم كل سلاح حتى لا أنام. استخدم أكثر من مرة في اليوم الواحد. أتناول غداة خفيفاً رغم هزائي بعد العملية لا اجلس فوق السرير العب الرياضة في الغرفة وأفكر بصوت عال.
لكن النوم مثل سموس خناس ينجح دائماً في الاختلاس لحظة

تترقى فيها الهدايي ليضع فوق عيني دثاراً ثقيلاً من الظلام ويشدني من قسوتي إلى أسفل سافلين وبقل واقفاً فوق راسي يرسل كوابيسه ورواه. بصيبي النوم بالرهب الآن ولراه جالساً أعمى في كل مكان في الغرفة بينهم مأكراً مطمئناً إلى انه سيد الكون. انا يا سيدي مستعد للاستسلام بشرط ان تغير رؤاك. لماذا تداهمني بالرهب ولم اخطيء حتى الآن في حق احد. أغلق كتاب واضعاً إلى الابد وخاب حدسي. واخفكت ببساطة إلهاق يد وانفتاحها. ولا الخن أن للقصة تنقذ غير ما جرى فكل ما احسست به لم يكن غير ظنا. لم تراك ظن أني اشتبهت بوز ماري التي دعفتي ولا انهم للآن سر دعوتها؟ ها أنت رأيت يا سيد العيون والأجساد. ويا باعث الحياة وسلب الأرواح. اني ضيقت صدري أمام زوجتها. ووضعت الجنادل في طريق المياه العذبة السلسبيل. نعتك تلويني من أجل عابدة. اني خطا في اني لا انهم المرأة إلا للزواج؟ اني خطا في اني كنت أبوح برنجتي؟ هي التي سدت العروق وفشعت باب حرج ما له من شفاء. ستبقى هذا عشرين سنة حتى يشفي هشام الذي دعفته سيارة يوم زيارة نيكسون للبلاد. تهاصرتي السياسة أنا المحاصر يا سيدي لا تنس واتركني أنام مرة كالأطفال فلم اخطيء يوم صرعت «لا سال» اني لا انهم الحب إلا للزواج. من كل بدريني ببساطة العقل وشغافية الروح. انا ضعيفة الراجب والمبارىء الصائبة البالية. لا خطا في ولا خطيئة رغم موت «أمال» وضياح الجميع في زماننا لا يموت أحد بالحب إنما هي قصص قديمة كلها فما خطيئتي إن كل ذلك قد حصل؟ الا تزال تنظر إلي رغم اني جالس فوق القعد أقوم بجهك النعل وانحراك بان انظرو ولو لحظة فوق السرير؟ ساستحم الآن ولن اعطيك اليوم فرصة. اليوم على

الأفل - حتى لو عسيت عيناى وتخطعت العداىبى .

بتركت المقعد متعباً ، وتعددت فوق السرير القلوم رغبة فى البكاء .
أملت حقاً فى النساء الثلاث . لم تبق إلا واحدة لا أمل فيها . أية
خيبات شو خيبات خيبات أصعبها بنفسى . وخيبات تلقى فى
طريقي وشدت الغطاء فوقى ودخلت الوجهة الثلاثة معى نعتى .
ودأبتهم . أولئك الحراس الأشداء سرود الوجوه صفرا الأسفلن ذوي
الابشامة الدائسة والنظرات انمتهة إلى الأفق البعيد العالي
بسورن الأرض ويرشونها بالماء ويلقيون جداراً عالياً ويلهون
بأيديهم للسماء فينسلط منها أولاد صفار ولولاد كهلر وشيوخ
وتبنل ونساء وبنات وتوتلج فى الأرض أحجار ويمسك بي
الخصيان ويلقون بي ال أعلى فاجلس فوق جبل تحيط قمته المياه
فلا استطيع النزول وأرى واضحة مكتومة على الأرض جوار الجدار
رأسها بين ركنتيها وذراعيها وتشتيق وترى الذين يدورون حولها
بالابتسامات الطهاء والذين نزلوا من السماء أمسكوا الأحجار
التي ارتفعت فوق الأرض وتلزع وتجري إلى اليمين فتراهم وإلى
اليسار فتراهم وأمامها سدوا الطريق ولا سبيل لها بتسلق الجدار
وأنا عاجز عن النزول وهي تسمع صراخي وترفع لي ذراعيها هلعاً
وحجرٌ بعد حجر والدم يتلجر من رأسها ودور تنف عن قمة جبل
قبالي انشقت عنه الأرض فجأة تضحك وتخلع شياها تطرحها في
الهواء وتعهد الأرض وتنبسط ويصعد الجميع ال السماء وينزاح
من حول الجبل الماء وأنزل مخطرات بطيئة اتقدم إلى واضحة التي
تكونت الآن تنهت كطلق انتهى من الصراخ بعد أن ضربته ضرباً
مبرحاً وجلس وحيداً في ركن ذليلاً يدرك مبكراً جداً معنى الإهانة
ويذوب الجدار قطعاً من اللعج فيصير بحيرة باردة وتعسكني يد من

ذراعني تقبطني أنا الجالس دولي بين ركبتي وتراعي حول راسي
 انتهت بالبكاء وأرفع وجهي وأراها عليدة. يتوارق السمع في عينيها.
 وامشي معها فتسقط سني في حفرة في الطريق. وأقل أمشي وحدي
 باكياً أسبح دموعي بيدي ويحول الطريق وأضل فيه شلبي وأدخل
 الشارع للعام فأصرخ يا الهي ما كل هذا الجحيم؟ جحيمان في
 لحظات وأنا ما جئت السوق إلا التماسا للتعب حتى إذا نمت أنام
 بعد سماء الغوم بالغف سماء انينساني، لكن سيارات الشارع العام
 كلها تعود في اتجاه واحد. وتصرخ ويعلو نغمها. وتكار تفلز فوق
 بعضها. وأتقدم مسرعاً في الشارع أرى الأفق الجنوبي أسود من
 الدخان الكثيف الذي يعلو السفة الذهب التي ملأت صفحة الفضاء
 بالاعمار الجنوبية. لتجارزات متوالية وأخشاب تطير عالياً وأشياء
 ضخمة لا أميزها وأشياء صغيرة والرجال والنساء يقبلون مسرعين
 في دهر يحملون الأطفال أو يجرونهم جراً بلا رحمة والحسم الحمراء
 تسقط فوق المنازل القريبة والصراخ يختلط بكل اللغات وأتقدم غم
 ميل بالاختناق الذي صرت أحسه وأجري مع الغرباء انسحب
 المسافطين فوق الأرض من الرجال والنساء والأطفال أعود مسرعاً
 بهم إلى شمال الشارع بعيداً عن النار والدخان وصوت عربات
 الأسفلت يأتي من الخلف لكنها لا تتقدم من زحام السيارات التي
 تركها ركبها الآن وجروا وعلينا نحن الذين لا يعرف واحد منا
 الآخر لن نحمل الموتى والمختنقين إثر سيارات الأسفلت حيث تلق
 وصوت عربات الاطفاء يملأ الفضاء وتدور حول الشارع لتصل من
 الشوارع الجانبية إلى موقع الحريق الذي يلتهم نصف الشارع
 العام الجنوبي كله وبرزت الخراطيم الضخمة من الآلة لكنها
 فجأة تفلت من أيدي الجنود وتتلوى على أرض الشارع كالنعاين

الضخمة المذمورة وتسقط فوقها حمم النار فتزداد تهوراً في التواءاتها ويهرب الجنود والمياه تغرق أرض الشارع ولا تنجيه إلى الغضاء ولا النار وتمر نجمة كبيرة في السماء لمنظّم الأيض ويرتفع التكبر بكل اللهجات وترتفع الأنوع ضاربة أن يهمل المطر ولا مطر غمر القيمة غير أبهة لنا ويرتفع في الجو هدير الطائرات المروحية الضخمة الصفراء والقرأ عز جوانبها (القوات الجوية للولايات المتحدة). أجل. حروف بارزة والطائرات الربية تلقي فوق الشارع سحباً من الدخان الأبيض وانهلأ من المياه.

مضى وقت طويل حقاً حتى وجدت نفسي وحيداً بين الخراب الشامل كنت مبتلاً بالمياه من رأسي إلى قدمي لكنني لم أكن متعباً. أي قوة جنونية تلبسني أنا الذي لم يعض على خروجي من المستشفى ثمانية أيام ولم أشعر بأي ألم في جرحي فقط صرت أشم رائحة شواء لحم محروق أم خشب أم حجارة أم بشر لا أدري إلا أنني لرى عيوناً ذاهلة للرجال والنساء تبحث بين المحرطين الذين يملأ صراخهم الغضاء. والمساكين بعد أن صاروا جثثاً متفحمة كُشِفَتْ وجوه النساء جميعاً وسقطت أغطية الرؤوس من فوق الرجال وارتفع الأذان من المسجد الكبير وكل المساجد. وأقْرَبْتُ من منطقة أم سرمان التي لم تُصَبْ بسوء. الجامع يعميها أم أن أهلها ليسوا من هذا الزمان؟

ورقفت اجتهد لشكر من الذي كنت أبحث عنه بين الحوي والمصابين. كان سعيد هو الذي ينزل معي دائماً إلى السوق. سألني سعيد حقاً رويد عنه بنفسه في المطار..

٢٠

صار عليّ أن أجاعد لأنسى. لا شيء هنا ينميك شيئاً. تبوك لا تنميك. لك ولا أبوء. والمسألة أن الغرباء هم الذين جاعوا يبحثون عن النسيان.

ساعدت انتقلنا إلى بيت جديد في انشغال ذهني بعض الوقت حيث ترك لي وجهه الأمر كله بصعوبة استأجرت بيتاً صغيراً من غولتين وعلى نفس الطراز العربي في نفس الحي الذي نسينا. الفيصلية غرب البلدة، لكن عند مهابه حين يلتقي بالمصحرا. بيت جديد لا تزال فيه رائحة الملاط والدهان. وتخلصت أيضاً من الأثاث الزائد ببيعه لأحد تجار «الجراج».

لعمري وأنا ادخل البيت الجديد لأول مرة أنني قد لم أفورق من مصر ولم يصبني في أن عرفت أحداً هنا قلت لعل النوم بعيد إلي ما خلفه الله له. ونمت بعمق حقاً ولم يرمجنني الفجار الذي كانما كان على موعد معي. دخلت ونشأت في المطبخ. ولم أكن في قلتي لو مطابخه. جالست وكتبت خطاباً لعليلة الخلق كتاب واضحة إلى الأب وهو كتاب فتحة حماهني. وكتاب روى ماري خدام كله. فناء نذرت للموت والفسحة وما كان لي أن أخطو على دربها خطوة ناهرك

في نفسي لى كنت دفتته وأهلت فوقه الخراب، وعلم أن اتوسل له
بالحمد والفرحان، فما جئت هنا لأقتل لو أموت. ولتقل الأوقات التي
امضيتها معها مقاومة خطوة أدركت منها حيوية الجسد، وانصاع
الدنيا وكذبة الاخلاق. رددت ماري طمع الويفي الذي يمضي في
الدينونة يوماً واحداً ويعود لأهله وأصحابه بعدتهم عن فتوحات
استفادها من تحذيراتهم السابقة له، ولا مهرب لي من عايده، عبيدة
فقط نؤاسي جراحي الوهمية، وبها يمتلئ فضائي الذي اكتشفت
خواءه الآن

لم اكتب إلا ذلكا فقلت ذلكا، إجابتها إن جاءت تتم القصة،
وكتبت على المظروف، عابدة عبد السلام. مستوصف شفاء، وكانني
نظمت نكتة الانتياح تذكر النوم صديقاً طيباً. وكنت اكثر من مرة
اقوم ابحت عن الفار لايتسم لي وجهه المذمور وأشجعه على البقاء
وانزاج عني كل خوف من أحد أو عن أحد، وادركت انه قد مضى
شهر لم أرقبه رددت ولم أصح لرؤيتها ولا هي سمعت كنت مهتة
للمسيان إذن وخططي لعابدة من قشرة البلسم الاخيرة لروحي التي
اعتلت بلا سبب. هو بداية الجهد لانعاش ذاكرة الانثى الجميلة
بانه لا انثى في هذا العالم مهياة لها هيأت نفسها له من واجب. ما
الذي يمنع حقاً أن اكون فارساً نبيلاً في هذه البلاد؟ كل فارس نبيل
ألفد امرأة في تاريخ هذه الدنيا أحبها وأحبته. واليوم، وقد مضت
ثلاثة أيام على خططي لها. الفود سيأرتني إلى العمل بروح الثعيرة رغم
السحب السود النفاذة غيغ المعطرة التي تذهب عني السماء.
يتعزل الشمس عن لبنائها، وتضم البرد القارس تحتها، فأشعل
السيجارة ثلثو السجارة في كابينة السيارة مغلقة النوافذ



رايت الباكستانيين يلقون امام الكاسب وحفائهم الكثيرة على الأرض ولا يكسرون عن الحركة. وأنا اميل بسيارتي عن الطريق الرئيسي لأدخل باحة مكاتب الشركة. راوا سيارتي أيضاً ولوحوا لي بأنهم يادريهم من بعيد. طرة سبيلهم اليوم الى باكستان لي إجازتهم السنوية. تسعة منهم اسفوا في العمل خمس سنوات متواصلة، فيهم خمسة انهم تعاقبهم وابن يعودوا. العاشر ارشد الذي ينتظم في القيام بإجازته كل عام. وسيعود بعد الإجازة يبدأ عامه للخمس.

وأنعوني اسس وأنا امينهم التذاكر وجوازات السفر. وسألوني ما اذا كنت احب شيئاً من باكستان. كلهم والذين لن يعودوا ليدوا كرمهم، لكن ارشد كان يبدو مرتبكاً. لم لشأ اسأله. قلت لهاها الضاحك التي تسبق السفر الطريق. بدوا لي اليوم في سرارهم البيضاء الفضفاضة، والجاكيتات الزرقاء والفضراء فوقها. وعبرتهم الدائبة امام الكاسب. كأطفال يوم عيد. ودخلت الباحة ترحب في صدي الفضة والابتهاج.

جلست وعدي بعد أن اقبل العمال ولوحوا لي دفتو الحضور. وما كنت اشعر في ترجمة بعض التقارير، حتى فكرت إن حلاً لا يأتي وجيه بإحدى زوجتيه لتميش هذا معه؟ تهاوز وجيه الخامسة والأربعين. ودخل في منطقة الفراش الهائى والبيت المريح. والنظرة الطيبة للزوجة الطيبة. والسعادة بما يتجه الأولاد من ذكرى وهم يعادون ولو قليلاً. سرى الأب في الضم والحب والامل. نمط غريب من البشر وجيه حلاً بشقى ليسعد زوجتين بعيدتين تزوجهما ليقضى عنهما بعيداً^{١١}

— شُكَّت الباكستانيين —

قال نبيل وهو يدخل الغرفة باسمًا يحمل فنجان القهوة.

- قروب. والله قروب. طول الليل تعال يا نبيل ساعدنا في العنود على حبل. تعال يا نبيل ساعدنا في العنود على كوتونة فارغة. إيش تبغي يا نبيل من باكستان يا عم لا أبغي شيئاً اتركوني انام. اسهر معنا يا نبيل فلن نراك مرة أخرى لقد ظنوا بقتول طول الليل.

- وأرشد:

- غريب ارشد. ثم يتكلم كلمة. لماذا؟ هل تعرف؟

ولم اجد رداً لا اعرف رداً حقاً. وسكتنا قليلاً ثم قال نبيل:

- ما هي حكاية الطابق الطائرة هذه الأيام؟

- أيّ الطابق طائرة؟

- الا تقرأ الجرائد؟ الا تسمع المشرات؟ الطابق طائرة في اسرائيليا

وقلنا بعيد. في نيوزيلاندا وقلنا بعيد. في اليابان وقلنا أيضاً بعيد. في

اسيركا أيضاً بعيد. لكن في الهند وشمال العراق وتركيا يعني أن

المنطقة قريبة جداً

- ربما؟ يعني من قريبها يا نبيل؟

- أنت نطسك؟ لا تعرف؟ الطابق طائرة تعني أن الناس الذين

يعيشون بعيداً عنا في المريخ أو زحل يمشون شعروا الأذى.

انطلقت اضحك بشراسة وهو ينظر الي في حبل ودهشة

وابتسامة ذاهلة لم تنته إلا بدخول سيارة وسامعنا صوت عم عبد

الله وهو يدخل يتحدث لأحد بالانكليزية.

- يا نهار اسود!

قام نبيل وقرع إلى الجبلية، وبعد لحظات وقف عابد على باب
غرفتي بدعوني لمقابلة عم عبد الله



- هن لديك مشكلات في مصر؟

سألني عم عبد الله بعد أن صالحتني مستر لاري الذي وجدته
معه في غرفته.

- مشكلات من أي نوع؟

- مع العمل. مع الجيش. أنا أعرف أن الكثيرين منكم يهربون
من الجيش ويتقنون أوراقهم.

- أنا لا مشكلة لي مع الحد.

قلت وأنا أطلب النظر إلى عينيه

- إذن تسافر بعد يومين إلى القاهرة. - لاري، يشرح لك.

وانشغل عنا بالتليفون، يسأل أرقامه فقام مستر لاري وهو يقول.
- يمكن أن نتحدث في مكتبه.

سبقتة وتبعني. وجلسنا على مائدة متقابلين، ولا بد أنه لاحظ
شروعي قبل أن يتكلم.

مصر. والآن. نطقها عم عبد الله فانتزع صدري بالفزع. مصر..
والآن. لعل فيها الشفاء من كل شيء. مصر. من لي بالاتصال بعيدة
بسرعة البرق لأعرف عنوان أهلها هناك فالأبل هاشم المتفائل الذي
لم تحب من اختوتها غبه والذي ضرب حولها سوراً من الانتظار
صلداً دون أن يدري. أمي حلة تربطني بها حتى أرسل إليها برقية

يمكن ان يفراها أي أحد؟ لا قليلون بين تبهوك وضبا. لا قليلون؟
اللغة على البترول والريال والدينار والتملار الذي لم يزل يوسع في
المسافات!

- كيف حالك مستر اسماعيل؟

- بخير مستر لاري.

- الرحلة الى مصر جميلة هل أي حال.. لقد وضعك أنت بالذات
لهذه المهمة منذ أنك يوم. قالت أنك تجيد الانكليزية ونحن نحتاج
لها.

- حدثني عن المطرب مستر لاري..

- في هذا المطرب بوليصه شمن بضائع قيمتها ثلاثمائة ألف
دولار. عشرة صندوق من المعدات الهامة شحنتها أنا منذ أربعة
أشهر من سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا ولم تصل حتى الآن.
على بوليصه الشمن كما ترى رقم الرحلة وقاربها والشركة التي
شجنت عليها. شركة طيران لولتهنزا الألمانية وهذا أيضاً خط سير
الرحلة سان فرانسيسكو. نيويورك. ميونيخ. القاهرة. جدة. تبهوك.
ولماذا أذهب للقاهرة مستر لاري؟

- لأن الاحتمال الوحيد الآن هو فقدان هذه البضائع في أحد
المطارات. ومطار القاهرة هو المرشح لذلك. أنت تعرف مصر أكثر
مني مستر اسماعيل.

قال ذلك وانضم لكني لم انضم. عاد إلى شعوري بالتحدي
أزاده تلك الشعور الذي قلز بيننا فجأة بلا سبب والذي أشعر به
وقد ازداد اليوم

- نكز الا يمكن مخاطبة هذه المطارات بالتمكس من هنا؟

- فعلنا ولا اجابة حتى الان ، مسالة غريبة مستر اسماعيل ، لكن
لا تشغل بالك كلحاً ، سنجد البضائع في النهاية

واخرج من جيب مشرقه اداخلي رزمة صليحة من الريالات
ورقة وقياً .

- هذه خمسة آلاف ريال لك معروف جيب بالقاهرة . انا اعرف
ان كثر شي ، في القاهرة تحرك النقد . وهذا ايهال ارجو ان توفيق
عنه

ولم اجد طريقة لاريد اليه الامانة ان علي حق بانك كيد ارتيكت
لاني لا اعرف كيف انتصر عليه وُلُتُ علي "الإيهال بسرعة فطام
يلف مبتسماً ويقول:

- عليك الان بالاتصال بالخطوط السعودية لتحجز لك تذكرة في
رحلة بعد غد ، ولا تنس ان تطلب فيزة خروج وعودة لمدة شهر او
شهر ونصف حتى يكون لديك متسع من الوقت .



خرج "الاري" ودخل "أرشد" في نفس اللحظة شاهد الوجه لكن
في عينيه غيظ شديد ، وألقى بنفسه عز القرب مقعد .
- أرشد ، غير معقول :

ونظرت إلى ساعة الحائط العائرة . الطائرة تتلق في التاسعة
- هل تأخرت الرحلة أرشد ؟

رفع عينيه إلى وهراً رأسه بالنفي لا يزال فيهما غيظ وغضب
- لماذا عدت الآن ؟

- بوتو مستر اسماعيل . بوتو وضياء الحق ..
- هل قتلوه؟

- ايدت المحكمة العليا قرار الاعداء السابق ضده . رفضت
الاتهام الذي قدمه . بوتو لم يطلب العفو . المحكمة تعمل كما يريد
ضياء الحق .

- ارشد .. أنت صديقي . أظن ذلك . هذه السلسلة الكبرى لا
يجب أن تعطى . بوتو يقتل ضياء الحق . ضياء الحق يقتل بوتو . إلى
الجميع بالجميع .

- أنا أوافقك مستر اسماعيل . لكن - وأجهش في البكاء - لقد
هوانا انفسنا لسفر اليوم . ارسلنا برقيات لأهلنا وعيادوا انفسهم
لاستقبالنا . كلنا نيكى الآن مستر اسماعيل . كلنا نحب اولادنا
وزوجاتنا وأبائنا وأمهاتنا وأخواتنا . ونأج ييكى . غلام ييكى . شوق
بيكى . خورشيد ونجاح وسعد . نحن نساء جداً .

ولم يكن مهمت شيئاً بعد . أصابتني الحربة ودخل نبيل الذي
عرفه بياً سفري للظلمة يقول بصوت عال:
- هنيئاً لك السفر .

وتوقف عن الكلام إذ رأى ارشد ييكى
- ما لك ارشد؟ مالك صديق؟ فلذا نيكى . هل هناك مشكلة حول
الكثوث؟

احتجت إلى قوة كبيرة أن لا أسقط . ولم يرنج ارشد وجهه إلى
قلت لنبيل
- لقد حكموا على بوتو بالاعدام مرة ثانية .

- بيوتر، بيوتر من؟ آه بيوتر رئيس الوزراء.. هل هو قريبك أرشد؟
ومرة أخرى كنت رغبتي في الضغط، وغمرت لتبيل بعيني لن
يكف عن الاسترسال في الكلام. سألت أرشد:
- أنا لا اتهم سبب عودتك من المطار حتى الآن.

- المظاهرات مستر اسماعيل انتهت في كل باكستان الحكومية
أغلقت المطارات. قفلوا لنا ذلك هنا. قفلوا أنه من الأفضل إرجاء
الرحلة بدلاً من الانتظار في جدة أو في برومباي بالهند
وسكتنا نحن الثلاثة، كان نبيل لا يزال والغفأ. كنت لأرشد:

- لا أظن أن دولة تغلق مطاراتها أكثر من يوم أو يومين، وغداً لو
بعد ليس بعيداً أرشد..

ولم يرد.. وقُذنا نسكت من جديد حتى سأقني:
- ماذا سيفعل الآن مستر اسماعيل.. نعود إل العمل؟

- لا، ابقوا في الكامب. سأحسب لكم ما تمسونه من انتظار أيام
عمل لا تغلق أرشد.

والف وقال:

- أشكرك جداً مستر اسماعيل. لا تنومي على بكائي

وصالحني وظل ممسكاً بيدي لحظات. قلت:

- أنا احبك أرشد. واحب كل الباكستانيين

فشد على يدي بيده في تواضع كبير وانصرف.



لم يحطني أحد فرجة الجلوس وحدي. جلس عابد معي كثيراً

يشرح لي عنوانه بالطرية بالقاهرة واعطاني ألف دولار لاسلمها
 لأبيه . خرج وكان نبيل لم يتحدث معي بعد ليعلم يريد ولم يفاوض
 الحجرة فحدثني عن اميابه التي يحن اليها، إلى جلوسه في المقهى
 ولعب الدومينو بين السلخانية والجزائريين والبشكارية الذين معها
 لبسوا ملابس نظيفة تبهر بها آثار دم. ولم يطلب مني شيئاً، غير
 انه سكنت مرة سكرتيراً طويلاً وقال إنه يعلم هذه الأيام بأنه يلف على
 شاطئ النيل في الكهيت كانت ويقذف بالأحجار لتصل إلى الشاطئ،
 الآخر في الزمالة. حلم يتكرر كثيراً ولا يفهمه كان يفعل ذلك وهو
 صبي وكان زملاؤه يحسمونه ويندهشون من هذه القوة الهائلة في
 ذراعهم وعجزه في نفس الوقت عن السباحة مثلهم في النيل بل وخطوه
 الشديد من النزول اليه . سكنت مرة اخرى طويلاً وقال لي انه
 يخاف كثيراً مسافة الاطباق الطائرة التي تتحدث عنها الصحف
 والاذاعات. ماذا يحدث لو سقط طائر على بيتهم في اميابه
 البيوت قديمة متساقطة بالعالية ويمكن ان تحترق كلها. ولم يصدق
 أبدا انها خرافات حتى الآن إذ لم يأت شخص واحد بطريق طائر لو
 مخلوق جاء مع الطبق ومريض صورته أو عرضه إلى أنفاس على
 شاشة التلفزيون.. لماذا إذن يتحدثون عنها إذا كانت خرافة؟ قلت
 له اننا لا نعرف مثلك أيضاً لماذا يتحدثون عنها. ولكنني اذكر أنهم
 في مصر قالوا بعد هزيمة ١٩٦٧، إن مريم العذراء تظهر كل ليلة
 في كنيسة بالقاهرة. قال «بالطرية وهذا حصل». لقد ذهب مع امه
 ونساء الشوارع ورأها. قلت له لقد وضع بعد ذلك أن هذا كان من
 ترتيب اخبارات المصرية ليضي الفاس الهزيمة، لضرب جبينه بيده
 ويصرخ «يا دين النبي». وقال إنه لا يصدقني. فلم اشأ الاسترسال.
 فقال إن الصحف تتحدث عن اطباق طائرة في بلاد كثيرة وهذه

علامات الساعة. وخرج ورايت الساعة الثالثة عشرة فالتفت إلى
الناحية لنظر إلى اليميني فوجدته واقفاً بباب الغرفة فقلت في ذهولي
سيكمنني. وتقدم وصافحتني مبتسماً ابتسامته الواسعة:

- تسافر إلى مصر.

- أجل. هل ترغب في شيء أحضره لك معي؟

وانقبضت أسارير وجهه وتجهم ويزكني وخرج يجلس مكانه
يمضغ السواك. ماذا كان يريد مني ولماذا سألني؟ لم أجد. ودخل
عابثاً إلى الغرفة وقال إنه فكر وقرر ألا يرسل شيئاً لأحد الآن لأنه
أرسل مبلغاً كبيراً منذ أسبوع. فأعطيته الألف دولار وأنا في دهشة
مما يفعل. لكن منصور الذي انتطع كثيراً عن الظهور دخل الناحية
بعربيته فالتفت زوبعة من الغبار



- بلغني أنك تسأل عني؟

قال وهو يدخل من الباب والقرع فوق كتفه ونم أكن سكتت عنه.
فكرت فيه مرة أردت أن أخبره بانتهاء خطوبة وداو ومعيد. ليس
حياً فيه. ولكن كرهت في وداو التي لم أرها، والتي دفعت سعيد
للاحتفال الذي أنهى وجوده هذه. أما لا أعرف ماذا كان يبيت
منصور لهذا. لكنني لا أظن أنه يبيت إلا شراً. هل أفضها الآن
وأخبره

قلت بعد أن جلس خلف المكتب المجهز للخدمة. ووجه نظره
نحوي ينتظر اجابة:

- ثم اسأل عك وإذن كنت أحسب أن أراك.

- لقد عرفت القصة كلها .

- أي قصة ؟

- قصة رأس السنة لقد وُثِّقَ صاحبك .

وسُئِلْتُ كيف عرف بـسطر سعيد هل يعرف صالح شيئاً عن منصور أيضاً؟ تجالعت منصور وشربت لترجم ما لم أهدأ فيه بعد من تطايرين . لم يتحرك منصور من المكتب . رأت القرد يلفز على المكتب ثم إلى الأرض ويلفظ ينظر إليّ كأنه يعرفني لو يحاول يتذكرني .

- تعالى .

صرخ فيه منصور . وكنت أنا ولقت مذعوراً من نظرات القرد الصغير الذي احمرت عيناه . وبدأ متحفظاً لعمل ما لا أدركه . خرج منصور من خلف المكتب ووالف بعد ذراعه أمام القرد الذي لم يتجاوب .

- تعالى يا كلب .

ولم يتحرك القرد . فلبث نظر يميناً ويساراً . حلق منصور العقالي الأسود المجهول بإحكام وطرح به في الفضاء فأحدث صوتاً كصوت سوط مروض للأسود . وأحس القرد رأسه يمر لمسوط من فوقه . فزع القرد ولفز إلى الخلف وتشقلب في الفضاء فصار وجهه إلى الباب فأسرع بجري قائلاً إلى الضوء في الباحة الواسعة . ولم لا يتحرك يا كلب . صرخ منصور وهو يهرول خلفه والعقالي في يده فانزلت الفتوة من رأسه إلى كتفه إلى الأرض وصار في الباحة يطرح بالعقالي خلف القرد الذي صار يصرخ بصوت رابع متقطع ووقفت أنا عند الباب

ورأيت نبيل يقف عند باب البوذية واليمني جالساً في مكانه لا يتحرك
أر يهتم، فلما توقف عن تحريك السواك واتسعت عيناه ولتعا ووقف
منصور يصرخ تعال تعال. والقرد يقف بعيداً ينظر إليه في رعب
فاندلع منصور نالهيه وطوح بالعقال في الهواء بقوة جعلتني أفكر
أنه لو طال القرد لشطره شطرين لكن القرد نفز أمر السيارة
الكاديلاك البيضاء لعم عبد الله الذي غامر المكتب في الميسدس
الصفراء اليوم دار منصور حول السيارة والقرد يتحرك فوقها
عاجزاً عن الهروب أو هكذا بدأ لي ولم ينقطع منصور عن فرد ذراعه
اليسرى ليقتفز القرد فوقها وللتطويح بالعقال يهدوه في الهواء . وكان
القرد كان يعرف نية منصور ففي اللحظة التي طوح فيها بالعقال
بقوة نفز إلى أعلى وصرخ صراخاً طويلاً رغباً متشدجاً وعاد يقف
فوق السيارة ينظر في شراسة الى منصور. اتركه. سينزل وحده..
هتب نبيل الذي يقف بعيداً أمام البوذية لكن منصور لم يكن في
وضع يجعله يستمع الى أحد فقد فقد يصعد السيارة من الأمام
وقفز القرد قفزة كبيرة من فوق رأس منصور وهو يصعد فانزلت
قدم منصور وسقط بوجهه فوق رجاء السيارة الأمامي وشهقت
خوفاً لكن الزجاج لم يتهشم ورأيت القرد يجري نحو باب القباجة
لكنه لم يخرج. دار مع السور ولفز القيمي الذي لم يتحرك مكانه
لنظام لأول مرة لكنه تمتر وانكها على الأرض وتجاوز القرد المصروع
حتى وصل إلى البوذية ادخله نبيل بسرعة وأغلق الباب ودار القرد
مع الجمران فكاد يعطسهم بي لكنني تراجعت خطوة فمر من أمامي
وكان منصور قد استجمع نفسه ووقف بباب القباجة بسوء بطويحه
بالعقال اللامع ووقف القرد قريباً منه لا يتحرك كل منهما ينظر الى
الأخر في تحفز ورأيت شعر منصور لسره طويلاً ناعماً لكنه صار

منكوباً. رجعت عبياء واحمررت بالشرر. وأرض منصور ذراع
تاركاً المعال فوق الأرض وتقدم يبطه فأردأ ذراعه للفرس. تعال لا
تخف. تعال يا أخي. لكن الفرس جرى من جديد وبسرعة مذهلة
فأحيا النبويه الذي ظهر فجبل عز بابه مرة أخرى ولفز نفزة حبارة
إلى أعلى تجلوا بها النبويه وسود الشركة معاً. خرج منصور مسرعاً
من باب الباحة لكنني كنت أعرف أنه لن يلحق به عاد وحده ولم يفه
بكلمة وركب سيارته رمضى. وولفت أنا أمكر أين ذهب الفرس الآن.
لا بد قد لحق بالكلب الأبيض الشارد في الزوال التي لا نهاية لها.

هذه هي القاهرة.

نحن فوقها الآن. لكنني لا أرى شيئاً. عاصفة ترابية تعمل هبوط الطائرة بعن الطيران اتنا قد نضطر للهبوط في مطار الأقصر، وأنا الذي أحببت أرى النيل والأهرامات لا أرى إلا غطاء اصفر من خلف زجاج النافذة الصفحية التي خرجت على الجلوس جوارها إذ في ذهلي جلست كيلىما اتلق وكنت مشغولاً بالخوف من ركوب الطائرة لأول مرة.

في إباني اليوم خبيت العاصفة بجاني، ولم أر من مصر كلها إلا لسانتي البحر الأحمر متفرجين صلتين وما هي الطائرة تقوم دائرة فوق القاهرة لكثير من مرة وأشعر بدورانها والعاصفة الترابية لا تتيح لي أن أرى شيئاً وأفكر فجأة أن لا أعود أن المملكة فلن يسألني أحد ولن أضرب أحداً والخمسة آلاف ريال التي أخذتها تركت في عسلي أكثر منها راتباً لم اتقاضه ومكافأة راجازات لم اقم بها، وعلى السادة الركاب البقاء في مقاعدهم وربط الاخرمة استعداداً للهبوط وأنشغل بالجلوس في وضع مستقيم واسمع تمتمات بايات قرآنية حولي وأرى الضمت الرهيب مطلقاً فوق الرؤوس إذ سيهبط

للظلم رغم العاصفة، ورجاء إطفاء سجاتركم ويطول لصمت حتى
 لكن الطائرة حجرة ترتطم عجلاتها بالأرض بقوة ولا صوت فزع
 ويعلو صوت محركاتها ويشهد صراخها وهي تجري لأن فوق
 الأرض نهنكم بسلامة الوصول والساعة الآن الثالثة بعد الظهر
 بتوقيت القاهرة ودرجة الحرارة في الخارج خمسة مئوية وسمع
 صوت عربات الاسعاف والحريق لكن المضيفات المصريات يلقن
 يتسمن لنا هي أن مجرد استعدادات ويطول الوقت قبل أن
 تفتح الابواب وتفتح فتجري الى الاوتوبيسات الصغيرة تصل بنا
 بسرعة إلى صالة الوصول فنراها خالية تقريباً وما تكاد ننهي
 إجراءات دخولنا حتى نصل حافلتنا وكل شيء يتم بسرعة مستر
 لاري ولا نخل في أنها العاصفة القرابية أفت رحلات كثرة اليوم
 وأخرج من المطار فلا أرى الفضاء الواسع أمام بل أرى الناس
 تجري مخفية وجوهها في صدورهم وتطير ثيابها والعباء يدخل
 الطوق والأنوار ويشهد فوق العيون جفونها فادخل أول تاكسي
 يغابلني وأشير للسائق أن يضع حفاثتي في حقيبة السيارة.

- حمداً لله على السلامة.

- الله يسلّمك.

- إلى أين؟

- الإسكندرية.

- في هذا الجوّ الآجرة ثلاثون جنياً.

- موافق.

- إذن خذ سيجارة مني.

وبشفت السائق بعطيتني سيجارة ويبتسم بوجهه الأسمر

التحصيل الحاصل بكلية تقني الراس أيضاً وتلتف حول العز.
وينطلق بالسيارة. ويدير مسجلها. فينساب صوت أم كلثوم

- لا تفش شيئاً. سنعمل بالسلامة شربطان فقط ونصل الأول
وجددت حبك فيه. والثاني منكريات، يا استاذ. - وضحك. - أم تحب
نسمع «أروح لبي».

ويضحك أكثر ويتنسم أنا ويدير مكيف السيارة القلمونين
فيمري الفء في جسدي والاضطكان معه ولا يطول الطريق إذ
أصل وكاني ركبت منذ دقائق وتُضَرَّبُ حولي حلقة الاستقبال
والإبهاج ودموع أمي ونفحك والتشيعزيون بيت نشرة الأخبار
سقوط طهران في يد انصار الخميني والتمسوس يحيط بمصر
باختيار الملك الحسن يعلن أن الشاء يقف بالمغرب كمواطن عادي
والشاء يشكر السادات على الأيام التي قضاه في مصر بعد خروجه
وفياء الحق يرفض الاستجابة لنداءات الدولية بالعفو عن بوتو
ويقول انه لا حيلة له في حكم المحكمة وأرشد بقول في صباح أمس
لا مفر من اعدام بوتو ما دام فضاء الحق اظن كذباً انه لا يتدخل
في عدالة المحكمة ويتنسم وهو يعلن في لز المطارات مُنَحَّتْ في
باكستان وأنه سيسافر اليوم في طائرة المساء. رحلة طويلة مسر
اسماعيل لكنها جميلة. تبيك جدة. بومباي. لاهور. بيشاور. أمّة
زوجتي وزينب ابنتي ثم اصدقائي مسر اسماعيل والوجود لا يزال
على وجه أمي إلا رلتي شاحباً وعرفت انه أجريت في جراحة للزائدة
والقول لها لقد حدث ذلك منذ أكثر من شهرين الآن ولا اظن اني
شاحب كما تكولين وأضحك وتضحك أختي سناء وتقول إنني في
أحسن صحة ويقول أختي بهاء إنني في أحسن حال وهذه ساعة راسو

وزجاجة بلرقان شمائل وثلاث بلوزات موشيجو فرسية وقطعة من الحرير الطبيعي تصلح لستائناً وقطعة من الصوف الهيك الانكليزي تصلح لتبديل لك يا سناء وقبلة من أخضر على خدي والعمرة تكاد تنكسر من عينيها وهذه ساعة اورينت وقطعة صوف لبدلة وطقم افلام شيفرز وابتنساعة وشكراً بلا قبلة من سناء وهذه طرحة من الحرير وقطعة خضراء وبساط اسود شيت وعباءة مغربية لك يا امي وكتر خديك يا ابني ودموع وهذه الحقيبة بها فيها الروحانية وولبيها وقلبة وبستها ولا يلتصق منها احد ونضحك والحنينة الثالثة بها لستق واوز وتاج وشاي لبيتون ومصدر برنقال جاف وصابون لوكس ولفل اسود وهبل واشياء كثيرة تستطيعين يا امي تقسيمها بالعسل ولا تضحكوا هكذا بلعل المصريين جميعاً وأنا تعلمت منهم وانت ماذا احضرت لنفسك؟ الكثير يا امي تركته هناك هناك هناك. إذن ساعود ليس لاني اشترت شيئاً تركته ولكني احس بالحنين للعودة ويزداد الحنين كلما مر يوم بعد يوم واشفي في شوارع الاسكندرية فكنتي ارى مدينة لا اعرفها فالزحام خائف والمواصلات بطيئة والارض طينية والمباني باهتة انطلاء والتليفزيون بيت براسج غريبة ليس فيها الالة التي ربطت بيني وبين مجلة التليفزيون» ولا «من كل بحر فطرة» أو «أجد هور» ولا شبي ملتزم» موالرجل الأخضر» ولا «الشيخ الطنطاوي» وصوت الاذان ليس جريحاً ولا ذبيحاً ولا فيه رنة حزن فادم من فوق جبل بعيد ولا يصعب دعاء شجوي ينقل الروح الى بحار الداعة وليس هنا هواء جبل أحد الجبال ولون الجبل الأحمر القاني الوديع اريد ان اعود حقاً فانا انتظر رسالة من مائدة التي تعضي الثيل وحدها على سطح بناء مخيف في بلدة يسكنها الصمت والاشباح ولا يكفيها

أبد صوت عبد العظيم مالك يا اسماعيل كل يوم تقول لي اسي ذلك
وتزني دائماً متلبساً بالبتسامة لا تعرف اني أرد بها على انيمني
غريب الاضوار او متلبساً بضحكة ولا تدري اني استمتع لتبيل او
ترسيم الصبرة على وجهي ولا تدري ان اسمي بيئس منصور
متجهماً والفرد عر كتفه أو يطو الضيق سحتني ولا ترى عابداً
يعطيني خطباً من واضحة عرف انه من الرياض خطب
واضحة * اين هذا الخطب الذي لم الشح.. اخذته الى البيت، ام
تركته في العمل؟ كيف مضى كل هذا الوقت دون ان ألقته.. وأصر
ذهني لأتذكر أين خبائه وينالني القلق من عابد الذي يمكن ان
يجده في المكتب فيعتمده ويقراء. وأمني النفس بلني المحدث
الخطب معي اتر البيت ولا بد انه بين أوراقه هناك وأعود وأقول
ولو وجهه عابد وفراء ماذا يمكن ان يحدث أكثر معاً جرى؟ راحت
واضحة وانتهت قصتها الى الابد ولهذا انت صالحت يا ولدي. ولا
تسأل أخذك عن احوالها الدراسية ولا أخاك وبألها من ام اسي لا
تريدني ان انسى مؤامرة أبي عز وبنتهي اسبوع وأقول هذا يكفي
بينكم وعندي عمل بالقاهرة ويسكت الجميع وتأخذني اسي الى
خريشي التي حرصوا على نظافتها في غيابي كما قالوا ويقول ان علاء
اين عيس الحنواني تقدم لخطبة سداء وينظر عيني ولا تنتظر ان
ابتلع دهشتي، علاء تخرج من كلية الحقوق العام الماضي كما
تعرف، وأتذكره الولد الهادي، انوديج نذي أقام أبوه وليمة كبيرة
لفقرائه يوم سجاحه، علاء طموح يفكر في انشع مكتب للمحاماة، وتطلق
اسي كل الطرق وبعض اسبوع آخر يحضر فيه علاء وأبوه ويشكو
لي الزهر من غلاء السكر والتدقيق والسمسم والزيت والشرابان
والكوان الصناعية والالبان والمسمم والشيكولاته وكل شيء يدخل

في صناعة الحلوى وأنه لا يكسب إلا بانمو الفون والفلافل والقارلون والصوص والتجار الكبير. وتزعمد لسي واختاي الكبيرتان ويمثلن البيت بالضيوف ويقام فرح بسيط وتتم الخطبة ولؤمو بجمال سناء جور علاء وتخرج من عيني دمية الآباء والأمهات وإلى محل مصطفى لرويش اصحابهم للعشاء وشهري الاضواء البيضاء والنافس البيضاء والمغارش البيضاء وتياب انطالين البيضاء ويتحدث علاء عن مشروعه في امتلاك الشقة والمكتب فهو جاهر لهما الى حد ما، الى حد ما " وتقول سناء ان علاء يحبك جداً وكيف قال انه لن يتحدث في الخطوبة مع احد إلا انت حتى لو اتيت بعد عشرة اعوام، لم يكن ممكناً البقاء عشرة اعوام يا سناء، ولا انكم واري البحر مطلقاً واسع الظلام ونوبة البرد شديدة جداً لير كل عام هوى الاسكندرية المشهورة بالدوب وفي البيت تقول لسي لا يجب ان تنتظر سناء اكثر من عام لسترة البنت للزواج، ما رأيك؟ رايي؟ لقد رتبتم كل شيء، ولا انكم واقوم لانام فتاتي خلفي، ألم تفكر بعد في بنت الحلال؟ ابتسم ولا أريد واسمى للنوم الذي لا يسمي الي وأدخل تحت البطاء فعني ان اعيد واكمل عامي الأول وأصليه لعلاء وسناء، في أي ركن من الظلام كان يلعب علاء هذا وينتظري ليكن، لكن مؤامرة نهاية ولا اخن ان عبيدة ستنتصاع للغاريس الغيب قبل ان من عام.

نام واصحو مبكراً جداً اسأل لسي عن فاروق الذي اذكره فجاءت فتسكت قليلاً وتقول انها لم تعد تعرف عنه شيئاً إذ تقدم اليها يخطب سناء فرفضت، كيف تزوجها له هو الذي له من زوجته السابقة ولد. انهش وتسمر تقول إنها عرفت عنه انه يعمل في شركة لتسليم الأراضي بالساحل الشمالي ويكسب اكثر مما كان

يكسبه في السعودية ولكن سناء قررت في الصحف أن شركته قد استولت على أراضي الدولة وقسمتها وساعتها للناس بملايين الجنيهات وعجز الناس عن استغلال ما لشركته من أرض وهناك قضايا كاذبة مرفوعة على الشركة الآن وأقول لأمي أنني عذرت العزم على السفر إلى القاهرة وتبكي لكن لا بد أن أسافر وتغزو دمة من عين سناء. ويشد بهاء على يدي وأخرج داسماً. لا يوجد حقاً وداع طيب في هذه الدنيا فما يأتي أريد للرحيل في أسرع وقت.

أصل إلى القاهرة في العاشية عشرة صباحاً ينزلني الأوتوبس أمام فندق هيلتون وأرى ميدان التحرير أمامي مغطى وأسد الكوبري العالي ليلود فوقه وأنزل عند أول شارع سليمان كما وصف لي عابد قبل سفرني وأمس فجأة بالارتياح فالشارع رطب وارتفاع العمارات على الجانبين واتساعها يعطيني الأحساس بأنني أنني في قيلول لويت فمن الممكن أن أنام فيه

لا أمشي كثيراً حتى أجد مكتب لوفتهانزا على يميني فأدفع الباب الزجاجي الثقيل وأخاطب واحدة من الحقيات الثلاث الجميلات فتصحبني إلى الدور الأعلى لأقف أمام رجل باسم أنيق متوسط العمر. تفضل بالجلوس. اجلس وتكلم. أين بوليصة الشحن؟ ها هي. يتأملها ويبتسم. بوليصة مزورة. نعم؟ مزورة انظر إلى هذه. ويعطيني واحدة أمامه هل تجد فرقاً؟ لا أجد. نحن نعرف كيف نميز بينهما للأسف الشديد هناك عصابات بولية كثيرة تعمل في هذا المجال وفي أسبوعك بالذات مالك ترتجف؟ أنا لا أنهم شيئاً يا سمدي... هل أنت صاحب لشركة؟ أنا أعمل فيها. إذن عد واخبرهم بما قلته واستطيع أن أعطيك خطباً بذلك مالك ترتجف؟ ولم أقل

إن أحدًا لن يصدقني. أنا ولا ري فلا ري يكسب. اطلب عني أي شيء افعله. اشكرك يا سيدي. أريد إرسال تلكس لكل هذه المطارات وأخذ رويد تلكس معي. هذا سهل وحتى تطمن أكثر اذهب إلى هناك ضمن ثوانها نزا بالمطار هناك ستقابل المهندس سيدي. سيبحث معك عن البضائع وسيجرب ما تشاء من تلكس ولا يستطيع القيام ويشرح لي هو ما كنت في غنى عن شرحه.

.. تخيل أنك ذهبت تشتري بضائع بعلين جنيه لشركة والمالك أحد رجال العصابات وأخواله بأن يعطيك بونوصة شحن مزورة نظير عشرة بالمائة من ثمن البضاعة التي لم تشتريها ووافقت وأخذت البونوصة. ستفوز بتسعة ألف وبلغوز هو بمائة ألف وكل منكما لم يتعب في شيء. كثير من المتدربين الذين ترسلهم دول الخليج لشراء بضائع من أمريكا يفعلون ذلك لا يهم ما يحدث. سيهرب بالبلغ ويدخل الدولة أو الشركة التي أرسلته في قضايا خاسرة مع شركات الشحن وشركات التأمين. لا أحد حتى الآن يستطيع القضاء على هذه العصابات الأمريكية. تفضل هذا تصريح لدخول المطار وصلة شحن ثوانها نزا

ولمعت أمشي غي مصدق. خمسة آلاف ريال مسر لا ري انهي بها العمل في القاهرة ولنت ثلاثمائة ألف دولار كل دولة لها ما ستتحققه هنا. لقد نجحت لا ري في اختياري والحكمت وروز غطتكما مصري فلم ذكي يعرف أن عم عبد الله لن يستمع اليه. ليكن. إلى الجحيم بكل الناس وكل البلاد وكل أموال انطلقتها هو شارع سليمان ينتهي ولا يستطيع عبور الشارع المقابل فوقف في الجو لفحة من برودة والابتوبيسات الحمراء الضخمة ترمح في

الشارع الواسع تملت دخلاً أسود وتزجرجر وحولها ترمع
الميكروبيسات الحديدية وسيارات الأجرة والملاكي والناس تتكاثف
مزدحمة عز الرصيف وتعبير الشارع مسرعة من كل نقطة وعند
تقاطع الشارعين يلف عدد من ضابط المرور والجند لا حيلة لهم في
هذه الفوضى المزعجة. هل أعود مرة أخرى إلى شارع سليمان الذي
تمشي فيه السيارات بطيئة من زحامها لكن لا تجري فيه
الأوتوبيسات ويحشي الناس متراحمين فيه لكن على الرصيف؟ لقد
نعت أكثر من سينا فيه قول أعود وأدخل أدها حتى ينتهي هذا
الزحام؟ لا أظن أنه ينتهي إلا بالليل. إذن ألق السرور الحديدي
الذي يحسد الرصيف وأجري عبر الشارع بها إنذا أقرأ لافتة
«جواند أوتيل». هذا المبنى الضخم القابل ليس سوى فندق.
- أريد غرفة بسرعة.

القول لحظف الاستقبال وأنا ألتفت بعد مجزري الشارع. واقف
أمامه أحاول تنظيم انفاسي. وهو صار يتألمني بينما قال:
- أسف. هل لديكم غرفة للشخص؟
وتلفت حولي بوز قصد ولا أزال مرتبكاً فاعن القول:

- أسف جداً. أنا ضابط من مدينتكم لنا من الاسكتندية ولم
تعود هذه الفوضى وهذا الزحام أنا أيضاً جائع جداً هل يوجد
طعام في هذا الفندق؟
- لدينا كل شيء.

وإني الابتهامة التي بتكلفتها سوفلو الفنايق تأخذ مكانها
أخيراً. وأعطيه جواز السفر وخمسين جنيهاً نعت الحساب. وفي
الغرفة التي يصحبني فيها الرجل النوبي المعجوز استلقي فوق

السريع ناسياً جوعي وعلفي. يا الهي، كم مرة أتيت القاهرة. ثلاث مرات. الأخيرة كانت يوم سطري. فلم أدخل المدينة. والثانية كانت لاعتصام لوراني، فلم أبتعد عن ميدان التحرير إلا إلى الانفصالية المصرية بفاردين سيدي والأول كانت من زمان.

عام ١٩٦٨ جئنا في رحلة مدرسية معتادة لطلبة الثانوية العامة يزورون فيها أسوان والقاهرة. في القاهرة أقمنا يومين نزلنا خلالها لوكسندة كنيبة جداً بشوارع كلوت بك. زار زسلاشي والمدرسون الأزهر والحسين والقلة والمتحف الإسلامي والمتحف العربي والامرامات. مرت منهم في الأزهر والحسين مضيت كثيراً في شوارع الجمالية وجلست بمقهى رخيص في شارع بين القصرين. مقهى يكاد يكون تحت الأرض.. لم أر رجلاً واحداً يذكرني بأحمد عبد الجواد ولا فهمي ولا كمال الصغير ولا ياسين الطنشر ولا عائشة التي تزهد لها القصر ولا أمينة ولا خديجة ولا الأهلدار. رأيت نساء ذوات عجائز ضخمة ونساء شددات التهرج وسمعت ألفاظاً قليلة الحياء من الرجال والنساء وشاхت كيف ومن أين كتب نجيب محفوظ ذلك كله. وكنت هذه أول مرة أدرك أن الكتابة ليست كما يحدث لي: شعور جميل وزهو بما أكتب إنها مشقة كبيرة شحطت بعدها: هل يعطيني الزمان القدرة على ذلك الشقاء الجميل؟ ولما رأيت زلزال المدن الصغيرة جداً الضيق الأسود الرطب تعجبت كيف علق فيه كل أولئك الذين عشت معهم وضحكك وبكيت ولم يدهشني إلا شكل البواكي على جانبي شارع كلوت بك ومسلات الأحذية والشنط الكتنية والمقاهي الصغيرة للضيقة والنساء العجائز يجلسن فيها لمح ذرات على الحركة ويسخنن الشارجيله وتعلو وجوههن مساهق مضحكة بدت لي

القاهرة في تلك الوقت مدينة القدم من الاسكندرية.. القدم من الزمان. وكانت السواثر الحجرية قد التهمت امام مداخل البيوت والقنود ينظرون في الشوارع مع النساء ودخان القهزيمة لا يزال في الفضاء. القاهرة الآن مدينة سالوة بالجهامة لا شرقي يضيء ولا تحب ان يزورها أحد. مركباتها تظلم القوى لعظام فلن ابلى فيها طويلاً.. وها انذا يمر بي يوم بعد يوم كتهب طويل مثل الخبرني الضام النوبي لني استطيع ان اتناول طعاماً احسن من طعام الفندق في المطاعم المجاورة بالتوفيقية واشرب الشاي في سلعها. ولول ما قابلني كان مطعم الشامي قد دخلت ووجدت واسعاً ليقاً لكنني كل يوم اتناول الطعام فيه وحدي ورايت على الجهة الاخرى كاتيتريا مكارابلاتكا، الصافية فصيت اشرب فيها الشاي مع واحد لو اتشجن جالسين في صمت وعن بائع الجرائد الذي يقف امام الفندق اشترى كل الصحف والمجلات وادخل الفندق لقرا واتمرغ فوق المربرد. ولم اذهب للمطار غير مرتين في كل مرة أخذ تاكسياً من امام باب الفندق وفي الأولى اخبرت المهندس مجدي بلسني. وفي الثانية بعد خمسة ايام سلمني ريدو القتلكنس. لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو ولا بضائع وصلت الى نيويورك لو ميونخ او القاهرة. هل كلز يجب ان تاتي الى القاهرة لتفعل ذلك؟ وابشسم. يا مستر لاري لقد رفض ان ياخذ رشوة طليماً واحداً. وانا الآن امضي النهار في الفندق انتظر مرور الايام الخمسة واقرا الصحف والمجلات التي تتحدث عن القنود سفر الوفد المصري وعلى رأسه مصطفى خليل إلى امريكا للتخضير للتوقيع النهائي على معاهدة كامب ديفيد. وعن جرائم الاغتصاب الكبرى والشرق المعروشة لنداعة وصورة السادات في كل صفحة تضحك باليابيد الشهر انا

لا أخرج إلا بالليل أصبر الشارع بثبات الآن وأدخل سينما منور
أرى فيلم (الزلازل) لأنني أحب أنا غاريتو وأدخل في اليوم الثاني
سينما ميلسي لأشاهد (رجب فوق حفيظ ساخن) ولا أضطد مع
عائل أمام إلا قليلاً. وفي الليلة الثالثة أدخل سينما كايروبالاس
وأشاهد ممثلة جديدة اسمها ماري فرانس بيزيه لأن معها والـ
لعقون ذا الوجه الحاضر ولا يدهشني تدخل الرقبة كل لحظة في
التبلم للجميل الذي لسموه (الرقبة المدسة) واسمه (الجانف الآخر
من الليل) والوقت أيضاً لا يمر فابداً بعد التاسعة مصرية على
الاقدام أن الحسین. لماذا فعل ذلك؟ أريد التقب تب اللين يعني
شوه النهار وانقضاء الأيام الخمسة رغم برودة النيل هنا في القاهرة.
كل ليلة أرى لشجار حنيقة الازبكية كانتها مودة سوداء والظلام
يلفها وتبدو لبات الكليتريات التي أقيمت شيئاً مشوهاً بتعدد
ألوانها الخضراء والحمراء والقطع الحديقة مع الصمت وانظر وكثيراً
ما أجد نياماً يلقفون بالخيخيش وأدخل شارع الأزهر فأجد خائياً
أظفت محلات ولا أحد يمضي معي لمح سيارات ليلية تسبقني ولا
أفنا أنكر كيف كانت حنيقة الازبكية حين أجرى الفرنسيون فيها
تجاربهم على المنطاد بين عيون المصريين المدهوشة الخائفة ولا
أجلس في حي الحسین بأي مظهر ولا أكل في أي مطعم إلا يحدد لي
رجال البوليس الذين انشروا طريق السج فلنورد خلفه أشم رائحة
مفتة في الأزقة وأعود وأحاول أن أتذكر ما كنت قررت أن أكتبه في
القاهرة. الليلة. وهي الأخيرة. تذكرت. غداً في الصباح أعود
سعيداً. لقد ترك لي عثراته قبل رحيله كم يكون رائعاً أن الحاجته
بأكراً بزيارة. أقول لنفسی وأنا عائد إلى الفندق والساعة قد تجلوزت
الواحدة بالليل وأنا أمضي وحدي في شارع ٢٦ يوليو وأفترب كثيراً

من الخندق وإذا بيدك تسك بي من كفتي تشدني بعنف الى زقاق
جائبي مظلم وتدفعني الى الحائط لثان هما رجلان. ملوان في
مخبرتهما شرر مخيف واحد يحمل سيفاً والثاني يمسك بسلسلة
طويلة سمكة من الحديد
- طلع الي في جيبك يا بن القحية.

استمع صاحب السلسلة. وأرى عينييه ليهما نذير الموت.
وصاحب السيف يبتعد للوراء ويرفع سيفه الى اعلى. وانتكأ. ذمراً
انتكأ موقاً. فيترافع صاحب السلسلة ويصرخ في ضربة قاصعة
على ذراعي. تشعل النار في راسي. فينلواني الاخرى على جانب
قدمي اليسرى. فأسقط فوق الأرض. انزلت رعباً فينهلان على
ظهري وكلاً ثم يحملني صاحب السلسلة الجبار ويسندني إلى
الحائط وصاحب السيف يصرخ بصوت مكتوم «اتركه لانيجه»
- ارجوك.

أنوسل بصوت لا يفرج إلا بالكلية

- شجوني بلين .

- خذ ما تشاء.

ليتركني وأسقط على الأرض ممدداً ويلقيان جيوبي بالخذان ما
فيها.

- معه ريبالات وبولارات. أنت منين يا واد؟

- اسكندرية.

- حراسي في المينا يعني

ويتركني كل منهما في ضلوعي ويسرعان بالاختفاء.

لمس الأرض باردة وأنا عاجز عن النهوض يدايمني التعب

للكلام انما والتذكر ان بقية تفوي في الفنى، وفي الفنى حواز
السفر، فاشعر ببعض القوة واتحامل على ذراعى، وأزحف حتى
الشارع، ومستنداً اثر الجدران الف والشي موهناً أكله القم في كل
خطوة، كان من الممكن ان يقتلاني حقاً ولا ارى حوى إلا اعمدة
النور تضيء خلا من الظلام ولا توجد حتى النسمة الباردة.

لا عبادة ولا واضعة ولا روز عاري ولا أرض ولا منبر ولا نبيل.
لا عابد ولا منصور ولا وجيه ولا صالح سنيور التقطي. لا شيء
يشدني للعودة ولا شيء يشدني للبقاء إنما هو شعور غامض
يدفعني للأمام وشعور غامض آخر يشدني للخلف. مسافر أنا من
مصر إلى تبوك الآن وبحث منذ عشرين يوماً من تبوك إلى مصر فمن
أي البلاد أنا وإلى أي بلد ثالث ولست ونشأت؟

أقمت الطائرة في الخامسة بالتوقيت المحلي ووصلنا في الساعة
والنصف بالتوقيت المحلي!.. الرحلة تستغرق ساعة ونصفاً لكنهم
يسبقوننا بساعة من الزمان.

وصلت إلى البيت في الثامنة والنصف، فوجدته مظلماً، سامني
الليل وحدي، فوجهه لا يزال يعمل بالليل.

دخلت وبثلاث ثواني وبحثت عن طعام فلم أجد، فاعدت كوباً
من الشاي، وتمددت فوق السرير وضعت الغطاء، وبحثت أكل
بسكرتياً تركته في الغرفة من قبل، واحتفظ به ولتأ للطوري. وبحث
أبتلع بالشاي الساخن وانعشني طيق الغرفة. هذه غرفتي، وهذا

بينما فتحت باباً بمفتاحي . ففزت وأشعلت التليفزيون ، فالتسعت ولما
سمعت حركة الغاز في المطبخ ابتسمتُ . لكنني قررت أن ابدأ من
الخبز في مكالمة الممران.



- لم تحضر في خطاباً من لي .

- سألني نبيل وهو يدخل إليّ بفرجة الصباح . لا يزال الصباح
هنا مكرماً للبرد الفارس رغم انتهاء شهر فبراير . استيقظت اليوم
ولم يكن وجيب قد عاد من المستشفى . فكتبت له ورقة تركتها في
المطبخ . أعلمت فيها بحضوري . وطلبت أن يعد لنا غداء .

كان عابد أول من قابلني ولم يسألني عن المهمة ولم أشأ أن
أخبره بشيء . فقط اعطاني خطابين قال أن أحدهما من الرياض
والثاني من ضعا . وسألني هل تعرف أحداً في ضعا أيضاً .

ولم أزد . رحبت أبحث في مكتبي عن خطاب واضحة السبق فلم
أجد . لا أستطيع أن أسأله عنه . ولا أبحث جيداً في البيت اليوم
- أنت لم تطلب مني ذلك يا نبيل ولم تعطني العنوان .

وتأملت لحيته أنني أطلقها وبسمة العزن التي لم أعيدها على
وجهه . وقيل أن أسأله عما ألم به في غيابي . قال :
- ربما فعلاً لم أطلب ذلك منك . لكن كان عليك أن تذهب

وانصرف وترك الوجوه معي في الغرفة . ولولا أنني انتهيت
للخطابين في يدي لنسيت أمرهما أيضاً وضعتهما في جيب سترتي
وبدأت استعد لاستقبال العمال الذين القوا بوقعوني في دفتر

الحضور ويستمعون لي. ويطلب مناذر بعده يكلمني بعد أن أخذني
في صدره وربيت على ظهري بطوة ولجل وجهتي بشكل حميم
- لقد تركت البيت يا استاذ.

- أي بيت يا منذر؟

- البيت الذي اسكن فيه قلت لك عندي حكايات ولم تعطني
الفرصة.

- ألا زلت تذكر يا منذر؟

- انا والله اريد ان نسي. نكتها اخذت القحية لا تتركني. لقد
استأجرت بيتاً عربياً. تصور من كان يعارضني. زوجني بلهاء يا
استاذ.

- لو حكيت لها القصة ما عارضتك.

- ايه يا استاذ. يا مصري. احكي لزوجتي. مجنون انا النعماء
صدقات العقول. إنها لن تصدقني ابدأ وستقول لي علاقة بالمرأة
وتحصل هباني إلى جحيم. إن الخيب الرجال هم الذين يحدثون
زوجاتهم يصدق. المرأة يا استاذ لا ترى إلا ما في رأسها..

وتركني اسحك ورحبت افراج التقارير المركونة التي لم يستطع
عابد ترجمتها في غيابي. لكن وصل عم عبد الله رسمته بسال هابذ
عني فانركت انه ميجاليني.



- ايش سويت يا اسماعيل؟

سألني بعد أن دخلت مكانه وزابت مسكر لاري معه صافحني

لاري بحرارة، هالفتني عم عبد الله بلا مبالاة، لم ارد على سؤاله
وقدعت له ردود التلكس.

- [بشر هذا؟]

تعمدت الا انظر الى لاري، وقلت

- هذه ردود التلكس لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو،
ولا بضائع وصلت الى مطار من مطارات الرحلة.

امتعضى عم عبد الله، ونظر الى لاري الذي رأيت به يتشم جامد
الأعصاب..

- ماذا تفعل يا لاري؟

سأله عم عبد الله بالانكليزية، أجاب لاري

- من الأفضل الآن أن يسلط أحد الى سان فرانسيسكو.

ازداد عم عبد الله امتعاضاً، وقال:

- إنني جهن نفسك للسفر

وقام ليفلير الكثير، لكنه ابتسم فجأة وقال

- ٧ تنس أن تأخذ روز معك، لا تتركها وحدها في الكاب.

وضحك عم عبد الله، فضحك لاري وخرج بفلير المكان خلفه



لم يمض نصف ساعة على انصراف عم عبد الله ولاري إلا وثق
الطيلون، وجدت لاري عز الفاحية الأخرى يطلب إلي أن أقبل دعوة
جديدة الى الغداء اليوم.

- لا اعتقد انني استطيع اليوم مستر لاري.

- هذه رابعة روز مستر اسماعيل وعليك تليينها.

- لكنني بالفعل مشغول اليوم مستر لاري.
- إذن ننتظرك على العشاء مستر اسماعيل
وقبل أن اتكلم قال:
- لا نحاول الاعتذار مستر اسماعيل.

لم يترك لي أي فرصة. وأنا أيضاً لم أندعش من كذبه. حتى
عمرت روز بحضوري حتى يقول إن هذه رغبتها. أنا أعرف خطة
القصة وسأذهب فقط ليعرف أنني أعرف.

وتحسنت سترتي أناكك من وجود الخطابين اللذين لا يستطيع
قراءتهما في الغرفة. ليس خوفاً من أحد. ولكن أخشى لو أخرجت
إياهما يفسح من اليوم على ترتيب مكان في البيت للرسائل التي لا
أظن أنها ستقطع.. من؟ منصور؟ هتكت وأنا أراء يلقف بالباب عز
كتفه فرد صغير.. نسخة من القواعد السابق إلا أن النهاية التي حول
رابطه رمادية.

- كيف اسماعيل ' كيف حال مصر؟
قال وهو يدخل ليجلس خلف المكتب الثاني كعادته.
- بفتح منصور.
- لعلك رأيت الأسرة ووجدتها بفتح.
- كل شيء طيب في مصر يا منصور.
- أعرف أخي اسماعيل. لقد كنت هناك أيضاً.
- في مصر؟

- طبعاً سالت إليها أولاً وأضفيت أسبوعاً ثم سالت إلى
السودان. لما رأيت سعيداً في مصر؟
- كنت أريد أن أزيروه لكن الوقت لم يساعدني.

لم أشأ أن أذكر ما حدث لي في الليلة الأخيرة، وكيف عجزت في الصباح عن الاستيقاظ إلا عند الظهر، فكنت أتأخر على موعد الطائرة.

- أنا زرت أخى اسماعيل، مسكين سعيد، عذبت له الحياة ومسحة ولا يتحدث لأحد.

ولم يتركني منصور الضكر، قال

- حصلت عنوانه من وداو.. تعرفها؟

لم أريد، ولا كنت قادراً على الرد.

- وداو الآن تستعد لإنهاء عملها هنا وستسافر قريباً فلنكون،

- سوف نتزوج قريباً لها.

- ٧. لن نتزوج أحداً، ما رأيك في هذا القرار؟

أبتسمت بدا لي منصور مبهجاً شديد الحماسة.

- سافرت من مصر إلى السودان، واشتريت عشرة قروود شعنتها

إلى شوك، هل تعلمي قرود؟

- لا أبغى شيئاً يا منصور، فقط أدري هل أريد أن أنهيه

- ارتاح أخى اسماعيل، أتركه في أماني الله

خرج وتركني أكاد أختنق، ثم نعد بي رغبة في العمل، ولا في

الحديث إلى أحد، ولا أظن أن هذا اليوم سيمر بسلام.

امضيت الوقت أفكر في الأحاديث التي ألقاها أممي، ولم أصط

إلى شيء مألوف، وفي الساعة الثانية عشرة نظرت إلى الساعة فلم أجد

اليعني المعجز.



ماذا يحدث لو ذهبت الى «روزه» والاري، في موعد الغداء؟
 سترتيك كل خططهما وسألفني لهما بما أعرف ويقتضي الأمر، وأعود
 الى بيتي وقد تخلصت من روزه إلى الأبد، وأقرأ خطابي، واضحة
 ومليدة على مهل. خطاب واضحة لن يزيد على كلمة «أع طيبة»
 كيف يملكه تكتمل القصة إلا بذلك. وليأخذ بعد ذلك خطاب عليه
 الليل كله. ترى ماذا فكرت في؟ وقد تأخروني عليها كل هذا الوقت
 الذي أمضيته بمصر. يا مصر التي تضيع منا كل شيء. على يقين أنا
 أن هيدة لن تطلق الباب إلى الأبد. يا بؤس هذا العمل الذي يذف
 الى اليوم كل لحظة بمجنون. آه، كم لود أن أقرأ خطاب هيدة الآن
 ولا استطيع. ها هو سبيل يدخل صامتاً يحمل القهوة.

- لم اطلب القهوة.

- لم تكن تطلبها من قبل. هل أعود بها؟

تأملت وجهه العزيز والحيث الطويلة.

- اجلس.

جلس مطرقاً الى الأرض.

- ماذا حدث لك في غيابي. هل ضلقت هنا أحد؟

- الطلاقاً.

- لماذا تبدو ضاحكاً وتطلق لمبتك؟

ولم يرد. تأملني بعينين كسيتين.

- الا تقرأ الصحف؟ الا تسمع الاذاعات؟

ولم ارد. ماذا في الصحف يزعج نبيل كل هذا الازعاج؟ دانت
 إيران للخميشي وخنقي شهيد باختيار وكازتر يسند لاستعداد
 بيغن والممارات للتوقيع على معاهدة السلام وأمس افتتحوا كوبري

الساحس من أكتوبر في مصر وملكة بريطانيا تزور الملكة ويقبضون لها سباق الهجن ولا أظن أن شيئاً في هذا كله يخص نبيل -
- لا تريد أن تصدقني حين أقول لك إن الإطباقي الطائرة ليست خرافة.

- ألا زلت تذكر يا نبيل؟ ثم تعد الصحف تتحدث في ذلك.

- لكنها ستعبر وستعبر الصحف نتحدث عنها وأنا خائف
ابتسمت مشجعاً وقالت
- مع تخلف يا نبيل؟

- لو سقط واحد منها هنا لاحترقنا جميعاً. هل تظن غير ذلك؟

لم أرد. لا أصدق أبداً أن ما يقوله هو سبب عزه وإطلاق
لحيته. لن يهزج في شيء ولا حاجة لاستمرار الحديث. هناك
تقارير كثيرة متأخرة لم أبدا فيها بعد للابدأ ولا أظن أحداً
سيشغلني في الوقت للقليل الباقي.



- مستر اسماعيل. غير معقول؟

هفتت روز التي فتحت الباب غير مصدفة. ابتسمت اهتماماً
واسعة بلعرة دهشتي للدخول.

- لا شيء ليس هنا الآن لكن لا بأس. سيصل حالاً. لا بد أنه تأخر
لأمر ما مع مستر عبد الله لقد أخبرني بحسروته على انعشاء
تفضل واختار أي مكان للجلوس أعطني دقائق أصليح من شاتي.
كانت نتكلم بمرصة غريبة وأرتباك واضح. وتركتني فتقدمت

وجلسْتُ تقريباً في المقعد نفسه الذي جلست فيه المرة السابقة،
واختصتُ وسمعتُها تتحدث هائمة مع شخص لم اتبين صوته،
للمتحدث لا أحد يمكن أن يكون هنا غير لاري وهي امرأة زكية
أهضمت التصرف، لكنني أدركت فجأة حساسة ما فعلت. إذا كنت
"مخوف سريفا قلماذا جئت؟ لا يكفي أبداً أن أتى لالتقوا لهما ذلك.
ما جدواه الآن؟ لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس إلا عداوة تأصلت
في نفسي منذ عساي وأول شباني. ولنا لم أصدق أبداً ما يروونه
التمادات عن الصديق الأميريكي. ولم أكره رؤية أحد مثل رؤيتهم
يوم نزلوا الاسكندرية بعد زيارة نيكسون. وشعوا في شوارعها في زي
البحرية طوال عراش يتأملون الناس والمعدات ويلوحون بالتحية
لكل من يقابلهم ويزودهم معلومة على الطريقة الإنكليزية
اشبهية تذكرت يومها أفلام البحرية الأمريكية. وحين كنتي وتوني
كيتس، حين كان الواحد منهما يترك سفينة وينزل المدينة ليثير
محرقة في أحد باراتها كانوا كثيرين جداً في الاسكندرية بعد زيارة
نيكسون يمشون على الكورنيش يمشون ويركبون الحظوظ
ويشربون وصاروا قليلين الآن لا تكاد تراهم

والدركت أن زيارتي لا مصر لها. وفكرت في القيام، لكنني ربيت
روز نفيل شعوي متخلفة يسبقها عطر يتغلغل إلى الحواس يكد
يهدمها غداً، وترتدي مسنناً لزيق له فتحة صدر كبيرة يكشف عن
أول الشعر بين الثديها ويكشف عن ذراعها البستنج. واستدارت
روز إلى التلاجة هربت جزءاً كبيراً من ظهرها وشعرها الأصفر
الغزير مشعوماً في رباط أرق رقيق، وتقدمت بكأسين من النبيذ
وجلسنت أمامي بعد أن وضعتهما على المنضدة المنخفضة بيننا
وقالت

- لم تكن أستطيع السكوت دون أن أراك

- فشكرك

- لا بد أنك جائع مستر اسماعيل ، أأكل معاً أو منتظر لأري .

- لست جائعاً تماماً . وأنا كما تعرف لا أشرب الخمر .

- إذن دعني أراك شيئاً جميلاً

وأخذت بيدي . فنهضت ممثلاً . ووجدت نفسي ألقف في غرفة

النوم

- لا نظل بي شيئاً مستر اسماعيل . ليست هذه الطريقة التي

أغريك بها

وابشعُت . هذه روز التي بهرتني أول مرة . وهي نفسها التي

شاركتني النوم في الأحلام . وهزات مني في الكوايس راقبت في مرة .

اشتقت أتيها مرة . اعترف . لكنني الآن أراها مثل قطعة لحم لاسد .

- ما هو الشيء الجميل الذي ستريني إياه ؟

- أحلى

وأشارت إل السرير . فجلست على حافته . وطلعت هي عن

حافته أيضاً جوارتي

- أنت ذكية للغاية يا روز .

- أنا لم أوافق لأري فيما فعل . أنا في النهاية زوجته ولا بد أن

أحبه .

- كنت أحب فقط أن نختاراً غري . ما الذي أوحى إليك ما ؟

أفتربت مني وهضت .

- لن تصدقني اسماعيل أنا كنت سأفعل ذلك مع فريده، لكنني
أعجبت بك وأحببت أن أجد شيئاً للوصول إليك.

- ليس لي في الأمر حيلة يا روز أنا مصري، فلن يصدقني الناس
هنا ويكذبونكم. ما كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الترتيب. هل
تعرفين ما يفسدني حقاً؟ انذكريين نظامنا الأول هنا في بيتكم؟ لقد
كنت نطأ إلى حد كبير لكن لا أري شيئاً كان أكثر لظافة. كل يريد
أن يبدو مثقوفاً عليّ. ما كان عليّ أن يفعل ذلك. هل يحق له أن يفعل
ذلك وهو ؟

ونم اكمل وصمتنا كثيراً

- أرحمك دعني أقولك

وتركتها تأخذ وجهي بين يديها وتلمس شفتي وفدي وألقي وشعري
إلى شفتي وتضغطهما ولم تحاول الاقتراب مني بهجتها أكثر ولا
أنا حاولت كنت مشغولاً بالنظر إلى عينيها اللتين انجذبتا
لشفتيها كانت النشوة تملأها فقلت وألقاً

- وداعاً يا روز.

- وداعاً اسماعيل.

ورأيت في عينيها لماً فسرعت بالخروج لم تات خلفي وعند
الباب الخارجي سمعتها تصرخ.

- أنت؟ عبر رجل لي اتعلم يا لاري ونز اتركه تلوز بك شيء.

«اسماعيل»

«لماذا تركتهم يفعلون بي ذلك؟ أنا اعمى لا أسمع»

«واضح»



ليني لم ابدأ برسالتك لقد عدت من عند روبر السابق سيارتي
حتى اخلوإل نفسي وأفكر الرسائل هل تعرفين اني بدأت برسالتك
إسماعيل وانراكتأ بأن القصة تمت لوصولها وما حدث لا بعدد ثروة لو
جنوماً والحصة بنت سليمان بن سبيل صغيرة كعصفور انت فعلاً
تريدن أن تصلني بي أنا القادم من بلاد انجيل تمتد وراشي آلاف
السنين. أم لهذا السبب تتعدين بي؟ فلذا تخافينني اما؟ ثورته
الشرقة يوم وصولي ويفتح جسدك أمام عيني ويفتخرني حديقي
لاخيك لاأفك وبها توجه ولا تستطيع الفرار. لقد تقدمت غير هيا
هل تسمين؟ شائتي منكم وعازلي منكم. صالح مشهور القبطي أقوى
من جميعاً منيع هو بالجملة. بالبراءة الخفية يا واضحة. أنا
لم اتركك. هل تقرينني قليلاً اقرأ الرسالة الأخرى؟ ليست رسالتك

الأول. لا أعرف كيف ولين ضاعبت مني. لم يكن ذلك بالقليل
الحسن



وأدركت فجأة أنني حين عدت إلى المنزل لم أجد وجيباً إنه لا
يخرج إلى المستشفى بين الساعة السادسة. لم أجد غداً كما
كنت له في الصباح. لم أقاتله حتى الآن. ولا تناولت غذائي.

لمحت الفلوجة. هوجدتها للفرقة إلا من طلب التعصير. دخلت
غرفتي. فوجدت عزم منضدة صغيرة عتبة تونة أخذتها وأكلتها
بسرعة. وتعددت فوق السرير المرأ

«لم يكن أمامي يا عزيزي اسماعيل إلا القبول. القدر يساعدي
دائماً. أنا لم أسيخ إلى شيئا. طلبوا واحدة منا فالتصا الجميع
الرحم. وتطلعت أنا في لحظة أدركت ليها بعد أن واحدة غيري هي
التي أريد استعادتها وليس أنا. واحدة غيري هي التي تكلمت
ووافقت لكنني غير مألوفة ضبابيةست الجميع. على العكس. أنها
بلدة صغيرة جميلة قريبة من البحر. البحر الأحمر والخمس هنا
طيبون. الصيادون يمزجون على المتوسط كل يوم يقدمون لي
أفضل ما عندهم من سمك بانتجان. لدي هنا سمك بكلي تنوع الآن.
هل ترواني أستطيع أن أكل هذا السمك كله؟ لا أجد بقله مني. لا
أحد إلا رعبه أكثر مما عندي من سمك. شيء غريب أن أحبك عن
هذه الأشياء لا تعني فقط أحببت أن أضعنك إني. فلما أعرف أنك
تحتاج إلى ذلك رأيتك أول مرة يوم حدث تسهر مع الدكتور وحيه
والذا أعرف أنني سأراك مرة أخرى. لكن. كل الناس هنا يحمونني.

والنساء يهرعن بوحدي فباتين بعد العمل ليجلسن معي فيمضي الوقت سهلاً بعضهن يرسلن بناتهن ليعين معي. شجاعة غريبة على ساء الملكة ربما ليست غريبة فالكثرة شجاعة العرب. عرفنا ذلك في كتب القديمة كيف يكون كرم النساء للنساء إلا على هذا النحو. لا تعني على ركائكة اسلوبي كثيراً ما اتذكر زميلاتي وانسك ماذا يصيبن من هذا الكثر الهاديء الجميل؟ حقيقة لو فكر الواحد في هذا الاتساع حونه. وفي بلدة ضبا القديمة التي هجرها أهلها إلى ضبا الجديدة لربما يصاب بالجنون ضبا القديمة ليست بعيدة. أرى بيوتها القديمة المهدمة بالليل من فوق السطح كالتقابر المنيئة بالاشباح. لكني لا أحاول النظر ذاهبتاً. وبالنهار أراها كأنها تلتقط الأثرية تستعز الزبارة ولا أزررها أنا باختصار أستطيع أن نجو من الشعور بالوحدة بأعمال كثيرة أعيد ترتيب الغرفة. أعيد ترتيب الأدوية بالمصيدية أنا هذا أفعل كل شيء بعد مواعيد العمل استوصف كبير جداً لكني أغلظه بقليل من الداخل أترضى بعد مواعيد العمل يذهبون للأضواء في بيوتهم ويأتون إلى فاعطيتهم الأدوية من فتحة صغيرة بالباب. لا يخليقني إلا أترضى الذين يأتون في منتصف الليل لكن النور هنا يملأ كل الغرف أنا أتركه مضاء فيها كلها. بالنهار يكون ضوء النهار أكبر من كل ضوء. أنا لا أترى من حارقي الليل بدءاً. لا يخليقني إلا البرد وأنا أترك الغرفة وأنزل لآلتي طبق أحد. هل لا يزال البرد شديداً في بيوتك؟ هاشم أخي كان يقول دائماً قل لمن يعمل عاماً إن عاماً لا يدوم. معلماً يفتنى المروءة هكذا تفتنى اليوم

كان يقول لي ذلك نجدة فيخرجني من شروني. أحياناً كان يفضيها في لاد. كنت أشبه بهمني كثيراً وأنا تلعبه صغيرة؟ كل

الناس كانت تتعجب من ذلك. أمي وأخوتي وزميلاتي والمدرسون والمدرسات.

أنت تعرف أنني لا أحب في الدنيا هذه مثل هاتم كنت دائماً أصدقه. ولا زالت..

وأعدت قراءة الرسالة وكذت أصرخ. أي جنون خبيث يتسلل إلى ذهن عابدة ولا تدري كل كلمة في الرسالة تقول ذلك. وأعدت قراءة الرسالة لأرد على كل كلمة فيها. لأعيد ترتيبها وتكشف لها أنها تمضي في طريق الهلاك. إنها تركب فرس العناد. لكنها لن تستمع لي لن تستمع لأحد. لا يُجديها نيل الفرسان ونيسب في حاجة اليه.

ووضعت الرسالتين أمامي فوق السرير. ووجدت أنظر إليهما، وأصاب عظمي شلل. وأصغى خيالي. وسمعت المفتاح يدور بالمقابض الظرجية. فأسرعت باخفائهما تحت وسادتي.

دخل رجب معه الطبيب الشاب الذي رأيته في المستشفى يوم ترحيل المرأة اللبنانية الصغيرة الأكثر جفاً رغم ما يبدو على وجهه من شعوب يحزن. ربما لذلك أذكره.

صاحمني وجيبه، واحتضنتني بقبلي. وارتفع صوته وهسهة بعفوري الظاهي. وبدأ الطبيب الشاب ذاهلاً عما إذ راح يقضم أظافره بأسنانه. بدأ مرهقاً للخلية حتى إنه استند إلى جدار الحائط.

- تفضل يا دكتور أحمد.

قال رجب. وأشار إلى مقعد في غرمتي. فجلس أحمد. وطل يقضم

اطفائه ذاعلاً عنّا. وسألني رجيه

- متى أتيت؟

- أمس.

- أنا لم أجد اليوم من المستنصر في الصباح

كان يبدو مرهقاً للغاية أيضاً. لم أنتبه لذلك إلا الآن. ولعزيتي

على سريرتي وقد

تستطيع أن تدخل غرفتي. ستجد تحت السرير كرتونة صغيرة

بها بيض ومعلبات لثريتها منذ يومين ولم أجد الوقت لأضعها في

المطبخ. نحن في حاجة إلى عشاء قليل.

وداح ينظر إلى السقف بعد أن عقد ذراعيه تحت رأسه. وخرجت

نأ أن غرفته منذ عهداً كيف لا يجد الوقت لوضع الأطعمة في المطبخ.

مع أن الذي يأتي من الخارج يمكن أن ينجه إلى المطبخ مباشرة.

أعدت عشاء من البيض المسلوق وشرائح الجبن واللانشون

والثريشون. ودخلت إلى الغرفة أحطه على صينية كبيرة لغوجنت

بأحمد بقلب

- لا بد أن تأكل شيئاً

قال رجيه لكن أحمد ظل يقضم أظفاره.

- تريد أن تنام؟

هو أحمد رأسه. نظام وجيه، وأخذ أن غرفته. وعاد يقول قل

ن يجلس:

- يوم لا يمكن أن ينسى. هذا ناكل

وضعت الصينية فوق الأرض. وجلسنا حولها، والنقط وجيه

بيضة وضعها في قبة كاسنة. وتكلم:

- هل تذكر الدكتور وقت؟

- طبيب المسلك النورانية الذي عاد إلى مصر منذ شهرين.

- احسن.

وانشغل ببيضة جديدة وضعها في فمه أيضاً ثم تكلم

- ذهب إلى أميكا، واشترى معدات العيادة كاملة، ومات قبل أن

يفتح العيادة

وسكت ولم أزد. رحت أكنز على مهل، وعاد هو يلتقط البيض

بيضة بيضة يضعها في فمه كاملة، وقال:

- شيء غريب اليس كذلك؟

ولم أزد. سعيد الذي قرر العودة النهائية آخر العام يُجبر على

العودة قبل الموعد. رامت الذي كان سعيداً بقرنته على حسم موعد

عودته يعود ليموت. لماذا لم أقبل وجيهاً لمس؟ لو فابلته أسس

لثعبتنا في شيء آخر أنا أريد أن اقرأ رسالة عابدة مرة رابعة. أريد

الكتابة إليها. لماذا يترك الجميع في دروس هذه البلاد؟ هنا أرض

تأبى إلا أن تمسك بما يسقط عليها ولا تتركه إذا شرد ثقته بضربة

فدر أو حظ عاثر أو خطأ ساذج ثقته. ثقته في كل الأحوال. الفقل

هو الغاية. وعابدة تعرف وتذهب إلى حلقها بعدها. وصالح مستور

الظيقي ابن بار لهذه البلاد. يحب وهو الصغير البش. أن تكون له

اليد الطول حتى في الإحسان. لقد أمطك البدوي الثروة. ولا يظن

أنها ليست من عنت بد. فالويل كل الويل لأناء العواضر والمدن.



كيف اكتب رسالة إلى عايذة الآن ووجبه يتم على سريري الضيق يشغرو ولا يترك لي إلا مساحة ضئيلة لا أستطيع فيها حركة قال إنه اخذ اليوم راحة لأنه كان من المستحيل ان يستمر في العمل ليلتين بلا نوم بالنهار. انشغل بالنهار مضطراً مع احمد الذي لم يكن مناسباً له ان يترك مصر. وجبه قال ذلك وقال إنه يعرف أسرة احمد، وبنيه وبينها صداقة قديمة. وفرح جداً بمجيئه الى المملكة. لكن احمد شخص رقيق مثل الدانتيل لا يمكنه ان يتحمل. لم يمس اسبوع على محبته هنا وكفله مدير المستشفى بمصاحبة المرأة اللبنانية الصفيحة إلى المطار. واليوم كلفه المدير بالذهاب إلى القاعدة العسكرية لعضود الامام جندي سبق له ان أطلق النار على ضابطه لم يكن الامام بالسيف بل بالرمح من الطريقة العسكرية. وكان على احمد ان يذهب ليضع علامة بالدهان الأبيض حول قلب الجندي ليقيم فريق الامم من الجنود بالتصويب اليها ثم يكتشف على الجثة بعد ذلك ويثبت موتها. وامضى احمد كثيراً. لكن المدير صمم، فذهب المسكين. ويضع العلامة حول القلب. واسطق الرصاص. فاصاب كل جزء في الجسم إلا القلب. لقد جعلوا الجندي واحمد في سيارة اسعاف واحدة الى المستشفى الجندي إلى الشلاجة واحمد منهاراً الى غرفة الاطباء سيستقر احمد الى القاهرة بعد أيام. طلب إنهاء تعاقده بمجرد أن تفاق من الانهيار الذي أصابه. وامضى وجبه اليوم كله معه. وعجز عن إنثائه عن عزمه عن الرحيل فاصطحبه معه أخيراً الى البيت خوفاً عليه.

لا رجائى من أحد.

«لا تلوميني إذا تأخرت عليك. كنت صافرت إلى مصر، مشرعين يوماً فسيئتها هناك.. مهمة عاجلة لم أستطع الاعتذار عنها. هل كنت محتاجاً لذلك ولا لغيري؟ هناك أحسست بحاجة إلى العودة. والآن أريد أن أسافر، ليس إلى مصر. إذا كان هناك شيء له شأن في عودتي إلى هنا مرة ثانية فهو أنت.. لا أستطيع الاستمرار»

أرد أن أزدرك وأخاف. ما معنى أن تستقبلني بحفلة ثم أعود؟ أخاف أن أجيل فأفسد الأمر كله.

النهار هنا مثل النهار عندك. الليل هنا مثل الليل عندك. أسماء فوق هذه البلاد واحدة. وديح العجاج تضربنا جميعاً لكن ليس في نورك. ظلمت أنت لنبذل والخطاء. خلقت لنا للمعرفة «لتأخرة». أريد أن أوزن مرة واحدة باليقين في موعده. رأيك كثيراً في يفتاتي ومثلي تأخذين يدي بعيداً عن الموضع.. أريد أن أخذ يدك بعيداً عن اختيائك المستعمل. هل تقبلينني يا عابدة زوجاً أم نرى تلوميني؟»

ولا رسائل.

كل يوم انظر في عيني عبيد هو الذي ينزل البداة اكثر من مرة
ويصر بالبريد ، وعاهد لا يحمل إلا اوامر بالانتظار حتى يعود مرة
اخرى

مضينا قُصْماً في شهر مارس ، وطرد وجه الربيع كثيراً من برودة
الصباح بما جاء به من ضوء ، ولم يمنع هبوب ريح العجاج



- أين أُرشد؟

سألت الباكستانيين الذين علوا من اجازتهم ودخلوا مكتبي
مبتهجين في صباح هذا اليوم الجميل
- صرَّوْا ، يعرف ، إنه يسكن بالقرب منه في بيشاور .

ودخل صرَّوْا بعد لحظات ، نصير بكاء يلفظ في مشيته ، وبارئ
العيين ، منقسم دافعاً .

- أين أُرشد يا صرَّوْا ؟

- أُرشد مسكين مسنر اسماعيل . في المسكن الآن .

- سجن ؟

- أجل مسنر اسماعيل قبضوا عليه لحظة وصولنا ، لن يعود

هنا مسنر اسماعيل

.. ..

- أُرشد يعمل مع المعارضة مسنر اسماعيل ، المعارضة ترسل

رجالها إلى بلاد كثيرة في الخليج تجمع الاموال ، هكذا تقول
الصحافة مسنر اسماعيل .

.. ..
- أنا أسف مستر اسماعيل . أنا أعرف أنه كلن خير صديق .

وخرج منرقته . إفتن لن يعود ارشد ابداً . يا الهي! ماذا يفعلون
به الآن؟ «العسكريون الغيباء مستر اسماعيل» . قال لي ذلك فهل
سمعه للعسكريين؟

ورأيت عابداً يقف عند الباب مبتسماً . ويسألني:

- شفت منتر؟

- لم يأت حتى الآن

- لن يفتي .

.....
أقبض عليه أمس بتهمة محاولة اختصاب . ولا يزال في الشرطة .
- أنا لن اعمل اليوم .

وقعت سرحاً إلى سيارتي . وانطلقت بها نحو سبل بنداعات عابده
المذكورة لي بالعودة . ولا بالدهشة المروعة التي عشت وجبهه حين قلت
ذلك .



الضوء امامي يوسع في الدنيا . والرمال متزامية في جلال باهر .
وجوفي ندف متفرقة من سحب واحدة . وفولنا كتنا سماء شديدة
الزرق والصفاء . لذلك يا ربي منذ أتيت الى هذه البلدة لم ار طيراً
واحداً في السماء؟ حتى العصافير التي كنت أسمع شقشقاتها في
المستشفى خارج النافذة لم ارها . ولم تدخل واحدة لتقف لحظة
على حريم النافذة تنظر اليها وتفرغ عائدة بلد بلا طيور . كيف ذلك؟
أم أنني لم اعد ارفع بصري إلى اعز؟

بالقرب من الموقع الذي رأيت فيه الكلب مرة واحدة أن لا أنظر.
لماذا تجتاحني الرغبة اليوم في النظر؟ نظرت. ورأيت. لم يتغير الكلب
الأبيض الضخم مثل الحمار الشرار.

ونقلت أقود سيارتي بجفون حتى انتهى الشارع، وهذا من
صرختي استعداداً للانحراف إلى الشارع العام. الآن فقط أدركت
أنني ذاهب إلى الشرطة لأقابل منذر. والآن لحقت سالت نفسي هل هذا
ممكن؟ ولم أنتظر الإجابة. ولم تنتظر للسيارة الكابريس التي
انحرفت نحوني فاندفعْتُ بسيارتي بعيداً، لكنني تركت نهر الطريق
وصعدت الرصيف الصغير الذي يتوسط الشارع. ودخلت في النهر
الأخر وعلقوا اسطمنحتُ بسيارة أخرى. واسطمنحتُ صدري بمقعد
سيارتي وأنا انفع براسي في الزجاج الأمامي. ولم أشعر إلا بالناس
تشدني من فوق مقعد السيارة ومن بين زجاجها الأمامي الذي
تهشم تماماً والام في راسي ووجهي يشوطني وفي صدري يكاد
يشقطني.

- غداً. غداً.

يقول الوجه المصري البشوش للشباب الصغير الذي لا أعرفه،
والزحام حولي شديد، وأنا سمدد جالساً فوق الرصيف أغلق
الشعور بالأغصاء. وأشعر بالقدم الساخن على وجهي، ورأيت ضابطاً
سعودياً شاباً يصرخ صائحاً بلا انقطاع.

- انسأ؟

أطلق وجه وجهه من بين الزحام.

- هيا إلى المستشفى. ضعه في سيارتي.

- غداً. غداً إن شاء الله.

يقول الشاب المصري البشوش، الصغير السن وهو يأخذني من
نراعي، استند اليه، ويمشي بي الى سيارة وجيه.
- لن يذهب إلى المستشفى، الشرطة أولاً.
صرخ الضابط بوجيه، فصرخ به وجيه أيضاً

انا الدكتور وجيه رئيس قسم الجراحة بالمستشفى هذا الشاب
سينتف حتى الموت هنا لو في الشرطة، هل تتحمل ذلك؟
- إذن انت مسؤول عن تسليمه.
- انا مسؤول عن تسليمه

وأخذني وجيه من نراعي الثاني، وركبنا سيارته انا والشاب
المصري البشوش، الصغير السن الذي لا يزال يردد:
- خيراً، خيراً إز شاء الله، لا تطلق.

ولم يكف عن الابتسام لي وجيه، فاستمعت له ريث ابتعدت
شديدة الغنوبة قلت:

- ماذا حدث؟

- حادث بسيط.

قال الشاب، لكن وجيه قال:

- ليس بسيطاً، لقد عذمت بسيارتك سيارة شرطة يا استاذ.
احمد ربك اني عائد من المستشفى الآن ورايتك.
- هل تعرفه يا دكتور؟
- طبعاً نسكن معاً.

- العبد لك، إذن أنزلني انا هنا، لا ألقن انك مستحقانني في
شيء، هل تعفانانني في شيء؟

- لا، نشكركم جداً.

قال وجهه وايشست انما وثقتُ بيدي بصعوبة أصابعه. فريئت عليها يديه ونزل.



لم يأخذني وجهه الى المستشفى أخذني إلى العيادة الرئيسية بالشارع العام. هناك تمددت فوق طاولة الكشف وراح هو وممرضة مصرية سعراء ينقبان جروح رأسي الصغيرة من شظايا الزجاج الذي لم يكن كثيراً، لكنه احتاج إلى أن يخلق لي شعراً رأسي كله.

كان يضحك وهو ينظر إلى رأسي بعد الحلاقة. ولم يجد لي وجهي الا شظيتين صغيرتين في جبهتي، وارتاح كثيراً حين وجد غلوتي سليمة.

ولكن:

- لا بد أن اكتب تقريراً كبيراً حتى أعزز موقفك أمام الشرطة.

- هل يحتاج الأمر لذلك؟

- طبعاً. لقد انعمت عن الطريق إلى طريق آخر وهدمت سيارة شرطة في الحالات العادية يمكن أن تدفع للمعتصر من الخسائر، لكن مع الشرطة لا اعرف ماذا يمكن أن يحدث. ألم تجد غير سيارة الشرطة تصدمها؟

- أنا لم اصدم اهدأ. رايت كان سيارة كاليريس نهاجمني

فانعمت ولم امر كيف صدمت من الفاصل بين نهري الطريق.

ولمصدق.

- يمكن أن نرى شكك في المرأة وتضعك على كل حال. سالف
راسك بالشعشع رغم عدم حاجتك اليه حتى تبدو أمام الشرطة
شخصاً يستحق الشفقة.

لث رأسي ونظر في ساعت وقال:

- لم يأت أحد. يمكن أن نذهب الى البيت الآن.

- لكنني اريد الذهاب إلى الشرطة.

- نعم؟

- أنا تركت العمل للذهاب الى الشرطة.

- لماذا؟

ولم أريه إذ دخل الضابط الذي كان يصرخ وقت الحادثة وطلب
ان أحسبه، وقبل أن يقول وجهه شيئاً قلت:

- استطيع الذهاب معك.

ورأيت وجهه ينظر إلي بغيظ وبغشة. وقال

- سأتذهب أنا أيضاً معكما.



كانت خطة وجهه ان يتصل تليفونياً بأبي حكيم قبل ذهابنا. لقد
حاول متعين فلم يجده. كان يفشى أن يتحول الأمر الى المحكمة في
شباب أبي حكيم. وفي هذه الحالة لا أقل من شهر حبس، لذلك أراد
ان يعامل الضابط ولم بدر اني اريد الذهاب بأسرع وقت حتى أرى
منذر قبل ترحيله أو نقله إلى السجن. لماذا حقاً أريد أن أرى منذر؟

ووصلنا واستقبلنا أبو حكيم. ورأيت وجهه يتنفس بالارتياح.

- 'رعبناكم يا اخوان يا مصريين. لا تؤاخذونا. سوف نعطيك

الثّنية يا استاذ اسماعيل لو تنازلت للقلب المتّخيل بن المتّخيل.

قال أبو حكيم لعلّاء بعد أن جلسنا، ومر علينا الشيخ المصن
بأبريق الشاي، ونظر إليّ وجهه في دهشة، وناس على قدمي، ففهمت
أنه يطلب مني الصمت، وعاد أبو حكيم يقول:

- امسكنا بسلق الكبريس، ولما عليه النفس ما لهذا الولد لكم
يا دكتور، هذا الفلاسق أن ينجو من يدي سأوقعه، نكن في مسألة
تستحق، إيش بيغي منك يا أخ اسماعيل؟
- أما لا اعرف ممن تتحدث.

- صالح، التلقيني، أظن أنكم تركتم بيته
رّة وجهه بعد أن نظر إليّ يحذرنني من الكلام
- تركناه بسلام وعلاقنا معه طيبة ولا أظن أن صديقاً يقصد
شيئاً

كنت أنا للفكر في كلام أبي حكيم، هل كان صالح التلقيني هو
سلق الكبريس حقاً، ماذا كان يريد مني؟ هل أراد قلبي أم
توريطي في حادث كبير؟ لا أستطيع أن أصدق، من يضمن بقاء
الشجرة بين توريطي وموتني؟ قلت في استسلام.
- أنا أيضاً لا أظن أنه كان يقصد شيئاً
لحسبك أبو حكيم ولّال

- أنت يا دكتور صرحت نعرفنا لكن صاحبك ما يعرفنا بعد، أتركه
يا أخي يتحدث بحرية - وبخاصتي - لا تفش شيئاً يا أخ اسماعيل
هنا قانون وشرطة يمكن أن تعميك.

- اشكرك لكن هذه هي الحقيقة.

- والدتي هل تتنازل عنها أيضاً؟

- أنازل عنها.

- أحوالكم أحوال يا مصريين!

ومر بنا الشيخ المسن بعمل إبريق القهوة مرة ثانية، فشربت
فنجناً منها لأول مرة، واحسست بالحرارة التي لا أطيقها في حلقى،
فشربت نجاناً ثانياً وقلت:

- لي مشكلة صغيرة هذا يا أبو حكيم.



جاء منذ منكسر توجه، شديد الشعور رأيي، ورأيت عينيه
عمرانين بيضا يبتسم ساغراً، تركت العمارة يا استاذ! لي بيت
عربي. بيت قديم جميل به شجر نخيل وشجر الليمون يوجني حامل
وقلت العذبة للولد: جهاد ساسمه جهاداً. لماذا جرى يا استاذ؟
سذر لايمسى. سذر لا يكل ولا يتعب. كل شيء بلا سذر يتوقف.
جاسي الملموس زوجه. الشيخ المسن الذي بالكاد يعني ويتكلم
وبالكاد يفعل أي شيء، وطلب أن أذهب معه لأصلح تكيف العمارة
من شقة تشقة نقلت حتى وصلت شقته. دخلت يدخل معي وخرج
وأنا لا أشعر وجاءت الشرطة وأنا ألق فوق السسم أعالج الكابلات
فيتم سينمائي يا استاذ. مشري لن يحاكموني ولن أدخل السجن
سأدخل من الصلاة. شريكك صعب يا منشر. الفلسطينيون
يحاكمون ويسجنون ويعاقبون ولا يرحلون. الفلسطينيون يا
استاذ! الآن أنا أردني وأنا غير حزبي شريكك يعني أن لي وطناً
أحب إليه وجسوا لي وطناً يا استاذ. ولا أعد برفض الوطن.

«فيا يا ولده، اشر لير حكيم للشرطي ان يأخذ مئذراً. وأنا لم
استطع إلا ان احتضنه والقبله. سامعني يا استاذ. أنا احبك
لحب المصري جداً. لا اكتره إلا المسرات يا استاذ. أنا احد
جنودي مصري. مصري يغض ان يحفر في القنال ويهرب اثر
الضام. لكن الشرطي جذبه وترك منظر نفسه له.

- لا تعذب يا مصري. هذا حال الدنيا كما تقولون في مصر لا
تصدق رواية هذا النون.

كيف سمعه لير حكيم وهو يتحدث الي بصوت خفيض.

- حياك الله.

- في امان الله.

مد وجهه يده يصافح لير حكيم. لم امد يدي امسحه ولم يفعل
هو ايضاً. خرجت لير مصدق انه كان البيت منظر الجديد حديقه بها
نخيل وشجر ليمون. لا اعرف هنا إلا بيتاً واحداً فيه تلك، وفيه سيد
الغريب ينتظر.



مرهلاً بحث ال البيت. دخل رجليه إلى غرفته نيام. في غرفتي
استلقيت فوق السرير. كمنع منسوب لي يا استاذ وأنا اعرف...
ذهب للكمين بقميصه وبكامل الوعي. وشلولت إحدى المجلات الملقاة
جوار السرير فوق الارض القرا عنوانها لماذا انتعنت على الصلحان
الأخيرة أنامل رسائل القراء.

- جازاً من الصديقه واضحة بنت سليمان بن سبيل بالرياض
رسالة تقول فيها إنها تحب مصر جداً وإنها كانت تمنى لو تم

يذهب الرئيس المصري إلى إسرائيل حتى لا تستمر هذه القطيعة بين البلدين. وتساءل هل تقبل الجامعة المصرية الشباب السعودي الآن؟ هل توافق الحكومة السعودية على التحاق شبابها بالجامعة المصرية؟..

والصدفة واضحة نقول أننا كنا نتعنى معك، لكن ليس كل ما يتناهى النور يدركه. هذا مثل عربي قديم وبالنسبة للأنثاق بالجامعة المصرية، فلي بلادنا الآن جامعات على أعلى مستوى. لذلك لا أظن أن هناك معنى لاستكمال شبابتنا تعليمه في مصر.

تلقّ عليّ والخسعة إذن في رسائل غير مباشرة. من قال لها اني اقرأ المجلات المحلية تعرف ان الوقت لا يمر رغم سرقة الأخبار . لا بد .

جميلة هي الدنيا والحياة جديرة حقاً بأن نعيش فنحن لا نحياها
 إلا مرة واحدة. يا كاهن. والآن. نضرب رأساً شبيهاً خشبياً
 ونسكب فيها حموية الحسا والدفاعات. ونذكر كل كتاب قرأته. من
 قال ذلك يا سماعيل؟ أوسر وهسكي وهو ينسج صفوف الجيش
 الأبيض بسيفه ورماحه والتقايل بالسيف يسبقه نكتي خير
 قديم بأكتيب الكشاح ولا يجب أن نخضع الآن هيمدو الأمر
 مضحكاً. ولما بعز لست في حاجة إلى ألام جديدة ها أتدا أري
 العضاء حولي أنتي نخلع كل يوم عن جسمها رداء غلزدان مسجراً.
 ونقدم في شهر مارس فانتخف كل يوم في ثيابي. وطرير الرياح
 جيس. والتمساج في كهلته. وفعل ديك الأغير إذ اكتشف أنه بعد أن
 مرّق جسديه راح ينفث النواب من منقاره لكن لم ياتني رد من
 عائدة حتى الآن. وكل يوم اقور السطر إليها. وكل يوم ننتظر.

رثت كغفران مقلقة. وصنعت الرمحاً خشبياً تحت حوص الطبع
 يصنع مع الجدار زاوية حادة ورجعت أطايرها حتى تدخل بين
 النوح والحدائق. والنوس القلوح يقدم في فمها بينه وبين الجدار.
 فتلت ثلاث حتى الآن. واليوم فكرت أن تبدأ في إحصاء قتلاي لقد

استيقظت نشطاً. والمطرت مبتهجاً ببيضتي. وجريت في الزهرة
وقفزت أنظر الى السماء الصافية. وقنحت لمي للهواء النقي.
ورقلت فجأة وقررت إحصاء قتلاي

في حجرتي وقلت وكراسة الخطابات في يدي لأسجل فيها عدد
الغتر الذي لا أعرف أسماءهم. اليوم هو السادس والعشرين من
مارس عام ١٩٧٩. واتسعت الغرفة بي كأنما انسك في صدري
ماء منعش بارد. فلماذا لا أبدأ من اليوم كتابة المذكرات؟ كتابة
المذكرات تجعلني شخصاً ثالثاً ترى بعين لا تثقل الطلب بالأوجاع.
من ذلك الشخص الذي قرأت له ذلك مرة لا تذكر ولا يهمني ذلك
الآن. ولادع ب سرعة الى العمل.



ولم اكتب المذكرات ابداً لم يكن سهلاً أن أصبح شخصاً ثالثاً.
اخبرت وقتاً غير مناسب لادعاء القوة دخلت سيطرة عم عبد الله إلى
البلحة فللارت زوبعة الغراب. وانما يدخن عم عبد الله مسرعاً.
وحتى الآن لا ينتهي الثواب من فوق الأرض، الذي يطير من نواتها
بالنهار، تعود الشياطين وتفرش نواتها بالليل.

دخل عابد غرقتي والبلح يكاك بلفز من عينيه

- من الخطأ في شيء؟

- لا.

- عم عبد الله غاضب جداً يحطبك فادع ولا ترد عليه

نهمست غاركاً مكتبتي في دمنسة. وافكر ايضاً في الرقة التي تنبسط
من عابد فحاة.

- ابيض سويت في مصر؟

- .

- ابيض سويت في مسافة البصائع؟

- لا شيء، لم أجدها في أي مكان، أخبرتك بذلك.

- هذا.

والتي عم عبد الله بورقة صغيرة لم تصل إلي ولم تستقر على
مكتبتي، فاندحبت والتفتفتها من فوق الأرض. وصرخ في:

- اقشراً

«مفكرة مسطر عبد الله لن تعود إلى المملكة. وداعاً لاري،

- أتدري معنى هذا؟»

- لن يعود مسطر لاري.

- لاري لص سرقة ثلاثمائة ألف دولار، وأنت مصري فرعون

خبثت وغبت أثر بيته أكلت وشربت خمرأ وبعثت مع زوجته. نعمت مع
روز أم لا؟

- ٧ -

وسكننا وسكنت الدنيا حولنا. قلت لا بصوت لا بكاء يسمع
وكنت أقول تلك أنت الذي تمام مع روز، وإن حجرة عابد وتبيل هي
فرشكنا، وأنت أنت الذي تخالف قوانين المملكة لتسهل لها العمل
في حصنتك وتسهل لزوجها نهب الأموال فاشركة ليست شركتك،
وما أنت إلا مدبر لا نزعى إلا مصالح التي تستخدم فيها عابداً
أكثر مما تستخدمه في العمل، لكنني وقفت صامتاً لا أري من أين
يأتي الاتعذر بعد هذا الصمت.

- امشي امشي من امامي

قال باكم واضح، وخرجت غير مستاء. صابقتني فقط لاني لم اتم
حقاً مع روبر



لم يظهر اليميني اليوم ايضاً. نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية
عشرة. ونظرت إلى الباحة فلم اجد. نسيت أنه لم يظهر منذ ايام.
كما نسيت أن اسأل عن السبب

ودخل نبيل الغرفة يحمل القهوة بلحيته التي لا يزال يحتلقها
والتي ازداد طولها. وبدأ انه يريد ان يتحدث معي ولف قليلاً
متريداً ثم جلس وهو يمسكتني:

- ماذا أصبحت الآن؟

- فسيم؟

- مكثت القضاء الاميريكي

- ذلك الذي تعمل في القضاء؟

- اجل

- سيمسقط في أي مكان "لاذاعات تقول ذلك.

- وهل أنت راضي عن ذلك؟

- اريدك ان تبذل. قلت متحمساً ومتحمراً:

- وبهذا تستطيع ان تفعل؟

- سأفعل قليلاً وبذل

- لم يقل احد اني سيمسقط بالضغط.

- لقد قالوا ان اسفرائيل هي اكثر الاماكن احتمالاً لتسقيطه

- لكنه لم يسقط حتى الآن. انتحروا ثلاثة في استراليا قزماً ولم يسقط.

وسكننا وأنا لا نستطيع أن نضحك. الكريجد في طريقة علاج بها ما يسيطر على ذهنه من الفكر. وأعجز ولا شيء من هذا التحول في عقله. قلت:

- لقد انتهت ظاهرة الاطباء الغائرة ولم يحدث شيء سينتهي المكوك أيضاً بسلام
- لا نأمن هذا مكوك حقيقي له اصحاب معروفون.

- نبيل حدثني عن نفسك أفضل كيف حالك هذه الأيام. ألا نضلك رسائل من مصر؟

- وهنئني رسالة من أمي تقول ليها أن خطيبي تزوجت من سائق التاكسي.

وعنتا إلى الصمت. رأيت ممحاً بكلمة يتفرق في عينه.

- أعز نفسك يا نبيل. الانسان يمكن أن ينسى كل شيء مع الوقت. يمكن دائماً أن يبدأ من جديد.

- لا أظن أن أمي صادقة.

قال ذلك وتركني



عدت إلى البيت وتناولت الغداء مع وجبة. لم نتحدث كثيراً. كنت أرد الانتهاء من الطعام بسرعة لأنفرد بنفسي في الغرفة. لقد أحضر لي عابد اليوم رسالتين. أعطاهما لي واهتفت بفلمر المكتب. لكنه بعد خطوة أو خطوتين عاد يلتفت لي ويبتسم. كان اسم عبيدة ظاهراً

خلف مطروف إحدى الرسالتين، واسم أخي قبل الأخرى، فقدني
فرحتي بالرسالتين، وتوقعت أن يعود إلى المكتب مرة أخرى ليراني
أقرا فيهما. لا أنري لماذا فكرت في «يوديا» هيب، في رواية ديفيد
كوبير ليلد التي شرعت يوماً في ترجمتها ولم أتمها. لم أصدق أن
اليوم انتهى، وأنه يمكن أن أعود إلى البيت وأنفرد بنفسي أقرا
أشراي.

وهللتني وسألتك وأنا استعد للسفر بيدرو أنك لم تمض وقتاً
طويلاً في مصر أنت لم تقصص عن شيء، لكن كل الذين يذهبون إلى
مصر يلتون ويقولون ذلك. لماذا^٢ ويذهبون هناك يشكون من هنا
أيضاً.

طبعاً كان يمكن أن تزورني. لا أجد خزيّاً في ذلك. المهم أن تأتي
في وقت مبكر لم يكن صعباً أن ألتحقه لزميلاني وزميلاتي كصديق
عزيز الآن لا تستطيع أن تزورني لأنني سأسافر في الصباح. كم
كان بودي أن استقبلك حقاً. لا أستطيع أن أعمل شيئاً الآن. زار
المستوصف وزير الصحة وسمح من امتيازاتي. فسك كثيراً حين
عرف أنني أبيت وحدي في المستوصف. تعجب كيف لا يصيبنني
خوف أو جنون. وقال لا بد من شكريني. وأمر ينقلي إلى «ألبها» في
الجنوب. «ألبها» مدينة جميلة بحق يقولون إنها أوروبية المناخ
جاءت زيارة الوزير في وقت دقيق. كنت بدأت أفقد شيئاً من الوقت
وبدا الخوف بعد مسالك إلى قلبي. ما أبشع المستوصف بالليل
السماء فوقتي جميلة لكن هل يمكن أن أمضي الليل أنظر إلى أعلى
لا تلفزيون هنا فالإرسال لم يدخل البلدة بعد. الراديو هو حديقي
والراديو لا يثبت إلا الألم. صارت حركة الأشياء تحت الريح فوق

السطح تصييفي بالرعب، وكل طارق للباب من أجل دواء لقلته وحل
أمن جاء للقبض على هاشم. كانوا يأتون بالليل دافعاً، هل تعرف ما
شغل ذهني في الأيام السابقة؟ سؤال غريب، ضجاً يندتان، بلدة
قديمة وبلدة جديدة بالقبوب منها، هجر الناس القديمة، لكن
الجديدة لا تختلف عن القديمة في شيء، كيف تكسر هذا الأمر؟

حتى أرسل لك عنواني الجديد لك السلام والامان..

ولا اجابة عن سؤالي سمعت خشخشة غار في المطبخ، فقلت
وطايرته واخرجته من خلف دراب الأواني وادخلته بين الفوج
الخشبي والحائط ردمت



لم يخرج وجيهاً اليوم الى العمل
- هناك شيء خطبته بعد يا اسماعيل

.....

- انا سأنقل إلى مستشفى الملك، بالعينة المنورة.

.....

- يمكن ان اشرح لك احد المصريين يعيش معك.

- سأنقل نهائياً؟

- تقريباً.. وسأسافر غداً.

- لا حاجة بي لأحد

- ستعيش في البيت وحدك؟

لم ارد كانه لا يعرف اني اعيش وحدي منذ ان اتيت. وهو أيضاً
لا يعرف ان رسالة اخي خملتُ خبراً بمرض ابي وانهم بحاجة إلى

عائتي جفيرة. لم يوضع لي أي مرض أصاب أمي. انساني
تدائن خطيب عابدة. وانساني حديث وجبة الخطابين معاً.
وانساني المذيع الذي يتحدث أصعنا الآن كل شيء. قل إن الأرسل
سينقل إلى اراعة خارجية لينقل مراحم التوقيع على معاهدة كاسب
ديفيد في البيت الأبيض الاميكي. نحن لا نخطها على الهواء تليداً
ولا تيمناً. إنما جرى الشعب الخيانة بعينه.

كارتر يلف يتسماً وسط مائدة بيضاء طويلة وجواره على اليمين
يلف الساعات وعلى اليسار يلف بيفز والزهور فوق المائدة تكاد
تخفيها وعلى الناحيتين الحديثة الواسعة وحلوه من رجل
السباسة وعشرات من الصحافيين يترقبون ويلتظنون الصور
التذكارية. كارتر يتحدث عن الجهود المضنية التي بذلها الزعماء
الثلاثة للوصول الى هذه الاتفاقية. والأمل الكبيرة لانتهاء الصراع
في الشرق الأوسط ويتحدث عن السلام في العهد القديم وفي
القرآن. حزان جنحوا للسلم فاجنح لها، يقولها بالعربية ويضج
صوت كارتر ويبرز صوت المذيع المحلي. والقرآن أيضاً يقول
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به معو
الله وعدوكم. صلى الله العظيم.



في الفجر لمست وجلست فوق السرير. وأصغلت نوز الغرفة وطلت
لن أنام بعد اليوم في هذا البلد. دخلت مسرحاً كبيراً بلا مقاعد. كُتبه
خشبية مربعة. والمتفرج الوحيد هو لنا الجالس على المقعد الوحيد
عند الباب. وفوق الخشبة تسعة عشر رجلاً وامرأة يظلاً وظللة.
يقفون على الناحيتين. وفي قلب الخشبة البعيد امرأة مربوطة من

ذراعها إلى ظهر سرير، مثنية ساقيها عند الركبتين ونظرت نصفها الأسفل ملامح بيضاء، ونصرخ وترتفع بنصفها الأعلى فيظهر الحرق غامراً وجهها وتجمد عينها بكلم رهيب، وتجمد عيون الرجال والنساء والأطفال بالخوف والذهول، وأعلى المرأة جلس الشيطان في مقعد معلق، وله فرنان أزرق ووجهه منطخ بالألوان الحمراء والأزرقاء والصفراء وبزوار الضوء على وجهه.

الشيطان: (صاخاً بالضحك) يمكن أن أزيل خوفكم.

الرجال: (في ضراعة) كيف يا سيد الخوف والظلام؟

الشيطان: (يلقي) تختفون واحداً بموت

(يتبادل الرجال والنساء النظرات في الخوف، وتمسك النساء بيدي الأطفال في خوف).

الرجال: ما أصعب الاختيار. (يرتكزون بسبقانهم على الأرض ويرفعون أيديهم في ضراعة) لماذا تفعل ذلك بنا نحن الذين اخترناك معلماً لنا وهادياً؟

الشيطان: (صاخاً) من أعمالكم سُلط عليكم.

النساء: (في جراءة للرجال) لا تستمعوا إنني هذا مفاتل خدع أباها وسبب لنا كل هذا الشقاء.

الشيطان: (صاخاً بصوت مجسم) إنن انتظروا حتى تكد. ها هي المفاتيح بيدي.

تسقط أضواء زرقاء وحمراء على المرأة المربوطة بالسريز، ويختلط

صراخها بسجلات الضوء السريعة، فلا يعرف أحد ما إذا كان يرى أو يسمع. ويقتل شاب في حوالي الثلاثين إلى الخمسة فجأة. أراه قادراً أنه أنا كيف كنت من مفندي وفكرت دون أن أدري؟

أنا (هسارفاً بالرجال).. لن يموت منكم أحد. هذا ليس بشيطان. ما الذي يجعل الشيطان يعذبكم هكذا؟ هذا ضممكم يستيقظ أمتكم بعد مئات السنين، هذا لول الغيث. ستلد المرأة ولن يموت منكم أحد. هل عشتُم في عصر محمد؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: هل رأه أحدكم؟

الرجل والنساء: لا.

أنا: هل سمعتم أن الله يعذب الأبناء بذنب الآباء؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: لو جاء إليكم الآن هل تمنعوه ماكنم؟

الرجال والنساء: لا.

أنا: (للرجال) إنن قفوا وانصرفوا حتى تلد المرأة، المرأة تتعثر لأنه لم نسمع عن امرأة ولدت وسط الرجال. (يلف الرجال لكنهم لا يتحركون).

الرجال: لقد أمنا مقيدة بالأرض.

الشيطان: (يضحك بفراسة ويحدثني) هل تعرف حقيقة هذا المبدأ؟

أنا: (أقدم نحوه وأطلع عالياً إليه والضوء الانعكس بفرني) أعرف.

الشيطان : هل جئت لتفقدنا من اعلمها؟
أنا أجل.

الشيطان : كلن عليك أن تسمي من اجلهم (يخطيهم) اسكوه
إذا كلن مستعداً لأن يفعل ذلك.

(ينظر الجميع نحوي يتكلم الاطفال يتعلقون بساقي باكين. لا
أحد يتكلم. نسمع صوت نكاء طفل ولید).

الشيطان : (ضاحكاً) ها هي المرأة وضعت سموت منكم واحد
الآن إن لم تفلحوا واحداً طراعية واختياراً.

ويستط الرجال يتقلبون على الأرض في الدم. وتخرج النساء إلى
الأطفال. تحتضن كل واحدة طفلها في صدرها. اترجع أنا إلى
الخلف شيئاً فشيئاً. ولعل أن اسقط من فوق الخشبة بقف الرجال
ويسرعون يجمعون علي ويرجعوني في الهواء يذلقون بي إلى الشيطان
الجالس عالياً فيحطني من ذراعي. ويلذف بي إلى حاوية سمينة
بين جبلين عاليين بوسط بخار أبيض وأزرق وأحمر يعاصرني
ويدخل ساخناً إلى صدري يكار بهنقني وأنا أنقلب ساقطاً ولا
تلق بي الذراعان اللتان ميزت بينهما وجه أمي لزعماً ولا أحمل إلى
قرار الهاوية.

ازداد هجوم الفئران وازداد هجومي وعدي لنا الآن وقد مضى
اسبوعان على سطوحيه إلى المدينة، ولجمل الخراف الفحة من ذرائه
استغرقت خمسة أيام تشوي البقعة، ثم تراجعت منسعة الطريق
لربح الفجاج تهب كل ساعة وفي القلب من كل ساعة، ولا رسالة
تأتي من عابدة تخبرني فيها بعنوانها الجديد، ولا تفسير للرسائل
المذكورة باسم ر. س. في المجلات المطوية والعربية التي صرت
أحرص على شرائها.

«أرسلت لنا الأخت و. س. من الطائف تسأل هل يمكن أن
تصدر غتوي في المصلحة تمنع الزواج إذا تجاوز العارق في العشرين
والرجل والمرأة عشرين سنة».

بالطبع يا أخت و. س. لا يمكن أن تصدر غتوي ولا تشريع
بذلك.

«أرسلت لنا الأخت و. س. من الدمام تسأل ما الحكمة في
سفود المرأة في الأماكن المقدسة. وحجبتها في بقية البلدان؟
والحكمة يا أخت واضحة أن الناس في الأماكن المقدسة تتوجه إلى

الضائق من وجل، والفترض أن يفضي الجميع اليصر كما أمرنا
الدين الحنيف. أما في بقية البلدان فالناس أصعب مصالح
وتجارة وعمل وملاذات متداخلة. ويجب أن يستعينوا بكل الطرق
على خمد نيران الشهوة.

«أرسلت لنا الأخت وأخوة بنت سليمان بن سهيل من الرياض
تسأل عن طاق هذا البيت من الشعر وما هو البيت الذي يليه.

«مفاتي الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الوبيح من الزمان»

يقال هذا البيت هو أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر
هم دار بلدة بوان في فارس، والبيت الذي يليه هو:

«ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان»

والأخت وأخوة تتحفظنا دائماً برسائلها التي تتضمن كثيراً من
الابيات الروائية. فلدينا رسالة أخرى منها تأخرنا في الرد عليها
تسأل عن معنى هذا البيت

«والأمر ليس فراقه الودع هجر
والأمر لا يكون بعد الفراق»

وهذا أيضاً لأبي الطيب المتنبي الذي اشتهر بالحكمة البالغة.
فهو هنا لا يدعو إلى الصبر على موت الأحباء كما قد يتصور سذج
الشارحين. ولكنه يوضح إلى أي مدى يطف الإنسان عاجزاً أمام
حقيقة الموت المعلق على رؤوس العباد. كم هو بانس وتعيس هذا

الإنسان الذي لا يستطيع أن يواجه حقيقة الموت إلا بالصمت..

تفتني واضحة بالشعر الذي تسأل عنه وهي تعرفه واضحة ذات الاسم الواضح، لمن تكون و س. س. أنتي ترسل كل هذه المجلات من كل هذه البلاد، أمس الجمعة قال الشيخ علي طنطاوي-

وهنا رسالة مكتوبة بخط جميع علي ودي جميل أيضاً من المعذبة و. س. س.، والمعذبة، هذه بذات المجلات المصرية، ما طيئنا المصريون بلهجتهم النطوة يدخلون كل البيوت تسأل المعذبة و. س. س. هل يبيع الإسلام زواج رجل في السبعين من فتاة في الثامنة عشرة؟ وأنا أقول للمعذبة أن هذا امر أنواع التعذيب، ولكن الإسلام يسمح بحكمة، فلكل لم يطلق الإنسان إلا ووضع فيه العقل ويميزه عن البهائم، وكل صاحب عقل لا يفعل ذلك، لكن المال أقصد كثيراً من الترقوس الآن، وهل لعل الفتاة أن يرفضوا مثل هذه الزيجات ولا جناح عليهم. البعض قد يحتاج علي ببعض الصعوبة والتعب، لكن كان هذا عصراً وكانت تلك أخلاق وكان في الرجال مرؤة ولمحولة استغفر الله العظيم ..

كم واضحة بنت سليمان بن سبيل ترسل إلى المجلات رسلتها الآن، وكلها رموز شطرية لي أنا العاجز الذي لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولا رسالة من عابدة تسليني ولا خطاب من أخي يطنتني إلى أمي ويشرح لي مسألة مرضها.



ضحكت حتى كدت ألج من قولي المجد وأنا اقرأ رسالة وجيه التي أحضرها لي عابد قال

- هذه رسالة من الدكتور وجيه الذي كان يسكن معك.

قرا اسم الراسن كعادته ولم اهتم. استطيع ان اقرأ هذه الرسالة في العمل لقد تزوج وجيه في المدينة بامرأة لبنانية فاحشة الجمال كما يقول. أهلها شديدو الثراء، لهم في المدينة تجارة عظيمة. هذه هي الثلاثة يا اسمعيل وثبقى واحدة لا اظن اني سابعلمها. هذه المرأة بعثت النساء جمالاً زرقى.

ويخل نبيل إلى مكتبي متدهشاً من غشككتي التي وصلت الـ البيطيه وابتسم يقول.

- الا تخشى ان يسمعك عم عبد الله؟

- اخيراً ابتسمت يا نبيل عم عبد الله غير موجود اجلس معي قليلاً.

جلس وزالحت ابتسامته وقال

- لقد صليت ركعتين منذ يومين، وظلمت أن يسقط مكوك الفضاء بعيداً عن راسي. واستجاب الله لدعائي، وسقط المكوك في المحيط قرب استوليا.

- يبقى تحلق ذلك؟

- لن اطلقها إلا بعد سطري الـ مصر

- سندامر حقاً.

- آخر الشهر القادم مايو أنا لا اصنق ان خطيبتي تزوجت. لا بد انها مريضة او فاسدت أمي كل شيء. المشكلة ان هذا ليس موعد إجازتي السنوية. سافر مع أخي برسل لي برفقة يقول فيها ان أمي ماتت. ما رأيك؟

- لا داعي لذلك . أستطيع ان افنع هم عيد الله ان يوافق هل
إجازتك . سأشرح له ظروفك وسيوافق .
- لقد رفض عبيد ان يفعل ذلك . كذب .

● ● ● ● ●

دخل منصور المكتب باسمأ .
- هياك الله أخي اسماعيل .
- هياك الله يا منصور . أين كنت ؟
- في الكويت .. عدت أمس .

.....

- طبعاً تفدهش . تقول إني مجنون ؟
- لا .

- إنز تعرف لماذا ذهبت ؟
- لا .

- إلى وداو .. لقد فسدت خطبتها من سعيد تماماً .
- لقد حدث ذلك منذ وقت طويل .
- لا . كانت هناك شعرة . كنت ترتدي الخاتم

.....

- واتلفت معها عز الرواج .
- لكنني أعرف أنها سأفوت لتلحق بقريب لها .
- لا . هذه قصة لفتاتها لصاحب . أنا الذي أحضرت لها لينة
عمل بالكويت . وأنا الذي اخترعت لها حكاية قريبها انعام

.....

- ما رأيك في هذا الحل ؟ بوليسي . مثل الافلام المصرية .

وقام واتجه نحو الباب وقال:

- استعد يوم الجمعة القادم سأُسَوِّي كبة كبيرة هنا تعرف الكبة؟

- اعرفها ولم ادركها.

- حتى الآن؟

- حتى الآن

- سأُسَوِّي نبلش كثيرة وسيحضر كل العمال هنا في الباحة سنتنقحها.

ومضى مبرهاً والفردي ينظر الي من خلف ظهره.



تجاوزت في القتل الخمسين ذراً. وصرت اصطادها في الليل أيضاً. صوت لزان الفجر يملأ فضاء البلدة التي غرّبتها البحر من الهواء فصار الصوت طناً فاصحوا والصبح الساعتين المبكرتين في عتامة الفجران. أما في القتل في النهار وفي الليل وقلي بالوش من فوق الباب وأسمع صوت شجار اللطط التي أعرف انها في حجم النمر لقد ذهبت الى المستشفى لالذليل ورده وقايتها لم تضطك وتم تبشم. علف الدم من وجهها وغطاء الأسف.

- جئت تسأل عن عابدة؟

- أجل أريد عوانها في إيهاء

- عابدة انتقلت إلى المنطقة الشرقية. إلى المسام.

وسكننا واتسمت في نفسي ان أقتل أول من يكلمني في الطريق. ولم أقتل أحداً ولا كُلمني أحد. بحث أقتل الفجران. لكنني لا اصطد

إلا الفئران الصغيرة - العيسى - القلهاء عديمة الخبرة. هي التي تتسلل إلى حقل القتل الذي أعدته لها لم يعد اللوح الخشبي يوضح منفصلاً. كُتِبَ بالحائط بمنفصلات بحيث إذا سقط عليه بقمعي عد إلى العائذ ولا تكون هناك أية امكانية أن يظلم اللوح فيهرب الخار فئران صغيرة وبيضاء أيضاً لها بطون حمراء لم يثبت بها شعر بعد ولها أصوات حراصير. أين الفئران التي ظلمها وكيف تتركها تأتي إلي وكيف لا تدرك أن أطفالها يقتلون كل يوم؟ القيلة داهمتني الفئران للكبار. أنت اسماعيل خطر موسى. أنا.. فإذا تقبل أبحاثنا وأخوتنا الصغار كل يوم دون وجه حق. أنا لا أقتل جرافة، أنا هنا غريب في بلد غريب أحب أن يستأنس ضيوني في السور على وأخوتكم وأبنائكم يقتلون نومي في الليل والنهار أنت كاذب لأنك تكذب النوم. لكن النوم لا يكرهني ويغلبني في كل نزال فتطلقني فترامكم. هل تريدونني أكلها؟ لقد سددت أسفل الباب وكل الفئحات التي يمكن أن تدخل منها لكنها تدخل. أنت لا تقتل الفئران فقط ولكن تستخضم وسيلة بشعة. وأنا أبيع للبشاعة شعراً من التفريز. أنت خائن للطير والحيوان معاً. لنحن الفئران لسنا من هالككم لكن بيننا وبين الطير والحيوان مودة وصلة. الحيوانات تكرهكم والطير. القط مثلاً. يأكلكم والعداء أيضاً. ليس للقط ولا العداء. أنه الجوع الذي يفسد الأخلاق. انظر إلى البعوضة كيف لا تأكلنا. البعوضة وبيعة. وأصدقائنا من هذا الصنف كلهم منذ أناد أبونا البعوضة المطوقة من شبكة الصيد هذه خراقة كتب. هذه حقيقة وأنت لا تدري ولا بد أنك لا تعرف أيضاً أن الأسود تحبنا. الأسود المقرسة ذات الهيبة والكبرياء. هذه الكاركم فلا هيبة ولا كبرياء للذي يعبس على ما تجمعه له زوجته من طعام. هذه

واحدة، والثانية أن أبانا الفارخ أخص الأسد يوماً من شبكة الصيد أيضاً. إننا معشر الفئران قد نكون نلهمين لكننا مثل كل شيء صغير في هذا الكون لنا فائدة، وأنت جاهل لا تعرف أن الله خلق الكون متوازناً لا يحق لأحد أن يفسد توازنه. هذا كلام فارغ لأن الجرائم مغلطات أيضاً لكننا نظارها ونقتلها قبل أن تقتلنا، وأنتم جناء تعملون الفحل فتنتشرون الطامعون الذي قتل «أبو عبيدة بن الجراح» في الشام وأهلك جيوش نابليون في فلسطين ودمر نصف المصريين أيام المماليك والآن تقتلون الزرع في مصر وتقتلون الأطفال في الريف وتنتشرون الأمراض في مدن القنال التي ترهصتم في حرائبها قبل انتصارنا وكانكم بالفعل لا تريدون أن يكتحل انتصارنا أنتم عدو لي وأنا عدو لكم إلى يوم الدين إذن لا فائدة في الحوار معك.

والفرت نوالي الفئران السوداء فططت جسمي كله، فطعت فزماً إلى السطح، ووجدت واحداً منها بين النوح الحشبي والمخاطط فدهسته بوحشية فائقة.

فجأة ففكرت ان مرض امي ليس عادياً. لا اظن ان هناك حاجة إلى ذكر المرض العادي في خطاب. وحينما وصلتني رسالة من أخي يطلب فيها قلب جنين في أسرع وقت. قطع أشك اليقين. لكنه لم يذكر نوع المرض ولا الخطوات التي اتخذوها للعلاج. كنت بالقاهرة منذ شهرين. وكانت امي في أحسن حال. صحيح انها تجاوزت الخمسين. لكن هذه ليست السن التي تفتال فيها الأمراض صاعبها. صليحة امي هل أمراض العجز والشللوية. كانت صليحة دائماً على امي. هل كان ذلك سبب الشجار الكثير بينهما في الأحياء؟

كتبت إلى أخي ليعلمني بالماضي. ولوسلت إليه من الجنيات قفسين. وانتبهت إلى حديث البلدة الذي وصل إلى مكاتب الشرطة بوسطه الباكستانيون منه. ريمسك عابد. ريمسك نبيل كليته في بعضهما دمهنة.

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟

- ليس غريباً على كل حال

- يعني لو ضربتني أو ضربتك على رأسك يلفد أحداً الرمي

ويستطيع الآخر أن يفعل به ما يشاء؟

- قديماً قبل اكتشاف البنج، كان المريض يدخل غرفة الطبيب فيخرج له واحد من خلف الباب يضربه بمطرقة خشبية على رأسه وبعدها يجري الطبيب العملية.

تحمس نبيل رأسه ويصيح:

- لكننا ضربه بالهالة التيستول؟

- الحلة لتلك من المطرقة.

- وخصتي؟

- هذا ما يدق.

- هل يمكن أن تفعل امرأة ذلك؟

- الفخية قلقة.

ويضحك نبيل.

- لقد ذهب المسكين إلى المستشفى فوجدوا إحدى خصيتيه معلقة في بنطالونه.

ويستكتا.. وقام وهو يقول لجاء.

- لقد صافر منصور أمس إلى الكويت. وهرب من عروسة الكبسة. بخيل. لنا اعرفه جيداً.



لم يعد إنس في العمل أحد أتحدث معه غير نبيل.. «فهاج» الذي صار مسؤولاً عن التغذية في الكاسب يأتي، وينصاع هابذ لكل طلباته بسلامة وأتذكر دائماً لرشد وهو يسمي:

«لماذا يفعل هابذ بي ذلك؟» تمنيت لو نطق هابذ وفهاج. لو

خالقه، وعلى له مطعماً. يبدو أنه يعرف ما يريد. ودائماً أتذكر حاجة
لرشد وبصيرة وقلة حيلته وتمنيته أكثر من مرة أن لرى أرشد
داخلاً لجانة، غيرة لرشد تنتهي بعد ثلاثة أشهر. تبقى له الآن أيام
قليلة. هل يعطها أرشد ويعود؟ لا أظن. أشاع، شَرَّه، حبر القيص
عليه لأسباب سياسية، ولا أظن أن له فرصة في العودة أبداً
بمستطاع أرشد أن يسافر بعد سجنه إثر أي بلد إلا المملكة
ويستطيع أرشد أن يحلم في سجنه بأي بلد إلا المملكة لا بد أنه
نسي الوقت الذي أمضاه هنا ولا بد أن سعيد بفعل الآن نفس
الشيء. ومنظر أيضاً والمراة البناتية الصغيرة والدكتور أحمد.
وداقت وهليلب المسكينان اللذان لا حاجة لهما الآن إلى التذكر لو
التمسيان

الطبعة غريبة تحدث بين العائنين إلى بلادهم وبين هذا البلد
منذ البداية تبدأ القطيعة فلا أحد يلتقي هنا إلا ليعود. هل يعرف
اليماني العجوز ذلك؟ أنراه يبتسم لي لهذا السبب؟ يسفر من الأمر
كله ويرى الدنيا حوله مهزلة؟ ما بلاءه لا يظهر الآن؟ سألت عابداً
عنه أمسى. فابتسم وسألتني:

- هل يهلك أمرو؟

- فقط أمسى.

وهز كتفه بلا مبالاة

- انيسر هناك طريقة للاتصال بها في الدمام. انيسر لديكم رقم
التليفون أو العنوان؟

سأنت وردة التي دُعيتُ إليها في المستشفى بعد خروجي من العمل.

- من الصعب عليك أن تتصل بها في الدوام. نحن لا نعرف بالضبط في أي مستشفى تعمل هناك

.. . .

- ألم تكن تكتب لها؟

- كنت أكتب .

- ألم ترد عليها؟

ولم أزد عليها. قمت وصانعتها ومليت.



كرويت العودة إلى البيت . كرويت صيد الفئران. إنني أغسل الفروج الخشبي كل يوم بالعصاير والسافلون. لا رائحة نفاثة في المطبخ حقاً لكني أضعها في الغطاء فكرويت جدياً أن أبحث عن شقة صغيرة في صارة. سنكون قريبة الفئران أقل البيوت العربية الطراز لا تزيد عن أحجار في طريقها تتصلقها لوتامر من تحتها ودخلت الشارع العام بسيارتي أحسست أنني بحاجة أن أرى عربة الشرطة تطوف بأحد. أي أحد

ودليت نفسي أركب حماراً ورجلي إلى الخلف وهو يمشي إلى الأمام. ويضعك القلس على رجل ونساء. ويلتفتني الأطفال بالأحجار. ولولا أنني سمعت نذر السيارات لأصطدمت بالسيارات أمانتي.

سمعت أن أوامر صدرت بإلغاء التشهير بعباد الله في الأسواق..

من الذي فعل ذلك رغم حاجتي اليه الآن. تركت سيفراتي ومشييت.
ذهبت أنا الى بيت سيد الغريب. لا بد أن أتحدث مع أحد.

- أمشي -

هتف الشرطي لي رجعي

- أمشي -

انشار إلي سيد الغريب بيده من الشرفة التي يجلس فيها.

- ليكن واقف؟

- هل بضايقتك ولقولي؟

- بضايقتني قلت لك أن تمضي.

- أين لذهب؟

سأكت الشرطي فجأة مدد مشاً ومرتبكاً.

- لو لم تمضي وضعتك معه في البيت لا تخرج منه

مشيت. عدت إلى الشارع العام. واشتريت الصحف والمجلات

قابلت صالحي في الطريق فتجاهلته وتجاهلني ما كان يصبح خلفي

حتى وقف وناداني. وقفت. وعاد إلي

- أريد أن أعطيك هدية يا استاذ.

لم أريد

- أعذرني إذ لم آت لأعذر اليك بعد تنازلتك عن التشكوى

بالشرطة.

ولم أرد.

- تبغي بطانية جلد ثمر؟ استطيع أن أرسلها الي بيتك الجديد.

مرتاج يا استاذ في البيت الجديد؟

- الحمد لله.

- حيال الله يا استاذ -

وتركتني. وعلمت الشمس فوقى شديدة الوهج تلك نحرى
البشرة والشارع العام صار مزدحماً بالبيضاتج. وبكتبة خالد
أخو واضحة مظللة. خالد شبيه واضحة لولا الشارب الصغير
والفترة البيضاء والعقل ولا لثرى الشارع للحريق الآن.

ركبت سيارتي ورأيت الأشياء تجري الى الخلف. كل شيء يستعد
منى إذن وليس لي الآن إلا انتظار خطاب واحد من أخي يعلن فيه
شغفه أسي ورأيتها تجلس جوارى. بالسيارة توثت على كتفى.
لا تترك يا اسماعيل.

ونسختُ دعوى بيدها الباردة وحطقتني وخرجت بي من زجاج
السيارة ووضعتني فوق السرير الصغير الأبيض وحطقتني بالغطاء
الأبيض وجلست جوارى رأيت تضع فوق جبهتي منديل مبللة بالماء
البارد وسمعت أذان المنجر. الحمد لله راحت العوارة يا ابو
اسماعيل الحمد لله وانحنى أبى يلىنى. قل هو الله احد الله
الحمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد. الله الذي لا اله الا
هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في
الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين ايديهم وما
خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء روسع كرسيه
السموات والأرض ولا يؤذه حفظهما وهو العلي العظيم

اللهم خذ مني لصعته وعافيتي وارزقني برزقه وامطني العمر
لأرى ذريته. اللهم إني شكوت لك همى بغليل وتعبي بالتهار
فاستمع لي وقررتني منك وخذ بيدي في ابني يا علماً بهدي يا غفور يا

تواب يا رحيم اللهم إني تذرت أن أصبح على باب مقام سيدي إبراهيم الدسوقي كبشاً وأعود وأذبح عن باب بيتي كبشاً فاشف لي ولدي اسماعيل اللهم اشف مرضانا وارهم موتنا ولا تجعلنا مع الظالمين.

والمنتجن يا أم اسماعيل" بخير. شفيتهم؟ شفيتهم نعيمين وكويسين. شُفري عليهم يا أم اسماعيل. شُفرت قلت لك خلاص ما تزعطيش حلك مني

ويطو نعيم السيارات من كل جهة.

- ليش تلف وتعتل الطريق؟

- آسف

- مُر بسرعة.

مررت بسرعة وكل ما أخذته من البنزين الأكبر مني صار مني أن أبلغه لسناء وبهاء الأصغر مني. صُنُرُ الطرقة كان لي واللحم الأحمر والبيض ذات الصغارين وزجاجة الكوكاكولا كاملة ويطائر السمك والفضاء الأزرق يكبد الطيور ومناليد البيض الذي لم يكتسل في بطنها والماء الساخن في الشتاء والصابون أبو ربعة والسلاخير الساعمة ورحلات المدارس وزبارة الحدائق. فلما كنت أحب دائماً من أبي أن يذهب بي إلى محطة السكة الحديد أخرج على القطارات الداخلة والخارجة وحركة الناس ولحزق الموسيقى في الميدان أمام المحطة" ورايت صالح مشهور الثقيلي يقف أمام الباب ومعه صاحب البيت..

- السلام عليكم.

- يا هلا

رد علي صالح بصوت بارز وابتهامة واسعة والتي شديداً في عينيه
بينما غنم المالك العجوز بصوت لم اسمعه.

- خيراً.

- خيراً إن شاء الله. امتهج لنا ندخل يا استاذ

رد صالح بثقة غريبة كيف وصل الى هنا قبلي وقد رأيت منذ
قليل في الشارع العام، وكلمني دون أن يشعر لذلك.

فتحت الباب، واتجهنا الى غرفتي. ولم اشأ أن اطلب منهما
الجلوس، لكن صالح جلس على حالة السرير، وجذب صاحب البيت
من ذراعه يجلسه جواره، وتكلمت أنا والفا.

- لا تسو لنا شيئاً ولا قهوة يا استاذ. سمخرج بسرعة.

...

- طبعاً أنت استاجوت البيت عن الشبهة هذا الآن انا اريد
البيت.

- أي بيت؟

- هذا.

- لكني استكنه.

اعرف يا استاذ أنا التشرينه من الشبهة. واشتريت الذي
يجاروه. سأنزوج في هذا واحد الثاني وأعطته حديقة. سأزود
اشجاراً مصرية. سأعطي مهلة شهر يا استاذ تبحث عن سكن
آخر. تكلمي هذه المرة.

- تكلمي.

ولم أشأ النظر إلى أحدهما بعد ذلك. لا معنى أن أسأل اناك

الأول من صحة ما سمعت . لم يصعب صالح ليتكبر أو يكذب . لقد اشترى صالح البيت بحق وعز أن أتركه . سواء تزوج فيه وهم الذي يجاوره ، أو تزوج في الذي يجاوره وهمه ، أو هم الاثنين معاً ولم يتزوج .



أكلت بشهية لا أذكر أنني أكلت بمثلها منذ أن أتيت . شويت كمية غائلة من لحم الضأن والكبد ، ورحلت لثمنهما وأنا واقف في المطبخ ودين خبز استطع اليوم أن أكل خروفاً كاملاً .. جملأ لور لروت . وربما خرجت إلى الطريق هائجاً انبج كل من يقابلني ولشويه وأكله . احتاج الآن إلى نوم كبير .

تعددت فوق الممرير . وأمدت يدي تمسك بمجلة معا لثقيته من قبل على الأرض قريباً من رأسي .

«جريمة تهزلهما الملكة . ثاني حادث من نوعه خلال شهر . فتاة في السابعة عشرة تضرب زوجها على رأسه بأنية الطبخ البريستول الثقيلة ثم تخصبه . الزوج المسكين مات من الصدمة حين لحاق وعرف ما حدث له . الزوج ع.و.ع . ع من البالغ من العمر سبعين سنة . والزوجة الفتاة الصغيرة هي ر.س.س من الرياض . وهي المعيدة في المدرسة المتوسطة .»

ولقبت المجلة مجنوناً أن يريد القراء

وصلتنا أكثر من رسالة عاجلة بالتليفون تسأل هل ر.س.س من صاحبة الرسائل المذكورة إلينا هي الفتاة . وإجابة بالنفي . ونحن نطمئن قراءنا الاعزاء إلى أن حديثنا و.س.س من هاتفتنا بالتليفون

بعد الحادث تسأل هل أصبح ستفوم حكومة الخميني في طهران باعلاق المدارس والجامعات وتعود إلى التدريس في المساجد. والعقيدة انه لا إجابة واضحة لدينا حتى الآن. ونحن مثل صديقنا نستمع لكثير من الإشاعات عن حكومة طهران الجديدة. لكن المؤكد انها مشغولة بتخليص الحكم لنفسها من المعارضة وأعوان الشاه القديسين في البلاد. والمؤكد أيضاً أن الحجاب عند يظهر لحوّل رجوة النساء في سائر بلدان إيران. وهذه خنة محمودة للحكومة الجديدة نرجو أن تنتهيها خطوات أخرى في طريق الدين الترشيد وأنا الذي رأيت دكانة خالدة مغلقة منذ ساعات بالسيول ففرت من فوق السربير. ودخلت في ثيابي. واندفعت أركب سيارتي أسرع بها عن الطريق القديم من الشمال. واسعة واضحة ولا أحد فيها. ورجعت أتهب الطريق غير مبال بالفراغ الواسع المريب حولي. ولا بالظلام الزاحف ضارباً قلب النساء وهناك. بعيداً بعيداً وأنا اقترّب من حافة مصاره. بوابة الحديد مع الأيمن. لمركت أنه لا بحر قزويني في غربي لا ألقي بنفسي فيه.

٢٨

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل
في فلك يسبحون...

عائد الى حيث جئت لا سعادة بغير شيء القربت منه ابتعد كيف
نسيت ان اكون مرآة لاسعة تنزل في ليلها حبات المطر؟

الليل والنهار ورجل واحد بينهما هو انا. الليل والنهار سألهما
العرب المثورين لأنهما يملآن الأفق نوراً وظلمة. كيف ترى حقاً في
النور الصالح وكيف ترى في الظلمة القادمة؟

الليل والنهار سألهما العرب بالجديدين لتجددهما بالضياء
والإفلام على القوام. لا شأن لهما بأحد. لم يفت النهار معي مرة
بعد ثني ولا الليل فعل. سمي النهار نهلاً لظهور ضوء الفجر بجري
كالنهر من المشرق الى المغرب معتزلاً حتى يأتي على الظلام. معركة
بخوضها كل منهما مع الآخر ولا شأن لهما بأحد يفت ثمتهما أو
بينهما يحل على النهار الآن فأسرع الى العمل غير مصدق اني نعمت
وصحوت وان الليل انقضى. وأعود اريد في نفسي ومن شر غاسق إذا
وقب. خوفاً من شدة ظلام الليل. ودخوله كاسعاً بلا هلال ولا بدر

ولا نجوم. واختلطت على أيام الشهور، ورأيت أمي يخرج قبل المغرب
يبحث عني في الشوارع لأدخل البيت قبل الظلام، ويقول عن
الرسول جنبا صبيانكم قصة العشاء.

سمي العرب الليل بالكافر لأنه يستر الناس. فالكفر هو الستر.
والكافر يجهل نعمة الله ويستترها، والكفور هي القوى الثانية عن
الحسن. لأن ساكنها يغيب عن جمهور الناس ويستتر عنهم.
والرسول قال: لا تسكنوا الكفور فساكني الكفور كساكني
القبور. وتبوك بعيدة عن حواضر المؤمنين، في مصر آلاف الكفور

أرى الليل الآن كتللمات في بحر لهي يشاء موج من لوله موج
من لوله سحب. ظلمات بعضها فوق بعض، وأخرج يدي فلا أكام
أراها. وكل ليلة أنتظر النهار، وأنتظر معه شيئا يحملني إلى مكان
آخر شيئا لا أدركه كنهه، وإن كنت أعرف أنه ليس رسالة من أحد



عاد منصور من الكويت ولم القابلة أخبرني نبي أن يوم
الجمعة سنتم وليمة الكبسة التي رعدنا بها منصور من قبل ولم
يشمها سنكون وليمة ضخمة، قال نبي. وسجراتنا منصور لأخر مرة
إذ سيسافر مرة ثالثة إلى الكويت ويبقى هناك، سيتزوج المصرية
التي دوطقت. مسكين منصور وإن ليهوى المصريين، وضحك نبي
وسألني لماذا أنا متدهش.

كنت أكره كيف يتكرر سفر منصور هكذا وفي وقت قصير. لا بد
أن مسألة زواجه من رداء لم تكن منتهية كما حاول أن يفعلني آخر

مرة. لكن لماذا لا يلتني إلى العسل بالنهار لأراءه؟ لذا يرسل إليّ نيا
الوليمة مع نبيل؟

فكرت أن اتخلف عن الحضور، ووجدت أنه لا معنى لذلك. الآن
انتهت كل أصرة لي بشي لو أحد. ضاعت عبدة في الرمال البعيدة،
وواضحة هي الفاتكة، وسينفذ فيها القصاص بالسيف لا محالة.
ولا يعني أن و. س. حر لا تزال ترسل أسئلتها للصحف من كل
المدن، فمنذ أيام لا اشتري الصحف، والبيت الذي سيأخذه صالغ
ليهدمه أو يعمره بامرأة وأطفال ليس فيه ذكريات، وفي الذاكرة
البعيدة الآن يذام كل من عرفتهم رغم قرب الزمان. ها هو، إله نيوك،
السحري يعود إلى جعبته يطلق منها عز روي سهام النسيان. ها
هو الفعج، يثر كل وقت صارخاً أن البلاد غير البلاد، ويهأ أخى
أرسل يقول إز أمي صارت بخير. لم يظف نفوذاً أخرى ولم
يحدثني عن تفاصيل المرض لقد شفيت والسلام. سأحضر إذن
وليمة الجمعة.



دائماً كنت اعتذر عن عدم تلبية دعوات وجيه وسعيد لي
بمصاحبتهم مثل هذه الولائم الآن أشتاق إلى حضور واحدة
منها. لم أشتق إليها يوماً والآن استعد لاستقبالها فرحان. هات
نوحى بعد يلتني بانقطاع كل الحال ربما، وربما لأن صاحبها
منصور

أحسن، وبأ لغاية هذا الإحساس الفاجيء. لني وقف على باب
لنطائرة وهواء المكيف في ظهري. ووجهي وهندري يواجهان

الشمس، واخطو أول خطوة دون أن يدلفني إليها أحد، هل سأعود مرة لأمة؟ عليّ أن أعرف جيداً كل ما لراء. أدقق في تفاصيله كمشتري حصيد، وأشرع في كتابة المذكرات التي تجعل ما يحدث لي لا يحدث معي. المذكرات تعني الوصي، الوصي يعني هزيمة الوجدان، ولا يأتيني الحزن بعد ذلك، لو أتذكر الكاتب التخييل الذي قال هذا الكلام آه، كل الكتاب خبثاء، وكل القراء الجبناء يجدونهم فيعيشون حياة غير حياتهم. سرقة مع سبق الإصرار للوقت والعمر الجميل ولا يشكو أحد. الحد قليل إنه حين نشر غرته ألام غرتر انتحر مئات الشباب في ألمانيا الرومانتيكية التي هناك نابليون عرفها بقوة، قتل غرته شباب أمته بكتاب صغير يكنى في كتابته مرة أو مرتين، واحتاج نابليون إلى جيش لقتلهم ولم تنفذ أشعار لوركا جنود الجمهورية الذين حملوها في جيوب ستراتهم جوار قلوبهم. وفي زيارتي الأخيرة للقاهرة مات صلاح منصور، صاحب العينين اللامعتين، ترك فواشه وولف جوانه بلقي مونولوج هائلت الشهير، وما أن قال أكون أو لا أكون حتى عاد لينام فوق الفراش. ثم الأبدية.. ترى كم قتل شكسبير بأمره الوسيم طوال القرون الخمسة الماضية. ولماذا أتعجب بعداً هكذا أنا اسماعيل خضر موسى الذي يعلق دائماً للحقائق بعد فوات الأوان؟ شيعني أحمد عاكف ونجيب محفوظ، صدقتهما فقتلت «أمل». أجل، قتل عدد هو عرفت ما لم يعرفه أحمد عاكف مبكراً، أنا لن أنوز بشيء، ظلم أيضاً إرهاباً ظلي وتعطيم قلوب العباد نجحت في الأولى وانخفضت في الثانية فقتلت من حيث أردت الحياة حتى الكتابة تراث من أجلها مئات الكتب إلا أدب الكاتب والكامل والمبيلز والتبيين، ثم تركت الكتابة أيضاً تنسل من قلبي إلى قدمي إلى الطريق بدوسها

النسيان ويغضوها الصدا. هل كنت اعرف اني ساصل إلى هذه النهاية، أم جئت هنا. على هذا المعد. لأنقصي الأسباب: يا الله، هنا. على بعد مئات الأميال من كل ما هو القلب أو تحجر أمامه. هنا. والآن، اكتشف اني استطيع العودة واكتب. لكني لا أريد أن ادمي قلبي. أنا كاتبتي وأنا قارئي فانا ذاتي لا معالة إذ ستصل الخدمة إلى العلية رغم اني اكتب المخدع الخبيث. إنني فلاشروع في كتابة المذكرات حيث يطلق العقل عن الوجدان فلا يندفع الدم بين القلب وبقية الجسد.



ولم اكتب المذكرات. ولا يبدو اني سكتتها يوماً. وعاد الليل
الثقل.

في الحزن يطول الليل فلماذا يطول الآن وقد تقطعت بيني وبين كل شيء هنا كل أصيرة ليلي ثقل من المسخف نشأ. ليلي مقبلة لي تكراره لكنني وصلت إلى صباح الجمعة، وانتظرت في البيت حتى انتهت الصلاة، وتعددت، واستلقيت فوق السرير اتابع برامج التلفزيون لينتقلني قلق مفاجيء، فانا أريد بعمل حضور الوليمة. وكائن التلفزيون كريباً معي. بدت فيلماً كثيراً عن حرق السفينة بورابزون. أنا لا اعرف شيئاً عن هذه السفينة، وما إذا كانت قصة غرقها حقيقية أم لا، لكن من منا لا يتجذب إلى هذا النوع من الانسلاخ الذي يصور الناس في مأزق كبير، ويجهل أماننا وإرادتنا الإنسانية في القوى صورها. ويعرض صور الصراع بين التطور في لحظات الضعف والنوة كل هذه الانسلاخ يعرف المشاهد نهايتها انني لا تخفك لتنتهي دائماً بالنجاة اعرف ذلك أنا ايضاً. ولكنني

لسام السينا تحول الى طفل بريء مأخوذ ومفتون. وكان النوم
ليلاً كريماً معي. ما كاد الفيلم ينتهي حتى نقل رأسي، وانفصل
عني جسمي. ورايت مرة اخرى مجنن هاكساز. القسيس الرديع
الذي يعط راكبي السفينة ان لا ينسوا رحمة الله ولم يفسد رغم
سخرتهم به حتى إذا بدا انه لا فرصة للنجاة بعد أن بذلوا وبذل
معهم. جهداً خارقاً، يهتف في غضب وخيبة أمل نحن لا نريد
مسامحتك، فقط نريدك ان تكف عنا. أن نتركنا نواجه ما يحدث
موز ندخل منك لأجلنا لو علينا. فاجلني أضحك من يأسه وحيرته.
ولما صعدت وجدت التلفزيون بيت برنامج مجلة الاسبوع،
واتنبا غلام. فاسرعت كالمذوق بالخروج. وركبت سيارتي منطقاً
إلى الشركة خائفاً خوفاً الموت أن تكون الوايمة قد فاتتني



الترت فوجدت عدد كبيراً من السيارات تطف أمام باب الشركة
من الخارج. سيارات كايريس وموسيدس وكاديلاك وبيجو. وبينها
تبرز سيارة عم عبد الله الكاديلاك البيضاء. وجوارها سيارة
موسيدس سوداء ذات ستائر داخلية خلف زجاجها. ويرتفع وسط
سقفها. تماماً كسيارة عم عبد الله، إيريل إرسال واستقبل.

تركت سيارتي نصف النقل القديمة بالخارج. ودخلت على مهل
الكر من با نري دعاء منصور إثر التولية الثيلة

كانت الأضواء تكاد تُشعل المكان وسط غشاء واسع من الظلام.
وكانت لبات أضواءية قد وُضعت حول سور الشركة. لهذا الأمر كان
عرس بquam وسط الصحراء.

دخلتُ إلى الباحة، فشد صيني مشد الجالسين في صفيح متقابلين من أهل البلدة، يتعسرون عم عبد الله الذي رجع في وجهه ثم تماللتني كمادته، وجواره شخص أسود الوجه، يرتدي فوق الجلجباب عباءة سوداء مخروزة بفصيص الذهب، وبنوق ولسه غشقة خضراء متقاطعة خطوطها الحمراء، رجع في هذا أيضاً وحبب وانشغل عني، وأنا ترددت في 'الانتراب' منهم. كلنا يتكلمان ويضعكان. ويظهر تبيل قابلاً من ناحية اليوفية يحمل ابريقاً وكلساً ويترجى في صمت ناحيتهما

لمعت عابداً يتحدث في التليفون في غرفته، فتقدمت إليه اشعر بالارتباك في خطراتي وعز وجهي. ما إن دخلت حتى استلم لي وهو يضع السماعة وقال:

- مفاجأة! اليس كذلك؟

- من كل هؤلاء؟

- هؤلاء شيوخ البلدة، وكبار موظفي الإمارة، يتوسطهم عم عبد الله والأمير.

- هل هذا هو أمير تبوك؟

- أتم يصدق لك أن رأيتك؟

- أجل.

- انه شخص مهذب جداً تعامل سلم عليه

وقبل أن اتكلم الفذني من يدي، ولم أجد الفرصة لأقاوم من خوف غريب استبد بي، فتركت له قلبي. ثم سحبت يدي من يده بعد خروجنا من باب المكتب. لا يصح أن يبدو امامهم أنه هو الذي يدفعني لمصالحمتهم

لم يقدمني عبيد الى أحد بالطبع. اقترينا من الأمر فتركني.
واشترك بالعمور الضاحك مع أحد الشيوخ. واندفعت أنا خلفاً
من المؤلف كله أصابع عم عبد الله أولاً. اهلاء قال في القنصل.
وصالحني الأمير مد الي يده وهو جالس، وقال عم عبد الله.

- هذا اسماعيل. يعرف الانكليزية جيداً. يمكن أن تستفيد منه

في الاملة

- حقاً؟

سأول الأمر دون أن يبدو أنه تكلم لو عرك شفتيه. وما كنت
أرد بالإيجاب. حتى هز رأسه مرتين مغمضاً عينيه. وبدأ أنه
انصرف عني بذهنه. ووجدت نفسي أصرع بالاتجاه إلى البيوتية دون
أن أستمع في مصافحة بقية الجالسين.

جلست على المقعد الوحيد ارنجف. شعلني الخوف الذي لا
أصرف مصدره. كيف حقاً أرسل أخي يقول إن أمي شفيت من
المرض دون أن يذكر لي مرضها وطبيعته التي استدعت أن أرسل
إليهم كل ما أرسلت من نفود. وفكرت كيف أن البساط الأحمر انشد
بين النصفين من الشيوخ. يمتد أيضاً إلى ما بعدها من الجهة
المقابلة للأمير. وادركت أن العمال الباكستانيين لا يسمون أيضاً
للحفل رويما دعا منصور الأميركان. أين إذن سيكون مكاني؟ ليس
عامي إلا انتظار بقية المدعوين لأجنس بينهم. لا أستطيع الجنس
بين الشيوخ وكبار البلدة. لا شيء لدي أقوله لأي منهم. ولا سابق
معرفة لي بأحدهم. ولم أت للصمت والأكل. لا بد أن يحدثني أحد.
وعابد سجودها فرحة ليتحدث مع كل الشيوخ عامي. ويتبادل
معهم الضحك وكلاماً لا أفهمه. لن يتحدث عابد لي بكلمة منذ الآن.

ونبيل مشغول عني بتقديم الشاي والقهوة العربية حتر باتي منصور وطعامه.

ودخل نبيل البوابه وقد أحمر وجهه بشكل مشي.

- ويك يستر.

قال هامساً. وسأله

- أين منصور؟

- سيأتي بعد قليل وسعه عربة محملة بالطعام. سيظهره في
البلدة في بيت. هكذا قال. لماذا لا تخرج وتجلس معهم؟ فرصة أن
تتعرف عليهم؟

انصمتُ تركني وحمل إبريقاً آخر من الشاي وخرج هل
استطيع أن أتعرف الفتلة على كل هذا العدد من الشيوخ والكبراء
ذوي الأثر المبرجة، والعباءات المصفاضة، والوجوه النضرة ذات
اللسن الصفيرة اللامعة؟ وبقيت جالساً في مكاني. إلا أنني حركت
القدم بحيث أراهم من خلف الباب المفتوح ولا يرونني. وبدأت
هابداً لا يكف عن المرور حولهم. يلف يتحدث مع واحد لحظة.
ويضحك مع الثاني، وينحن يلبس رأس الثالث، وأحياناً كلفه.
وترتفع أصواتهم بكلام لا أفهمه. وكثيراً ما يضحك بعضهم، وأرى
الأمير من الخلف لا يهتز ولا يبدو أنه يتحدث

كثيراً ما تحدث وجهه وسعيد أمامي عن «الكبة». قال إن الأكل
ليها يكون بالأيدي باليد اليمنى فقط. لا يصح استخدام اليمين.
اليمنى اليمنى تنهش من لحم الخروف الصغير المشوي. الموضوع
كله فوق حبيبية الأرز الكبيرة التي قد يصل قطرها إلى انش. والأرز
كثير عالي. أرز غارق في السمك. مخلوط باللوز والزبيب والصنوبر

والفستق. وعلى الواحد أن يأخذ بيده الأرز الساخن، ويضغطه في كفه قبل أن يذهب به إلى فمه، وكلما ترَّ من يده النسم، كان دليلاً على كرم صاحب الرئاسة، وهذا إذا وجدت ملائق أن تستخدمها. الملائق لا تظهر إلا في حالة تقديم «السلطة» مع الأكل. يكون عليه أن تعمل السلطة باللعنة، وتلقي بها فوق الأرز ثم تترك اللعنة، ويبدأ بعد تناول السلطة معاً وتكررها لتأكلها. ومن مراسم الكهنة أن لا تبدأ تناولها إلا بعد أن يبدأ كبير الجلسة، وكبير الجلسة اليوم هو الأمير صاحب العينين الصفتين المدفونتين تحت جفتين عاليتين. على أن أن أراعي كل هذه الآداب.

رسمت ضجة عالية خارج الباحة، ثم اندفع العمال الباكستانيون إلى الداخل يحسون ضاحكين، ولحظة تولفوا مصعوقين من رؤيتهم للشيوخ والكبراء صار بعضهم يُعذّر القادمين مندفعين بعده. وبعضهم خرج بسرعة يحذر القادمين من الخارج، وتوقفوا حائزين لا يعرفون ما يفعلون. فتقدم عابد إليهم وأشار إلى الناحية الخالية حول البساط الأحمر، فراحوا يجلسون في صمت، لكنني لوي على التهد وجوفهم التي اشتعلت احمراراً. عاد نبيل إلى البوابة أحمر الوجه أيضاً.

- لقد تأخر منصور كثيراً

لم أرد. كنت أتابع الصمت الذي ران على الجميع. للشيوخ أيضاً وعابد الذي خرج يلف عند باب الباحة قلقاً. وكان الضوء في الباحة شديداً ونسمة من هواء منعش هبت علينا، وبدأ لي كل شيء طيباً ندياً، لكن لخاضني الظلم قلت لنبيل

- هل تراء لا يأتي؟

- لا اظن لقد دعا الامر كما ترى وشيخاً كبيراً. انهو ايضاً
يجلس هنا الا تعرف؟

هزرت راسي بالفتي فقال

- صدحبت العناية البنية.

نظت انتظر حتى رايت في الصف المواجه لي. شيخ هرم انفض
عينيه واغلق فمه. ويكاد رأسه الذي يهتز يسقط على صدره من
التعالي.

- لكن لماذا تبقى هنا؟

فاجاني نبيل بالسؤال ثم قال:

- يجب ان تاخذ مكانك الآن. سيلطن الناس إلى قلبك وهذا
عبء كبير. ما دمت حضرت فعليك بالجلوس معهم.



لم يكن هناك مكان لي إلا الصدارة من الناحية الأخرى المطالبة
للأمير وعم عبد الله على جانبي وأمامي صفوا العمال الباكستانيين
بنشعمان بصفي الشيوخ.

من الممكن ان يجلس عابد جواربي. ومن الممكن ايضاً ان يشع
المكان لمنصور لا بد ان يجلس منصور في الصدارة حين يأتي.
فأكون أنا على يمينه وعابد على يساره. أما نبيل الذي لم يجلس
حتى الآن. فلن يجلس سيكون عليه اعدادا الشاي والقهوة
للقديما بسرعة بعد الاكل لكل هذا العدد ربما يأكل نبيل معا
يتنلى يتنلى دائماً الكثير يأتي به للقطر فتصير نمروراً وتحسدها
الكلاب الطريفة المسمومة من دخول الحواضر. القليلة مستعد

القطط الكلاب إذ سيُلقى بها نيل في الصحراء.

جاء عابد صرعاً من ناحية الباب، وطر جوارى وهو يقول:
موصول الطعام.

كأن بهتز ارتعاشاً لا أعرف لماذا. وكان يتشم، وإذا راحت عيذاي
تذملان الأمر الذي بدا لي قصيراً سمياً لا يكاد يرتفع رأسه إلى
أحد.

• باتخاذ الآن سيطرة نصف نقل ضمن صواني الطعام نكن
منصوراً لم يات منها.

قال عابد لي والخوف يكاد يفلز من عينيه وتضمت حقاً رائحة
السمن تتسلل البنا في الفضاء ثم دخل من الباب مثنين يحمل كى
منهما صينية مغطاة بطبقة شام بيضاء، ورفقا حائرين فتقدم
نبيل منهما، وأخذت ناحية الأمر. فوضعا الأولى أمامه والثانية
بعدها بقليل. وعادا مسرعين إلى السيطرة بالخارج وحذب نبيل
ثلاثة من الباكستانيين فقاموا على الفور. وراحوا مع البهنيين
يجعلون الصواني المغطاة بالشفاف الأبيض، وأمثلا الفضاء
برائحة الإدام. وخرجت أطراف الألسن تمر بين الشفا. وتحركت
المتاجر صاعدة هابطة باهتلاح اللعاب. وراح المذبح يتحدثون
عن عدم حضور منصور ويضحكون. وترنح لصواتهم ثم
تخلفى. ويشيرون إلى أبي الذي يفتح عبيه ويتكلم بصوت لا
يسمعه أحد ثم يعود يغالب التعلب. وتعلل الأمر. لكنني أبركت
من الحوار الذي تبادلته معه عم عبد الله. ومن صحكهما الهاسر.
انهما لن ينتظرا حضور منصور

رحلت أعد الصواني فاكتملت عشرين. ووقف اليمينان حائرين
بعد أن عاد الباكستانيون الثلاثة إلى أماكنهم. لكن نبيلاً أشار
إليهما أن يبقيا عند البوقية فاستنلا. وخط عز الدنيا صمت. ينتظر
الجميع الآن أن يبدأ الأمير، وأنا انتظر أن يقع فوق رأسي حجر من
السماء. واكلك انكمش وتلاشي. ونميت بحق أن أرى منصوراً.

رفع الأمير قطعة للشاش. هامت الأيدي ترفع الشاش فوق
الصواني التي أسماها. وأمتلأ الفضاء بالأصوات الطاغية.
ضباب. ضباب. إيش عوى هذا المقتوه؟ ضباب يا أبو محمد
ضباب يا أبو منصور. ضباب يا عبد الله..

لم تكن فوق الصواني خراف حيوان غريب قصير مثل تصاح
صغير له ذيل كثرة الفقرات

- هذا ضب

قال لي عابد هامساً ولم يكن مهماً أن أعرف. كنت أتابع
العطب على وجه الأمير وفي عينيه. والدهشة على وجوه
الباكستانيين. الذين قام واحد منهم مطزوماً بصرخ. وخرج جارباً
مضارباً الباحة كلها. وعلل الصمت بخط. وبدأ الارتباك على وجه
عبد الله. وما زال أبو منصور يغالل النعاس. ولم يظن أحد لما
فطنت أنا إليه. لم يكن فوق كل عينية «ضب». ولكن كان فوق
ثلاث أو أربع منها حيوان آخر له أربع أرجل كبيرة وبلا رأس. تكن
إليه الضخمة المرتكزة المستلة توضع أشد توضيح ورفع عابد
قطعة الشاش التي فوق العينية التي أسماها. فوجدت نفس
الحيوان. وشعرت بمعدني تكاد تكفر. وكأنا لفرت من بطني إلى

في سفينة. هكذا احسست بالضغط فاستكت بطني بيدي.
 ونهضت جارباً إلى دورة المياه. لكنني لم اُنجح في ان اُمنع نفسي عن
 التقيؤ قبل بابها. ولحق بي نيل بسرعة. واخذني من ابني من
 الخلف. ومشي بي إلى البوابة اكلد فسلط مفضياً علي. وسبعت
 صراخاً وهرجاً. وولف نيل بالباب يرى ما يحدث الله الله. ما
 هذا. وولفت متصاملاً جواره لمرايت شخصاً لم تسبق لي رؤيته.
 يطرد بالباعة اليمنيين. ويشجع كل من نزل اليه يده منهما ضرباً
 حتى استطاعا الهروب من باب الباعة. فولف هو يربح غنوته التي
 انزلت إلى الأرض. ويتقدم نحو الأمير الذي قام في غضب ومضى
 بسرعة خارجاً لا يتوقف نه. وهو يحاول الاقتراب منه. ولم يفلح إلا
 عند باب الباعة في تقبيل راسه وانفك وكنتيه. وملا الشوارع الباعة
 بالحوار والصيحات والضججات أيضاً. وصرخ عبد الله في
 الباكستانيين أن يعمنوا الاكل ويلقوا به في الخارج. رويت ابا
 منصور بمشي متجنباً ولا يكف عن هز راسه.

أدهشني ظهور اليمني العجوز من جديد. اليوم جاء مبكراً في حوالي التاسعة ظهر جالساً في مكانه والسواك في فمه ولا يكلم عن النظر إلّ ولا عن الابتسام.

يزداد اهتماماً اليمني العجوز منذ ظهوره. لابد أنه عراب حكاية منصور كلها. مسكين منصور. في اللحظة الأخيرة عراب أخوه الأكبر ياسر الوليدة. قيل إن أمه أخبرته وهو يدخل البيت عثداً من الدكان. أن منصوراً ذبح القروء التي اشتراها من السودان، وأنه اتفق مع بعض اعراب للبلدية على صيد عدد من الضباب، وأنه استجلب بمنيز ليظهوا له هذا كله. لكن اليمنيين كانوا قد جعلوا شيئاً في السيارة ومضوا. ولحق الأخ الأكبر بمنصور وهو يركب سيارته الكابريس فسنعه من المنصور هاجمه بضربة. يضربه منصور أيضاً، لكن الأخ الأكبر نجح في النهاية في ربط منصور إلى نظة كبيرة ببنحة البيت، وأصرح يحضر إلى الشركة إنه هو الذي وأبته يضرب اليمنيين بجنون. ويطلون بعد ذلك استرضاء الأمير

في البداية لم تصدق القصة. لكن خير نقل منصور إلى مصلحة الأمراض العقلية بالمطائف اكدها في عابد هو الذي أخبرنا، ثم

تحدث فيها الباكستانيون الذين عرفوا ذلك من زملائهم بالشركات الأخرى عرفت ثوبك كلها القصة والنهاية، فلم يعد هناك شئ في الخبر لقد ذهب منصور إلى الكويت للمرة الثانية فوجد وداة تزوجت قريبها لم يساعدها منصور في أي شيء، وكل ما قاله لي خيال اصطنعه هو وهذا، عاد منصور من الكويت يلعن النفط واليوم الذي تعجبت به الأرض، من قبل كل الناس ياكلون سباح الصعراء، والضرب حيوان نذير اللحم شهيق أكله في البداية لا بد أن منصوراً الذي لم يحضر التوتية أحد القروء لنا نحن الغرباء، ولم يكن ليوافق أن توضع الصواني التي تحملها كيفما اتفق



لماذا لا تسلك هذه الأيام

سألني نبيل الذي سيسافر بعد غد إلى القاهرة، لم أشأ لسأله لماذا عاد اليمني للظهور ولماذا يحضر اليوم مبكراً ولم أشأ أخبره أنني أضعف وكأني مسؤول عما حدث لمنصور ثم ماذا يفيد أن أحدثه عن وحدتي وتفكيري كل يوم في أن لا أحد حولي أتحدث معه، مضى اسبوعان الآن من الشهر الذي جفده في صالح لأترك البيت، ولم أسمع للبحث عن مسكن آخر دائماً أنني ودائماً لا أتمسك إذا تفكرت.

قلت:

- اجلس معي قليلاً.

جلس وقد عاد الإشراف القديم إلى وجهه نظر إلى طويلاً ثم انخفض عييه وقال:

٧ - أعرف لماذا أنذكر هذه الأيام قول أمي لي دائماً إنني شيئاً
 له. من زمان وهي تقول لي ذلك. دائماً تذكرني بخالي الذي كان
 يأخذ مني فلوس الإذاعة ويعطيني الشيكولاته وكيف لمزل في
 الخيل. وكان يُفد من أشهر السجاري في أمبابة، والمدرس الذي كان
 يخريني في المدرسة الابتدائية حتى كرهت المدارس كيف سقطت
 فوق رأسه حَقَّةً، من إحدى البنوك فسات في الحال. والضابط
 الذي أخذني من القهر إلى القسم مع تجري من الحسيان وتسبب
 في تفاسي سنتين في اصلاحية الأحداث كيف سقطت به بلكونة في
 حديرة لمن للجيرة فسات رغم أنها بلكونة الدور الأول. وخطبتي
 التي تركتني من أجل سائق تاكسي. نزل أمي إنه سيقطعها، لأنه
 اعتبرها شراً عليه إذ دمست سيارة جيش كبيرة التاكسي الذي
 يملكه وسوّته بالأنف ليلاً رغم أنه ركنه تحت شباك بيت .. لهذا افكر
 في ذلك كثيرُ هذه الأيام

ولم أجد إجابة كنت محتاجة إلى حديثه الحلو يُفرج همي
 فلجأني بكافاره. سأكتبه

- هل التذمت أخيراً بزواج خطيبك من سائق التاكسي

- لا اظن أن أمي تكذب طول الوقت.

- لماذا تصرّ على السطر اذن؟

- لا اعرف

اجاب وعلو الى الصمت قليلاً ثم قال:

- هل تظن انني شيئاً لله حقاً؟ هل أنا طيب إلى هذه الدرجة ولا

أدري؟ هل يحبني الله إلى هذا الحد؟

تأملته قليلاً وقلت وأنا اشعر بعطش غامر نحده

• لا اظن ان الله يكرهه يا نبيل

هز رأسه وانقسم رقاب:

• نيت خالي امطاني الفلوس ولم يمت، وليت اخذير تركني
متعلقت ولم يمت، وليت الضابط لم يدفع بي إلى إصلاحية
الاحداث وملش، وليت خطيبتي لم تهجرني.
واجهش بيكي فجأة ثم قام وتركني.



جلست وهدى بطيئة انهم، انهمكت في ترجمة تقارير لا اعرف
احداً ممن يكتبونها من الصينيين الاميركان، عن مواقع عمل ثم اررها
رغم كل هذا الوقت، ولا استطيع بين حين وآخر ان امنع نفسي عن
النظر ناحية اليمنى، فأجده ينظر إلى ولا يكف عن الانقسام.

من قبل، حين كنت انظر اليه كان يحس بنظراتي فيبدلني النظر
ويبتسم، اليوم والايام الثقيلة المسابقة منذ وليمة منصور، لا يبعد
عينيه عني. وحين عاد غابت عن البلدة يعمل خطيباً في قران اسم
علاء خلف الظروف ناهضت قوامه حتى أعاد إلى البيت، لم احب
أن افسد نفسي بشيء يطلبه علاء مني، لو مشكلة ثارت بينه وبين
أخشي ويريد رأيي فيها هناك استطيع ان افتح التبليزيون أو اترك
البيت نفسه والملش في القلدة بحرية.

٣٠

لم أحب أن تفارق يوماً فتكوبني. لقد أثر الجميع الخفاء الخبير
عندك حتى لا تتركك في عسلك. لكنني أدركت شعاعك وقدرتك على تحمل
القصاص. لذلك سمعت أن أضربك رغم ما في ذلك من ألم ألم لك لأنها
والدتك الحبيبة. وألم في لاني خالفت ما أجمعت أسرتك عليه. لقد
توهيت الوالدة منذ أسابيع ولعلنا بدفعها وعمل ما يليق لها من جناز.
ولرحو أن تتلقين حلقص عزائي. وعزاء لمرثي. فلقد كانت واليتك أما
لنا جميعاً. وأرجو من الله أن يقوي عزيمتك. وأن تكون كما قدرت
تماماً الإسلام القوي الذي بدوره حكمة الله. وأن تستمر في عسك
واتقاً إنما هنا. أنا والأسرة. نرعى أخوتك كالخوة لنا.

ولم أتم الليل امر ولا أحسب أنني سأنام الليلة أيضاً لم
استطع العودة إلى العمل لأخبر أحداً. ولم استطع البقاء في البيت
إلا بعد أن دبرت في البندة قاضياً كل شوارعها وكانني وحدي أنني
بين الظلال لا صوت فيها لأحد

- نسي الصباح علي وأنا أدق راسي إذ كيف ضاعبت مني صورة
وجه أمي إلى الأحد الذي لم أنتج ولو مرة في استحضاره هل يلحق
الموت بالخيال أيضاً

الذهني الجمود الذي حط فجأة على نصرت من حجر. لقد دوت في البلدة غم وراح حذاء بما حولي. لكن ذهني لا يعمل. مضى على الليل طويلاً. شديد الطول حقاً. لكن ذهني لا يعمل. هل كنت أترفع هذه النهاية لامي ولا ادري؟ ويريدني أن أكون كما أصر هو. الإنسنان القوي الذي يترك حكمة الله وأن أستمع لي عملي. علاء الذي لا أعرف في أي مكان كان قابلاً وفقر منه ليستمرني على حصار شقائي يريدني أن أستمع وهم. إخوتي، لعبة أبي المقيمة. أخلوا عني الغير كمي أستمع في عملي. لا يريدون تعطيني عن إعداد نفسي بما يجب وبما يسمى كل شباب هذا الزمان لأعداد أنفسهم به. المال الذي يتفوق على ما قلعتنا به مصر من شروق لقد اشتقت كثيراً إلى فار فار واحد يخطيء ويخل البيت بعد هذا الانقطاع. لن أقتله مشتاق إلى سماع صوت خرشاته وقفرائه وهو يمرح لاهياً واتقاً من براعة الدنيا حوله.

بالطبع لم يحسن عابد ولا نبيل الخير لقد راووني أعمل هائناً. لكنني أظهرت الخطاب لعابد الذي ارتكبه.

- هل مستأجر؟

- نعم.

- لكن ..

- سيوافق عم عبد الله. لن يرفض شيئاً كهذا

قلت له حاسماً. وبعد قليل جاء عم عبد الله إلى المكتب. وليل أن أذهب إليه جاء هو إلى. لقد أخبره عابد. حادقني وقدم لي عزاء. وسألني ما إذا كنت محتاجاً إلى أي شيء لشكرته. وأمر عابد أن يذهب إلى الجوازات لاستخراج ليرة لمدة شهر. وأن يشتري لي

تذكورة في عودته لاسفلر غداً مع نبيل. لم يقل هو مع نبيل. فكنت أنا
 بمرحة وهو يصدر لعليد أوامره. ولم يضايقني ظهور اليوم
 مبكراً أيضاً ولا ابتسامته التي لا تخطفي لفظ في طريق عودتي
 اشتقت الى الذهاب الى المستشفى. لأرى عايذة والقول لها لقد
 انقطع كل ما بيني وبين الناس في مصر. وارتكت أنني لم أجدها
 تذكرت القصة كلها والآن في غرفتي في البيت الذي عليّ أن أتركه
 نهائياً لصالح. أريد لو أخذ سيارتي وأسرع الى بيت واضحة أنني
 في مسرعا. يا الهي! أتذكر الآن أنني وأنا أبود في البلدة مساء أمس
 صامتاً غير مدرك لما حولي. رأيت دكانة أخبها خالد معلقة لا تزال.
 وكانت فجأة أنهما توامان. تذكرت شدة الشبه بينهما. ثم تذكرت
 أن خالد أكبر بكثير. وكما حدث أمس اشتقت اليوم الى طاريفتي.
 ويدخل. وكما لم يحدث أمس اشتقت للتليفزيون. لكن الإسفلر كان
 قد انتهى من وقت طويل حتى أنني أرى الصباح يجاهد للانعتاق
 من ظلام هذه الليلة العاتية الخائفة. وكان عليّ أن أظل أجاهد النوم
 الذي بدا يغشائي الآن لو نمت ما استيقظت إلا في المساء. ولا
 أحسب أن طرقات عايذ الذي سباتي ليحطمني الى المطار سنوطني
 أبداً



- أراك اليوم للفضل من الأسفلر -

قال عايذ الذي جاء في الثامنة صباحاً ووجدني في انتظاره لم
 أزد. لا أظن أنني كذلك. وحملت حقيبة كبيرة لحملها عليّ وترك لي
 الصلحبة أحملها. باتت الدهشة علي وجهه وأحسست به يكاد
 يسألني كيف اشتريت ما في الحقيبة رغم ما يبدو عليّ من حزن.

ولم أشتأ أخبره بأنه ليس في الحقائق إلا كل متاعي المخلص الذي
جئت به من القاهرة، ولشياء قليلة كنت أشتريتها من قبل. لم يعد
لي في البيت شيء. حتى التليفزيون، الذي تركه فاروق ثم تركه
سعيد، ثم تركه وجيه. تركته أنا.

ولقد السيارة على مهل. ليس لأن الطائرة مستطع في العاشرة. لكن
لجلال الشوف هكذا فكرت. كنت محتاجاً إلى أن أرى الجدة مرة
أخيرة بانتباه، ولم يكن ممكناً طلب شيء هكذا منه، والمسافة من
بيتي إلى طريق أنظر لليلة لا تمر من وسط البلدة.

- لقد ذهبت بنجيل منذ الليل.

قال ولم أرد.

- نجيل سيسألك في السفر.

ولم أرد.

- أرجوك أن تعود لنا بسرعة. اثرت معلق على راقب العباد.

ولم أرد. وأحسست به خجلاً إن صمت ولم يتكلم بعد ذلك.
وأنا فكرت في هذه الروح المعادية له بلا سبب تفلز من جديد.



تخلت السيارة إلى طريق المطار ذي الأسفلت الأسود اللامع
الذي تنعكس فوقه أشعة الشمس متعاقبة تنكروني بعدم استوائه.
لقد سمعت الشمس اليوم بسرعة إلى السماء، وتعلكت الدنيا في
وقت مبكر، ولم يكن حول الطريق إلا زمام وكثبان.

هذا طريق امره. لكنني أراء اليوم وكأنني أراء لأول مرة. ولا
استطيع أن أكف عن النظر إلى الناحية لأرى شيئاً حولي غير

الكثبان. رأيت الكلب الأبيض الضخم مثل العمود الشارد يجري بسرعة فوق ظهره شيء أسود انطسحت صورته وأنا افتح عيني على اتساعهما. إنه قرد ذلك الذي يركب الكلب المسكين الذي لا يتوقف عن الجري بسرعة مذهلة. لم يثنيه هابذ إلى المشهد، وكنت اهتف له أن ينظر إليه، لكنني ابتلعت ريفي الذي أحسست به جلفاً، وانقلت هوي عني لأنظر من الزجاج الخلفي، فأرى الكلب لا يزال يجري والقرد لا يزال فوقه لكن الطريق ينحني. وسيارتنا هي الأسرع، والمشهد كله يعيب عني. وتأخذ مكاتب انشركة مكان الكلب والقرد فالتفت أنظر أمامي هذا قرد منصور لا بد قلت لعلي هامساً.



- كل من عليها فان يا اسماعيل نحن سمركب طائرة ونمضي ساعة ونصفاً بين السماء والأرض ويمكن جداً أن تسقط بنا.

كان نبيلاً يحدثني وأنا لا أنظر إليه.

في البداية، حين وصلنا إلى المطار، وبعد أن تركني هابذ ودخلت إلى الصلاة، أحسست بالبهجة نشع من كل شيء حولي عدد كبير من أهل البلدة وعدد أكبر من المصريين لا يكتفون عن الحركة والكلام. وقد ارتدوا جميعاً ملابس زاهية نظيفة، وكثير من الأطفال يتحركون في عغوية ويدورون ضاحكين حول الحفائض الملونة، وشعور طيب يبعثه مكيف الهواء، ووجوه الشباب الصغار خلف الميزان ومكاتب الجوازات نظرة هائلة. وشعطي حقاً شعور بالراحة والرضا. وبدأ أنني نسيت تماماً موت أمي، ولشعلت سيجارة. وقدمت أخرى لنبيل، وابتسمت. لكنني الآن أرى ما لا يراء نبيل.

عربة جيب تلف امام باب الحافلة ينزل من بابها الامامي ضابط شاب يتقدم بسرعة الى الجوازات وفي يده جواز سفر اضطر يدفع به إلى الموظف الشاب الذي يتسلم. ومن انخلف نزل شريطان وجذبا وهلا نزل ووقف بينهما لمداهام امامهما ظلف الضابط انه سيد الغريب هو نفسه بلحيته الطويلة ونفس ينطقونه الذي رايت يوتديه من قبل وفوقه يرتدي قميصاً لم يجد الوقت، أو لم يشاء، ليفسكه ويكرهه لقد رأني هُوَ نزوله من العربة كما رايت. ونظر الي كمن كان يعرف اني في انتظاره يذكرني كما اذكره بلا شئ ولم انه ينظر الى احد آخر ادخلوه من باب الى غرفة ولم مره بعد ذلك، لكن المسافرين جميعاً اذكروا المسألة الآن. وبدأ المصريون يتحدثون في هذه لم يكن صعباً ان يدرك تبطل ما يحدث، فبعد ان حدثني نظر إلى حيث انظر وقال:

- مطبوس عليه ويُرَخَّص. يا ساتر يارب!

ورأيت وجهه يعقظ ويشعب، وابشع عني، وراح يدور بنصبية بين المسافرين لولت ليس بالقصير.

اذنكت ان سيد الغريب سيسعد إلى الطائرة قبلنا جميعاً، فلا متاع معه ليزنه، واجراءات سفره لا بد تنم الآن. وأن الشريطين سيسحبانه حتى يحلر بالطائرة. ولذا لن نرى شيئاً من ذلك، سنجده جالساً في الطائرة حتى نسمع اليها.

بدا من حديث المصريين الهامس انهم يعرفون قصته، لكن الدهشة كانت توضح على كثير من الوجوه. ورأيت الخوف ايضاً على وجوه كثير من النساء الثلاثي اربع وجوههن مكشوفة الآن. نعر في المطار.

رايت نبيلاً يتحدث مع المصريين، فأدركت أنه يتقضى قصة سيد
الغريب

لما لم يحاول أن يسألني حفاً:

- يقولون إنه طبيب .

ولطعمته اللؤلؤ

- اعرف القصة كلها.

لقد اطلقوا سراحه اليوم يقولون إن وكيلاً جديداً لوزرة الصحة
زار ثبوك وعرف قصته لطلب أن يراه . كان هذا الوكيل زميلاً له في
الجامعة في مصر، وهو الذي رشب امر ترحيله بوزن محاكمة، إنه
محتفظ جداً.

ولم أذكر فيما إذا كان سيد الغريب محفوظاً، فكنت كيف يعرف
الناس في ثبوك كل شيء ولا اعرف أمّا شيئاً، ريدا المسافرون في
الانتظام في طابور طويل لوزن ما معهم من متاع



أحصيت في السلسلة القصيرة ببر باب الصلاة ولباب الطائرة
اني انا والكون شيء واحد، ساخن وفراغ، ولذيت كيف أسرع نبيل
لبيسنا جميعاً ويصعد من الطائرة هزياً مما تقذفنا به الشمس
من لهيب رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف، لكن نبيلاً
كأن يبدو خائفاً وهو يقترب من الميزان قال لي إنه خائف من هذه
الرحلة، وإنه حين ركب الطائرة اول مرة لم يخش شيئاً، قلت له إن
الخوف شعور طبيعي في السفر بالطائرات ولم أر صفة وجهه
تعود إلى صفتها إلا بعد أن تركنا صالة السفر ودخلنا إلى أرض

المطار لقد سبقنا جميعاً وفأخذت أنا الذي منيت على نيل النظر ناحية اليمين فأرى طائرة هليكوبتر صغيرة صفراء على جانبها صورة العلم الاميركي وتحت ثمرات والقنوت الجوية للولايات المتحدة الاميركية). وأنظر يساراً فأرى طائرة هليكوبتر أخرى.

جلستُ صامتاً بجوار نيل الصامت. رأيت سيد الغريب يجلس في المقعد الأول خلف كابينة القيادة. بعيداً عنا جميعاً في الدرجة الأولى انني لا بشغلها أحد. لا بد انهم اختاروا له هذا المكان حتى لا يكلّمه أحد. تولعت ان يعلّق نيل على هذا الكرم في الترحيل، لكن نبيلاً كان لا ينظر إليّ. شخص بعينه إل لا شيء. وراح يقرأ. الفاتحة، أكثر من مرة بصوت أسمع بوضوح رغم صوت محركات الطائرة

ربطنا الأحزمة، واستمعنا عن التدخين، وطلعت علينا إحدى المضيفات بعناية الموبوني. وتحركت الطائرة بسرعة هائلة فوق البحر، وازدادت سرعة نبيل وهو يقرأ الفاتحة، وانخلعت الطائرة مرتفعة عن الأرض، فرائته يغمض عينيه، وسمعتة يقول: «الصد لله». واستوت الطائرة في الفضاء، هزّاج التركاب يتكون أحزمتهم، وتهد نبيل وقال:

- الآن ليحدث ما يحدث

رمت على ساقه الشجعة لفتان

- أما لن اعود مرة أخرى.

نظرت إليه في دهشة. قال:

- هذا قراري ولا رجعة فيه. كل فتاة سخطها ستتركني

وتتزوج. لا بد ان اظن لي مصر لاحفظ على ما أمك.

وسكت لحظة وقال
- كنت أيضاً يجب أن لا تعود.

تأملته بقلبك

- أنا بالفعل لن أعود يا نبيل

- متبقلي في مصر

سأنتفي وقد اتسعت عيناك ببهجة ملائحة قلت
- لا.

ورأيت الدفشة تأخذ مكانها فوق وجهي، وأنا لا أعرف كيف
أجبت بذلك. لكن لا إجابة أخرى عندي حقاً هذا ما أشعر به كأنه
يقين، وجأنا صوت فلند الطائرة

«أيها السادة سوف تعود الطائرة إلى المطار بسبب عطل فني
بسيط نأمل حل هذا الإزعاج، ونأمل تعاونكم معنا بالمحافظة على
هدوئكم، والبقاء في مقاعدكم، والامتناع عن التدخين، وربط
الأحزمة»

- ها نحن فيما يبدو لن نسافر اليوم

قلت، لكن لم يبدو أن نبيلاً استمع أو شيء من كلامي استمع
وجهه وشعبي، وزالغت عيناه، وتضاؤل في مقعده كمن يود الاختفاء

- نبيل! ماذا حدث؟

كلّما ينظر إلي في رعب رعب لم أعرف من قبل أنه يمكن أن
يصيب البشر. ولم تكن قد ارتفعنا كثيراً، لقد أحسست بالطائرة
تهبط، ولم أجد وقتاً لأنادي إحدى المضيفات إذ انشغلت مربوط

حزامي حولي، ثم رجت أربط حزام نبيل حولي، وهو ذاهن عني لا
يكره بحسن بي.

ارتطمت عجالات الطائرة بالأرض بقوة الفزعنة، فارتفعت
سيارات الركاب، وكان قلبي ينطلق وأنا أرى نبيلاً يتصاحن أكثر،
وسمعت صوت صفير الحرك العالي. وصوت احتكاك العجلات
القوي بالأرض، وسمعت بالكاد صوت نبيل وهو يقول:

- لا يوجد عقل فني يا استاذ اسماعيل.

.....

وفي اللحظة التي تولفت فيها الطائرة، رايت من خلف زجاج
النافذة الصغيرة عدداً من الجنود يقبل نحوها بسرعة.

- لا يوجد عقل فني يا استاذ اسماعيل. لديك تفكير من جوارى
الآن. لقد سرقت الخزنة، هرفت رأسها أخيراً، وأخذت منها خمسين
الف ريال خبأتها في العفش.

بسرعة انفتح باب الطائرة، وبسرعة رجعت جوارى وأمامي ثلاثة
من الجنود ينقلسون على نبيل يجذبونه بقوة وأنا عاجز حتى عن
الكلام، والركاب جميعاً ينظرون إل ما يحدث في هلع، والمضيقات
المصريات ولفن مشتمهات منكشحات جوار بعضهن يكن يتلاشن
والفرح عز وجوههن، ولم أروجه سيد الغريب ظل جالساً في مكانه
لا يتحرك ولا بهتم بأمر يعرف ما يدور بالطائرة.

من النافذة الصغيرة أيضاً رايت عم عبد الله وعابداً يقفان

وسمعا الضابط الكبير أير حكيم يحولهم عدد من الجنود، والجنود الثلاثة يدفعون نبيلاً ناحيتهم، ولا يكونون من ضربه على لقاء بمنزلة رأسه بأيديهم، ويكمله في ظهره بأرجلهم، ورأيت عابداً يتقدم بسرعة نحو نبيل يقابله بركلة شديدة في بطنه، فينحني نبيل، ولا يكف الجنود عن ضربه على ظهره ويقفاه ورأسه، ويأخذ يعود إلى الخلف خطوة ثم يهجم ضارباً بكل قوته، مرة بيده، ومرة بقدمه، حتى سقط نبيل فوق الأرض من ظهره. ورأيت الدم يغطي وجهه، لكنهم انحنوا يمسكون بقدميه يجرّونه جراً، يسطونته، على أرض المطار، ويدنون من خلف الطائرة ثم بعد ممكناً لي رؤيته، لكن الجالسين في الجانب الآخر، الذين كانوا قد انصدوا إلى جانبنا يحاولون الرؤية معنا، اسرعوا بالمسودة إلى جانبهم، ويقفوا متراحمين ينظرون من التوافد الصيفية. ولم أحاول معلومة النظر.



حضرات الركاب.. نعتذر لكم عما حدث منذ قليل، ونرجو ضاببتكم إلى أننا سنطلع على الفور. رجاء الجلوس في مقاعدكم والتمزام الهدوء، وربط الأحزمة والامتناع عن التدخين. نتمنى لكم رحلة طيبة ووقتاً سعيداً على طائرات الخطوط الجوية السعودية.. شكراً.

ورأيت المضيفات يتحركن بسرعة، وراحت واحدة منهن تدور علينا بعطية البونبونى مرة أخرى، وكان قائد الطائرة يعيد ما قاله منذ قليل، لكن باللغة الانكليزية.

الطائرة

١٩٨٨ - ١٩٨٩

المثلاة الأخرى

تبوك، هي إحدى مدن المملكة العربية السعودية وهي المكان الذي تجري فيه أحداث هذه الرواية.

الراوي كونه موظفاً مصرياً هاجر إليها للعمل، يقدم لنا عبر سرد تجربته في الإقامة والعيش، وصفاً حياً لأوضاع المهاجرين أمثاله من مصريين وأميركان وباكستانيين وكوريين. كذلك لعادات وتقاليد سكان المدينة وسلوكهم. فنجد أن القسيم جداً في تلك المدينة العربية يسر بمحاذاة الجديد، في جو من الطراقة المثيرة. ونجد شخصيات الرواية وناسها يتدفعون نحو مصائر غريبة تستبك فيها المأساة بالملهاة.



1855131757